ديموقراطية بالتقسيط

عبد الحميد عقار

يمكن أن نعتبر الاستحقاق التشريعي للسابع من شتنبر 2007، واحداً من أبرز أحداث السنة. لكنه لم يكن معزولاً ولا بدون سياق. هناك المبادرة المغربية بشأن الحكم الذاتي بالصحراء المغربية، والذي قُدِّمت صيغته الرسمية للأمين العام للأمم المتحدة يوم 11 أبريل 2007. الحكم الذاتي بوصفه مرجعاً وإطاراً للتفاوض مع البوليساريو، واختياراً سياسياً يعزّز الديموقراطية المحلية الجهوية باعتبارها نوعاً من تقرير المصير، وآلية لإنهاء صراع، طالما استنزف السلْم والتقدم والإقلاع المأمول للمغرب العربي الكبير سياسياً واقتصادياً واجتماعياً.

هناك أيضا الارتفاع الملحوظ في الحركات الاحتجاجية، والمطلبية ببعديْن كبيرين: اجتماعي، وسياسي حقوقي؛ وما ووُجهت به أحياناً من تدخُّل عنيف من القوات العمومية، وتضييق على حرية التعبير والصحافة والصحفيين (الوطن الآن، نيشان، تيل كيل، لوجورنال ...)، واعتقالات ومحاكمات. هذا الاحتجاج أخذ طابع انتفاضة واسعة المدى بعد الانتخابات مباشرة، وأياماً قليلة بعد تعيين الوزير الأول وفق المنهجية الديموقراطية.

يتعلق الأمر بمظاهرات الأحد الأسود بصفرو يوم 23 سبتمبر 2007، لتشمل بعد ذلك عدة مدن ومراكز حضرية، ضداً على غلاء المعيشة، وبحثاً عن الاعتبار والكرامة في

مواجهة التهميش والإقصاء. أمام هذا الوضع، يصبح التساؤل مشروعاً عما إذا شكلت الانتخابات التشريعية انتظاراً من انتظارات المواطنين يستجيب لتطلعاتهم، ويسهم في خلق الإطار الملائم لحل معضلاتهم. لقد جسّد استحقاق 7 سبتمبر 2007، بدل ذلك، في المنظور السياسي والثقافي والأخلاقي، اختباراً جديداً للمغرب، مجتمعاً ودولة في آن واحد:

* اختباراً لمدى الاحترام والقبول بالنزاهة والشّفافية والتنافس الشريف معياراً لسلامة الانتخابات، ولمصداقيتها، وجدواها للحاضر والمستقبل. النزاهة ضداً على تدخل الدولة، واستعمال المال الحرام والحلال في شراء الذمم، وضداً على الإخلال بأخلاقيات التنافس الشريف قبل التصويت، وأثناءه، وعند الفرز وإعلان النتائج، وعند تقويمها وتأويلها لاتخاذ ما يلزم من قرارات.

* اختباراً لمدى ثقة المغاربة واقتناعهم بجدوى الانتخابات بوصفها آلية سياسية أساسية في كل نظام ديموقراطي، غير صوري ولا شكلي. اقتناع يؤكد الإيمان بقواعد العمل السياسي الديموقراطي، المبني على الصراع الإيجابي المعقْلَن والمؤسساتي، بين الأغلبية المدبِّرة للشأن العام، والأقلية المعارضة، وعلى تداول سلطة الحكم والتدبير والتشريع بواسطة احترام إرادة الناخبات والناخبين، وما تفرزه اختياراتهم بالتصويت الحر والنزيه.

* اختباراً لمدى استعداد النظام لاحترام نتائج الاقتراع العام المباشر، فيما يهم تعيين الوزير الأوّل، وتشكيل الحكومة الجديدة، وتكريس دورهما بوصفهما مؤسستين دستوريتين.

لقد حقّقت الشفافية بالفعل تقدُّماً واضحاً أقرَّ به الفاعلون والملاحظون، ودونما إغفال أو تجاهل للحالات المسمّاة معزولة، وهي كثيرة، ولا لاستمرار اشتغال المال والزبونية والقرابة بعيداً عن البرنامج الانتخابي، والمشروع المجتمعي للأحزاب، وعن الجدارة أو الكفاءة التمثيلية. فيما يؤكد العزوف غير المسبوق في تاريخ الاستحقاقات الانتخابية، فُقْدانَ الثقة لدى غالبية المواطنين والمواطنات بالمدن في النظام الانتخابي، باعتبار المساحة الضيّقة والدور الهامشي المتبقّيَيْن للحكومة والبرلمان المنبثقين عن الاستحقاقين السابقين، فيما يخص سلطة القرار والتدبير بالنسبة للقضايا الأساسية، وفيما يخص الحقّ في المبادرة والابتكار. فهل كانت للحملة الإشهارية المخدومة والمكثفة القوة الثقافية والأخلاقية لتغيير هذا الاقتناع السلبي بجدوى الانتخابات؟ علماً بأنّ دعوة الملك وإلحاحه، ودعوة الأحزاب المتصلة للتصويت بكثافة، بقيتا معاً دون الاستجابة المراهَن عليها؟

أمام ما أفرزته انتخابات 7 سبتمبر 2007 من نتائج، يصعب التكهُّن باحترام النظام للمنهجية الديموقراطية بصدد تشكيل الحكومة السياسية، وبصدد دورها ودور البرلمان الدستوري. ذلك يعني احتمال استمرار التيكنوقراط أعضاء أقوياء في الحكومة، واستمرار وزارات ذات سيادة ضداً على الدستور ودولة المؤسسات، واستمرار الحضور المُفْرَد للملك وللملكية.

وأختم هذه الورقة التقديمية بالملاحظات التالية:

1 – لقد تم تعيين الوزير الأول وفق المنهجية الديموقراطية، دون وجود ضمانة دستورية. من حيث المبدأ يعتبر هذا التعيين مكسبا للمستقبل ينبغي تحصينه بالدستور، لكن التساؤل هو عن مدى احترام هذا المبدأ في تعيين الحكومة نفسها؟ إن المغرب يعاني من تأويل الدستور وتأويل النتائج. فالفصل 24 من الدستور واضح فيما يهم تعيين أعضاء الحكومة. ولا يقبل تأويلاً مَا، يسحب من الوزير الأول المعيّن حق تجديد الاقتراح وتغييره إلى حين حصول الاتفاق.

2 – ما هو المدى الذي ستطوله مسؤولية الحكومة والبرلمان والقضاء والإدارة في ظل دستور غير معدَّل، تجاه التحديات الاقتصادية والاجتماعية الملحة، وتجاه محاربة الفقر والتهميش والتفاوت، وتجاه المخاوف المتصاعدة ضد العنف والتطرف؟

3 – ما هي حدود تدخل المجتمع المدني والسياسي والحقوقي والثقافي لإنعاش فكرة مواصلة الإصلاحات الدستورية الأساسية التي تفضي إلى تشييد دولة المؤسسات والقانون والمسؤولية والمحاسبة والتقويم؟

4 – ما العمل تجاه مآل التحديث والعقْلَنة أمام ما يمكن وصفه بتصاعد لافت لتيار المحافظة والتقليد في صفوف المجتمع؟ إن اتجاه التصويت مؤشّر في هذا المنحى.

5 – هل يمكن لنتائج التصويت وللنسبة العالية للعزوف عن التصويت وللبطائق المُلغاة، أن تشجع على المضي قدُما في الإصلاحات السياسيَة والدستورية المرغوب فيها؟ إلى أي مدى ستظل الديموقراطية بالمغرب انتقالية الطابع، مرحلية التشييد، تقسيطية أو جزئية السلطة والقرار والفضاء؟

6 – ما هي الانعكاسات المحتملة في الأفق المنظور لنتائج الاستحقاق ولأسلوب تعيين الوزير الأول و الحكومة بعد ذلك، على مسار المفاوضات بصدد الحكم الذاتي في

الأقاليم الصحراوية من جهة؛ وبصدد مصداقية خطاب الديموقراطية بالمغرب دوليا من جانب ثان؟

تساؤلات وأخرى تشغل بال المثقفين والرأي العام وحوارنا اليوم، **بمبادرة من المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب**، هو من أجل مقاربة هذه الأسئلة وإضاءتها بالتحليل الثقافي العام، ومن زاوية الثقافة السياسية.

من الاختيار التوافقي إلى الدمقرطة: قراءة في التحول السياسي في المغرب على ضوء انتخابات شتنبر 2007

عبد الحي مودن

أفرزت انتخابات 7 شتنبر 2007 قراءات تباينت ما بين اعتبار هذه الانتخابات نقلة نوعية إيجابية في التاريخ الانتخابي للمغرب، ونكسة تضاف إلى النكسات السياسية التي عرفها المغرب في طريقه المتعثر نحو الدمقرطة المفقودة. ووظفت هذه القراءات للدفاع على أطروحاتها أدوات متنوعة، تباينت ما بين تحليل للأرقام ولخطابات الفاعلين وتاريخ الانتخابات المغربية والتحول السياسي في المغرب بصفة أعم. وعكست هذه القراءات أيضا الارتباط الوثيق في التحليل السياسي بين البعد العقلاني وبين المشاعر والانفعالات التي تثيرها السياسة، كما عكست أيضا دور الإيديولوجيا، كإطار محدد لفهم الظاهرة السياسية ولتأويلها وتقييمها. وإذا كانت هذه الجوانب مجتمعة (العقلانية، المشاعر، الانفعالات، الإيديولوجيا) أبعادا عادية في التحليل السياسي في كل الدول، فإنها تطرح تحديات حقيقية أمام إمكانية البحث الأكاديمي لتقديم مساهمات نوعية في النقاش العمومي، وفي عقلنة الخيارات السياسية على المستوى العملي في ظل السياقات التاريخية والفكرية التي يتطور فيها كل نظام سياسي على حدة.

وهذه الورقة هي نتاج عروض شفوية ونقاشات جرت في 22 شتنبر في مقر اتحاد كتاب المغرب أسبوعين بعد إجراء الانتخابات، وثلاثة أيام بعد تعيين الوزير الأول، وقبل

تشكيل ما سيعرف فيما بعد، في 15 أكتوبر، بحكومة عباس الفاسي. والموضوع الرئيسي الذي تعالجه الورقة في ظل الأجواء الفكرية والسياسية التي رافقت انتخابات شتنبر، وسادت في صفوف اتحاد كتاب المغرب، متعلق بكيفية قراءة نتائج هذه الانتخابات، وبتحليل مخلفاتها على اليسار، وعلى آفاق التحول السياسي.

سأبدأ بملاحظة الفورة التي تعرفها الخطابات حول السياسة والتي تظهر في منابر متعددة، بعضها جديد كل الجدة، مثل مواقع الأنترنيت، والتي لكون بعضها على الأقل، متحرر من أشكال الرقابة التقليدية، فتحت المجال لتنوع واسع في أشكال التعبير عما يحس به المواطنون تجاه الفعل السياسي. هذه الحرية لم تهم فقط المواقف من سلطة الدولة ورموزها، والتي كانت القوانين والتقاليد، تقنن بشكل صارم محتوى وشكل الخطابات المرتبطة بها. إنها اتسعت الآن لتشمل أيضا سلطة الأحزاب والمجتمع المدني والثقافة. بالرغم من التنوع الظاهر لهذه الخطابات شكلا ومحتوى، فإنها لا تخرج عن التباين بين المقتربين اللذين ظلا يطبعان الخطاب السياسي في المغرب، والذي يتميز بين اتجاه متفائل يعتبر أن النظام السياسي يسير نحو الدمقرطة، واتجاه متشائم لا يرى في ما يعرفه المغرب إلا ترسيخا للاستبداد تحت غطاءات تمويهية للتغيير.

ما هو دور الفكر في تحويل النقاش إلى جدل مثمر؟ إن الفكر يمكنه أن يساهم في عقلنة النقاش السياسي عن طريق إخضاع الخطاب السياسي للتفكيك النقدي، والربط بين النقاشات الجارية في المغرب مع ما ينتجه الفكر العالمي، وطرح بدائل تسعى لإيجاد مخارج للحالات التي يصل فيها النقاش إلى المسالك المسدودة.

كانت إحدى النتائج المثيرة لانتخابات 2007 هي التراجع الواضح في الأصوات التي حصل عليها اليسار، وفي عدد المقاعد التي فاز بها مرشحوه. يتمثل هذا التراجع أيضا في فشل برلمانيين اشتراكيين بارزين في تجديد ولايتهم، وحصول مرشحين يساريين جدد على أعداد جد متدنية من الأصوات لم تؤهلهم للالتحاق بالبرلمان.

وما يزيد من أهمية هذه النتيجة، كون الانتخابات لم تتم في ظروف توتر سياسي بين اليسار وبين الدولة، كما كان الأمر في السابق، وبالتالي فقد اختفى تدخل الإدارة كعامل أساسي في تحديد الحجم الانتخابي المسموح به لليسار. وفي نفس الوقت، فإن انتخابات 2007، جاءت بعد مشاركة اليسار في الحكومة دامت ما يناهز تسع سنوات. ولذلك، فإن هذه الانتخابات تشكل فرصة لفهم مدى تجاوب المجتمع مع اليسار ليس فقط كفكرة كما

كان الأمر قبل حكومة التناوب، ولكن أيضا كنخبة مارست تدبير الشأن العام، وكسياسات عملية طبقت ميدانيا لمدة ليست قصيرة.

يمكن أن تكون لهذا التراجع تفسيرات متعددة، منها ما هو متعلق بكون الناخبين عاقبوا مرشحي اليسار على تجاهلهم للقضايا المحلية، أو عبروا عن عدم رضاهم على منجزات الحكومة، كما قد تكون نتائج الانتخابات في المغرب تعكس تراجع اليسار كظاهرة انتخابية عالمية. لا شك أن هذه القضايا ستكون مواضيع أبحاث جامعية مستفيضة. لكن الجانب الأكثر إثارة في هذا التراجع هو أنه حدث بعد عقد من تجربة اليسار في الحكم، وكانت هذه التجربة توفر بالتالي فرصة الانتقال من فهم اليسار كفكر وكإيديولوجيا، إلى فهمه كخيارات سياسية ميدانية. إن البحث الجامعي مدعو إلى الانكباب على تحليل سياسات وزراء اليسار في المجالات التي أشرفوا عليها، لكن، وفي انتظار دراسات مستفيضة حول هذا الموضوع، فقد بدا للتو ومن خلال الملاحظة التلقائية المباشرة لانتخابات 2007 ولأجوائها عزوف اليسار بمرشحيه ونخبه ومنظريه وإعلامييه عن تسخير التجربة الميدانية كوسيلة لجلب تعاطف المجتمع وأصوات ناخبيه. إذ لم يبرز في الحملة الانتخابية ما أنجزه وزراء اليسار على مستوى كل وزارة على حدة، ولم توظف المعطيات الميدانية في النقاش العمومي للدفاع عن حصيلة اليسار كسياسات عامة. بل على العكس، بدا المتحدثون باسم اليسار وكأنهم يفتقدون إلى الحماس في احتلال فضاء الجدل السياسي العمومي، وفي تسخير تجربة الميدان لتطوير فهم الممارسة السياسية وتحليلها. أسباب هذه الظاهرة لا زالت غير واضحة بعد. ونكتفي الآن بطرح فرضيات مؤقتة على غرار كون اليسار تعثر في أن يحول خبرته في إنتاج خطاب المعارضة إلى بلورة خطاب حكومي يدافع عن الإنجاز، أو أن يكون اليساريون غير مقتنعين بالسياسات التي وضعوها أو نفذوها، أو على العكس، كونهم اعتبروا أن هذه السياسات ليست في حاجة إلى من يدافع عنها بل إنها كافية لأن تدافع عن نفسها من تلقاء نفسها، مثل الرفع من أجور الموظفين، وتحسن المعطيات الاقتصادية والمالية، والمنجزات في البنيات التحتية والخدمات كالطرق، والكهرباء والماء والمدارس. قد يكون السبب أيضا، كون وسائل الإعلام الرسمية السمعية البصرية، كانت خارجة عن قرار اليسار، و أنها كانت تحت مراقبة أجهزة الدولة غير الحزبية، وأن سياسات الإعلام الرسمي لم تكن تعكس بالضرورة خيارات الحكومة بصفة عامة، أو أحزاب اليسار بشكل خاص، بل أنها ركزت على إبراز منجزات الملك على حساب منجزات الوزراء. لكن، بالرغم من أن هذه الفرضيات الأخيرة تبدو مقنعة نسبيا، إلا أنها لا تفسر عزوف

الإعلام الحزبي نفسه عن أن يعمل على تطوير تقنياته ليوسع من قاعدة قرائه وأن يبرز إنجازات وزرائه بشكل احترافي. لكن في انتظار امتحان هذه الفرضيات، تبقى النتيجة هي أن اليسار لم يستثمر حصيلة تجربته العملية للدفاع عن مشروعه السياسي.

الموضوع الثاني هو دور انتخابات 2007 في سياق التحول الديمقراطي في المغرب. طيلة فترة التهيؤ لانتخابات 2007 وخلالها ومباشرة بعد انتهائها طرحت أسئلة متنوعة مرتبطة بالتحول الديمقراطي، هل ستكون الانتخابات في موعدها؟ ما هو مدى فعالية القانون الانتخابي في الحد من الفساد الانتخابي، وفي تقليص بلقنة الساحة الحزبية وما مدى قدرة قانون الأحزاب في تقوية المؤسسة الحزبية وتدعيم شفافيتها وعقلنة تسييرها ودمقرطتها؟ هل ستترك الإدارة الحرية للناخبين في اختيار ممثليهم؟ وهل سيقبل الناخبون على المشاركة في ظل حياد الإدارة؟ هل سيعين الملك وزيرا الأول من الحزب الذي يفوز بأغلبية الأصوات؟ هل سينجح الوزير الأول في تشكيل حكومته، أم أن القصر هو الذي سيلعب الدور الأساسي في تشكيل الحكومة؟ هل الحكومة الجديدة ستعكس خيارات الناخبين؟ ورغم تنوع هذه الأسئلة، فإنها تهتم بموضوع مركزي يتعلق بمدى كون انتخابات 2007 مؤشرا على اتساع دور المجتمع عبر الأحزاب في التأثير على صنع القرار السياسي أم أن هذه السلطة تبقى محصورة بشكل أساسي في القصر.

تقدم التحولات التي تعرفها السياسة المغربية منذ انتخابات 2007 أجوبة متضاربة على هذه الأسئلة. فالانتخابات أجريت في موعدها مؤسسة بذلك لتقليد جديد يحترم المواعيد الانتخابية. إلا أن القانون الانتخابي لم يضع حدا لفساد الانتخابات، إذ تسجل مجموعة من الملاحظات الميدانية حدوث حالات شراء الأصوات. ولا تبدو هذه الظاهرة ستنتهي بشكل كامل في الأمد القريب، إذ في ظل الفقر والحاجة، وضعف الاقتناع بأهمية الانتخاب في الاستجابة لمصالح الناخب الفقير، تبقى هناك دائما فرص الغش في الانتخابات. وعلى عكس ما كانت تعد به الأصوات المدافعة عن أن نمط الانتخاب باللائحة مع أكبر البقايا يؤدي إلى ظهور تكتلات حزبية، فإن العكس هو الذي حصل. فانتخابات 2007 شهدت تنافس عدد قياسي من الأحزاب، تمكنت 23 منها من أن تتمثل في البرلمان الجديد، وهو أكبر عدد من الأحزاب الممثلة في تاريخ البرلمان المغربي. ولم تساهم هذه البلقنة إلا في تشتيت قدرات الأحزاب وبالتالي الحد من قدرتها على التأثير في صنع القرار. وبالرغم من أن قانون الأحزاب جعل بمثابة هدف له المساهمة في دمقرطة الأحزاب

وفي شفافيتها ، إلا أن مؤشرات هذا التحول لم تظهر بعد . لكن بالمقابل ، فإن انتخابات 2007 ، سجلت حيادا غير مسبوق للإدارة في تاريخ المغرب بالرغم من ارتفاع أصوات نددت بعدم تدخل الإدارة في وضع حد للتجاوزات التي عرفتها بعض الحالات من الحملات الانتخابية . وعين الملك الأمين العام للحزب الذي فاز بأكبر عدد من المقاعد كوزير أول ، مؤسسا بذلك لعرف من المفروض أن يُرسخ دستوريا . إلا أن القصر تدخل بشكل واضح في تشكيل الحكومة ، والتي تتكون نسبة مرتفعة منها من وزراء لا ينتمون إلى أحزاب أو فرضوا على بعض الأحزاب ، مما يساهم في تكريس فقدان مصداقية هذه الأحزاب أمام قواعدها وأمام الرأي العام . هذه إذن نتائج متضاربة . كيف نفسرها؟ هل هي نتيجة لهيمنة القصر؟ أم هي نتيجة لضعف الأحزاب؟ بمعنى آخر ، هل محدودية الأحزاب في التأثير على صنع القرار هي بالأساس بسبب كون القصر لا يسمح للأحزاب بأن تتقوى ، أم إن القصر لا يتدخل إلا لكون الأحزاب لا تظهر ما يكفي من القدرات الذاتية في القيام بالخيارات الفعالة والمسؤولة؟

وبالرغم من أن هذا السؤال يبدو كما لو أنه يشبه مسألة أسبقية البيضة أو الدجاجة ، إلا أن التوصل إلى الحسم في جواب مقنع بشأنه ، والبحث عن المخارج العملية لتجاوز سلبياته ، عملية مركزية في فهم التحول السياسي وتفعيله .

ارتفعت خطابات مباشرة بعد انتخابات 2007 تطالب بتغيير الدستور مركزة على تقليص سلطات الملك . هذه المطالبة تعيد إلى الساحة السياسية النقاش حول علاقة اليسار بالمؤسسة الملكية ، لكن النقاش هذه المرة يغتني بتجربة عملية دامت تسع سنوات من مشاركة اليسار في الحكومة بجانب المؤسسة الملكية . ماذا أضافت هذه التجربة إلى فهمنا لعلاقة اليسار بالمؤسسة الملكية؟

تجاذبت علاقة اليسار بالملكية منذ الاستقلال ثلاثة اختيارات ، اختيار أول ركز على ضرورة حصر سلطات الملك عن طريق دستور ينقل مركز السلطة إلى برلمان منتخب ، وهو ما يتطلب كشرط قبل أية مشاركة فعلية لليسار في الحكم ، صياغة دستور يوثق لتقليص سلطات الملك . الاختيار الثاني عكس اقتناعات لدى شرائح في صفوف اليسار بوجود تعارض موضوعي بين اليسار وبين المؤسسة الملكية ، وأن فرص اليسار في الحكم لن تتحقق إلا عبر إضعاف المؤسسة الملكية ، بل وحتى الإطاحة بها ، سواء عبر تكريس الأزمات السياسية عن طريق الإضرابات والمظاهرات ونشر خطابات معادية للمؤسسة الملكية

التقليدية، أو عبر اللجوء إلى الخيار المسلح. الاختيار الثالث اعتبر أن بإمكان اليسار أن يحقق برامجه بالرغم من غياب التغييرات المؤسساتية، وأن مشاركة اليسار في الحكومة لا تشترط التقليص من سلطات الملك عن طريق نص قانوني، بل تتطلب توفر ثقة متبادلة بين القصر واليسار يمكنها أن تتحقق عن طريق تبلور اقتناعات ذاتية لدى الطرفين، أي عن طريق التوافق. هذه الاختيارات الثلاثة، الدستورية، الثورية، والتوافقية، ظهرت في صفوف اليسار منذ الاستقلال بصيغ مختلفة، تنوعت في درجة وضوحها الإيديولوجي، وفي قدرتها على تعبئة أتباعها، وفي مدى فعاليتها، وشكلت موضوع خلافات بين متبنيها، أفرزت مسلسلات الصراعات والانشقاقات التي لا تنتهي. تاريخيا، عرفت الفترة الأولى من الاستقلال التي امتدت حتى منتصف السبعينات هيمنة الاختيار الثوري في صفوف اليسار، تلتها هيمنة الاختيار الدستوري ما بين منتصف السبعينات وحتى منتصف التسعينات، ثم ومنذ دستور 96 إلى حدود انتخابات 2007 هيمنة الاختيار التوافقي. نتوفر اليوم على فترة تاريخية تسمح بعقد مقارنات بين الاختيارات الثلاثة وبتقييم حصيلة كل منها. وستكون لهذه المقارنة أهمية بالغة في إغناء فهم التحول السياسي في المغرب، وآفاق الانتقال الديمقراطي فيه. لا تطمح هذه الورقة إلى الإجابة على هذه الأسئلة التي تتطلب تفكيرا أكثر عمقا ورصانة، لكنها تقتصر على الإشارة إلى بعض المسالك الممكنة في معالجة هذه القضايا.

أصبح الاختيار الثوري اليوم هامشيا في صفوف اليسار. وتدعو هذه الملاحظة إلى أن تهتم السوسيولوجيا السياسية بالبحث في التطور الذي عرفه هذا المقترب، وفي تحديد الأسباب التي أدت إلى تراجعه، على ضوء المعطيات التي يوفرها البحث الميداني عبر استغلال الوثائق المتوفرة وعبر شهادات الفاعلين، والذين هم اليوم أكثر تقبلا لاستجوابات الباحثين مما كانوا عليه في السابق. ولا بد من أن يشمل هذا البحث أيضا آفاق تصاعد هذا الاختيار، بصيغ إيديولوجية مختلفة عما كانت عليه في السابق، على غرار الإيديولوجيات الدينية والإثنية. وبالمقابل، راكم الاختيار الدستوري كتابات غنية، لدرجة جعلته المقترب السائد في الخطاب الدستوري المغربي. ويجد هذا الاختيار سنده السياسي الأقوى في صفوف أحزاب الحركة الإسلامية وأحزاب اليسار الجديد والراديكالي وفي المجتمع المدني الحقوقي. ويواجه هذا الاختيار إشكالا على مستوى المرجعيات الفكرية يتمثل في التضارب بين تصورات المشاريع الدستورية البديلة المطروحة من طرف كل من التيارات

الإسلامية والتيارات العلمانية. كما يواجه إشكالا على المستوى السياسي العملي في إيجاد الوسائل الفعالة لتوسيع القاعدة السياسية والاجتماعية لمعتنقيه، وإيجاد الصيغ العملية المناسبة لمواجهة معارضيه. إذ بقيت الصيغ العملية في تفعيل الخيار الدستوري متذبذبة بين التركيز على مجابهة فكرية تعتمد على نزع المشروعية عن الصيغة الدستورية الحالية، باعتبارها متنافية مع مقومات النظام السياسي الديمقراطي، وبين توقع اعتناق الإصلاح الدستوري من طرف المؤسسة الملكية لأسباب متضاربة وغير محددة. وحسب هذه الصيغ، فإن تفعيل الخيار الدستوري يبقى مرتبطا تارة بتفاقم الأزمات السياسية، وتارة بالضغط الأجنبي على المغرب، وتارة بتصورات إستراتيجية تضمن للملكية الاستمرارية على المدى البعيد، وأخرى لحسابات قصيرة الأمد من طرفها في احتواء المعارضة. والظاهر أن غياب الوضوح في هذه الصيغ مرتبط بكون المقترب الدستوري ظل يركز مجهوده الفكري في الدفاع عن مبدأ تغيير الدستور على حساب التفكير العملي الاستراتيجي في كيفية الوصول إلى التغيير الدستوري المنشود ميدانيا.

إذا كان الاختيار الثوري عرف تراجعا على المستويات السياسية والفكرية، والاختيار الدستوري يفتقد إلى وضوح في كيفية تفعيله عمليا، فإن الإشكال الذي يواجه الاختيار التوافقي متعلق بمدى كونه خيارا مؤقتا يهيئ الانتقال إلى مرحلة تأسيس فصل السلط ودولة المؤسسات، أو أنه يعرقل هذا التحول ويرسخ الصيغة الدستورية الحالية.

يركز منتقدو الاختيار التوافقي على استمرار الدور المركزي للمؤسسة الملكية في تحديد الخيارات الاستراتيجية الكبرى وفي تدبير الشأن العام، وفي بلورة وإنجاز السياسات، ويعتبرون أن كل ذلك لا يؤشر على تحول ديموقراطي بقدر ما هو ترسيخ لهيمنة المؤسسة السياسية وإضعاف لدور للأحزاب ولدولة المؤسسات. بمقابل ذلك، يعترف المدافعون عن الاختيار التوافقي بوجود نية واقتناع لدى المؤسسة الملكية في السير التدريجي نحو الدمقرطة. وأمام الاستحالة العملية للتأكد من نوايا الفاعلين، فإن مستقبل الدمقرطة في ظل التوافق يبقى رهينا من جهة بفهم دقيق لما يحدث ميدانيا على مستوى صنع القرار، ومن جهة أخرى، رهينا بالدور الذي يلعبه مناصرو هذا الاتجاه في الدفع باتجاه الدمقرطة. إن الفهم الدقيق لحصيلة تجربة مشاركة اليسار في صنع القرار مركزية لهذا الغرض. ويتعلق هذا الفهم بتقييم مدى الاستقلالية في صنع القرارات التي اتخذتها الأحزاب عن طريق وزرائها في الحكومة طيلة العقد الماضي، ومدى الدور الذي لعبته المؤسسة الملكية عمليا في

تهيئة هذه الخيارات، وبلورتها ودعمها وتفعيلها أو عرقلتها وتشويهها.

لا شك أن أحد الإشكالات الكبرى التي يواجهها الاختيار التوافقي في الدفع بالانتقال الديمقراطي متعلق بالدور الذي اختارت المؤسسة الملكية أن تلعبه في العهد الجديد، وهو أن تكون رائدة للإنجازات والإصلاحات في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وأن تجعل من هذا الدور الإصلاحي دعائم لمشروعيتها السياسية في مطلع القرن الحادي والعشرين. ولا يتوقف هذا الخيار الإصلاحي للمؤسسة الملكية عن تقديم إنجازات ملموسة في مجالات الاستثمار والنمو الاقتصادي والبنيات التحتية وحقوق الإنسان والتنوع الثقافي والوضعية القانونية للمرأة والخدمات الاجتماعية. وكلما استمر تراكم هذه الإنجازات، ازداد التحدي الذي يواجه المدافعين عن ضرورة الإصلاح الدستوري. إذ، إذا كان النظام السياسي الحالي بقيادة المؤسسة الملكية أكثر فعالية في إنجاز الإصلاحات، فهل ستبقى هناك إذن ضرورة لتغيير الدستور؟

إن المطالبة بتقليص سلطات الملك عن طريق تغيير الدستور قد تؤدي فرضا إلى التقليص من فعالية الملك في جلب الاستثمارات، وفي تقديم الخدمات الاجتماعية، ومراقبة إنجاز البرامج والمخططات، وفي تهييء التوافق بين الفاعلين السياسيين المتعادين، أو في تجاوز المعارضة المجتمعية المحافظة للإصلاحات. ولن تعمل معارضة الإصلاحات التي يقودها الملك في هذه المجالات إلا إلى تقوية المعارضة المحافظة من جهة، وإلى حرمان البلاد من المؤهلات الرمزية والسياسية التي تتمتع بها المؤسسة الملكية من حيث هي مورد لجلب الاستثمارات والخبرات إلى البلاد. إلا أنه وفي نفس الوقت، لن يعمل الدفاع عن السلطات الواسعة للملك في كل هذه المجالات إلا على ترسيخ تهميش دور الأحزاب في صنع القرار وبلورة الخيارات السياسية وفي التدبير الفعلي للشأن العام، وبالتالي إلى التأجيل المتواصل لمشروع الدمقرطة.

إن مستقبل الانتقال من الخيار التوافقي إلى ترسيخ الدمقرطة، رهين بالإجابات العملية والمقنعة عن هذا السؤال. ويتطلب هذا الجواب الاستفادة من تحاليل لحالات تاريخية مشابهة لوضعية المغرب حاليا، ومن دراسة تجارب الاختيار التوافقي بمثابة نموذج للانتقال السياسي الذي تعرفه عدد من البلدان في العقدين الأخيرين، كما تتطلب الاجتهاد في ابتكار خيارات استراتيجية تلائم خصوصيات التجربة المغربية، وتساهم بشكل فعال في الدفع نحول الدمقرطة.

01 نوفمبر 2007

ورطة التناوب التوافقي

ملاحظات على نتائج الانتخابات التشريعية لسنة 2007

كمال عبد اللطيف

تشمل هذه الملاحظات جوانب من المشهد السياسي المغربي، بعضها يتعلق بواقع التعددية الحزبية وتشتت قوى اليسار، وبعضها الآخر يشير إلى واقع المؤسسة الملكية والفعل الملكي. كما نتوقف فيها على وضع حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية على وجه الخصوص. وتندرج الروح العامة لهذه الملاحظات ضمن سياق ما نطلق عليه **تحولات المغرب السياسي في مطلع الألفية الثالثة**.

نتجنب في هذه الملاحظات الأسئلة الكلاسيكية في موضوع **الديمقراطية في البلدان المتخلفة**، وهي الأسئلة التي تبحث في صعوبات توطين المشروع السياسي الديمقراطي في المجتمعات الأمية والفقيرة، المجتمعات التي لم تعش مرحلة النهضة والتنوير، ولم تعرف تجربة الإصلاح الديني ومقدماته التي مهدت لميلاد الحداثة والتحديث السياسي.

ومقابل ذلك نستعين في تركيبنا لبعض أوجه هذه الملاحظات بأدبيات **تجارب الانتقال الديمقراطي** في البلدان التي سارت قبلنا في درب **تبيئة نظام الحكم الديمقراطي** في بلدانها. كما نستعين بجملة من المقدمات التي تجعلنا نحترس من إصدار الأحكام العامة والمغلقة في موضوع **معضلات التحول السياسي المغربي في حركيته وغليانه**. ونحن نفترض أن محصلة العمل السياسي في **تجربة التناوب التوافقي** في الصيغ التي اتخذ في سنة 1998 وسنة 2002 لا

يمكن إلا أن تترك بصماتها في مختلف الفاعلين والمنفعلين في مشهدنا السياسي. فقد منحت معطيات محصلة التجربة المذكورة المشهد السياسي المغربي ملامح وعلامات تَشي باقتراب حصول انقطاعات في نمط الفعل السياسي الصادر عن مختلف الفاعلين، وهم يؤسسون لنمط جديد من السلطة في بلادنا، نمط تنعكس آثاره بالضرورة على المشهد الحزبي والعمل الحزبي، دون أن يعني هذا الأمر نفي إمكانية حصول تراجع قد يخل بإمكانية تحقيق التحول المذكور. ففي التاريخ والسياسة، وفي أزمنة التحول من قبيل ما تعرفه بلادنا اليوم يظل فعل التحول في جريانه مفتوحاً على ممكنات متناقضة، **والفاعلون وحدهم ضمن شروط التحول العامة هم الذين يستطيعون بإرادتهم بناء نقط ارتكاز نظرية وتاريخية قادرة على إنجاز الإصلاحات المطلوبة**، لعلهم يتداركون مختلف أوجه الخلل والقصور الحاصلة في مختلف أحوال المجتمع داخل بلادنا، وهي أحوال أغلبها متوارث من الحقبة السابقة التي عمرت ما يقرب من أربعة عقود.

ولن نهتم في هذه الملاحظات بالخطوات التقنية الصانعة للمشهد الانتخابي وخرائطه السياسية، وذلك لاقتناعنا بأن **التقطيع الانتخابي** يُركّب في دواليب وزارة الداخلية بتوافق وتراض معلنين بين مختلف الفاعلين في المجال السياسي، والتفكير في الموضوع المذكور يرتبط في نظرنا بمطلب **تشكيل لجنة مستقلة للإشراف على الانتخابات**، وهو مطلب مسكوت عنه في الأغلب الأعم، رغم وروده أحياناً في بعض مواقف تيارات اليسار الجديد سواء المشاركة في الانتخابات أو التي قاطعتها..

لا نقف في هذه الملاحظات على النتائج المرتبطة بما جرى في الانتخابات، بل نتجه لمعاينة بعض خلفياتها وشروطها وشعاراتها، **فلا يمكن كما أشرنا الفصل بين روح الملاحظات التي ركّبنا ومعطيات الانتخابات في علاقاتها بأسئلة التحول التي أكملت في هذه السنة عقداً كاملاً من الزمن**، حيث دُشِّنت هذه اللحظة كما نعرف بدستور 96 وانتخابات 97، ثم إعلان التناوب التوافقي سنة 98، وقد رسمت هذه العلامات حدود التجربة، وأطرت انتخابات 2002، ثم انتخابات 2007 التي نحن الآن بصددها، ذلك أن الفعل السياسي الانتخابي لسنة 2007 موصول بسياق تاريخي سياسي يصنع ملامحه وقسماته العامة، وهذه المسألة ستتضح بجلاء أكبر في سياق عرض الملاحظات التي رتّبنا رغم طابعها المختزل.

1- أريد أن أعلن في ملاحظتي الأولى أن **لحظة التناوب التوافقي في سنة 1998** صنعت في المغرب فعْلَ تحول جديد، فعل تحول أتاح للمعارضة اليسارية في المغرب دخول تجربة جديدة في العَمل السياسّي، صحيح أن أبعاد هذا التحول لم تكن معروفة، **إلا أنه منح التاريخ المغربي لحظة متميزة مقارنةً مع ما جرى خلال أربعين سنة من المخاض السياسي بماله وما عليه**. وقد تبينت بعد انتخابات 2007 أن الآمال العريضة التي دشنتها حكومة الأستاذ عبد الرحمان اليوسفي سنة 1998 صنعت **ورطة اليسار المغربي المشتت، الحالم، المتناقض، المغتبط بالأوراش التي فتح والمنجزات التي حقق**، دون عناية واضحة بمقتضيات ما يتطلبه واقع الأغلبية الحكومية ذات التركيبة السياسية الهشة، ومقتضيات الالتفات إلى قضايا الوضع الحزبي الذاتي في علاقته بتفاعلات ما يجري داخل أجنحة اليسار المتخاصمة، وكذا في علاقاته بالأداء الحكومي. . لقد فاقت غبطة إن لم نقل نشوة العمل الحكومي سواء في جوانبه الإيجابية أو في مستوياته المُحاصَرَة ما كان مطلوباً في مجال البحث في **كيفية تحصين التجربة والتفكير في سبل تطويرها**، وذلك بفك الارتباط مع بعض القوى التي تصنف كقوي سياسية "وسطية"، ذلك أن منظور هذه القوى للعمل السياسي وللأداء السياسي الحكومي في تصورنا يختلف عن منظور أحزاب الكتلة الديمقراطية، وكان يمكن قبول اللعبة في البداية بالصيغة التي انطلقت بها لتكون مجرد خطوة في درب يستدعي تجاوز شوائب بدايات الانطلاق، وهذا الأمر ممكن تاريخيا وسياسياً.

لا أدري كيف حصل الانتشاء بفترة معلوم أنها مؤقتة، ولا أدري كيف حصل الانتشاء بفعل توافق حَضَرَ فيه المصحف ولم تحضر المواثيق والعقود القادرة على تحصين الأفعال التاريخية منٍ عيار الفعل السياسي الذي حصل سنة 1998؟

قلت أنا لا أدري، ولهذا أقرأ نتائج الانتخابات بمفهوم **الورطة**، وأحاول في الآن نفسه مقاربة **إشكالات التفكير في كيفيات حَلّها أو تجاوزها**، فما هي مظاهر وتجليات الورطة؟

يتمثل أول مظهر **في إغفال هشاشة مقدمات التناوب**، والجملة الرومانسية التي كانت فاتحةَ عهد حكومة الأستاذ عبد الرحمان اليوسفي سنة 98، الجملة التي **وضعت مُعادلة إنعاش مغرب السكتة القلبية بالآمال بالعهد الجديد والصفحة الجديدة في تاريخنا المعاصر**، لا تكفي للانطلاق في بناء الإصلاح المطلوب، ذلك أنني أفترض أن الفاعل السياسي يعي **دور الزمن ودور الموت في صناعة حقب التاريخ**، وحدث موت الحسن الثاني وتتويج الملك

محمد السادس **ليس حدثا استثنائياً في التاريخ**، وفي موروث **الآداب السلطانية** على سبيل المثال من المواقف في **موضوع الموت والعجز في دائرة العمل السياسي ما يعلمنا كثيراً من الدروس**، لنتمكن من بناء ما يؤسس لعهد جديد بالفعل، **شريطة التحلي بفضيلة الجرأة القادرة على تخليصنا من تقاليد نظام في الحكم والمساهمة في بناء بديل له يمنح المؤسسات والقوانين دورها المطلوب في دولة الحق والقانون**.

لم تكن شيخوخة ومرض الملك الراحل، ثم مسألة انتقال المُلك إلى ولي عهده محمد السادس سوى أعراض لشيخوخة أعم تتعلق أيضا **بشيخوخة العمل الحزبي**. وكانت أعراض شيخوخته بادية، ولم يتم تداركها انطلاقا من قيم التحديث السياسي، رغم الدماء الجديدة التي التحقت بأغلبية الأحزاب، واللغة الجديدة التي بدأ الاتحاد الاشتراكي على سبيل المثال يتشبع بها ولا يجد أي حرج في العمل انطلاقاً منها. **ذلك أن أعطاب المؤسسة الحزبية كبيرة جداً، وقد تفاقمت وأفترض أن الاتحاد الاشتراكي بالذات يجد صعوبة كبيرة في مواجهتها، وقد يختار في ضوء الانتخابات التي حصلت أهون الشرور، فيواصل العمل في الحكومة الجديدة مع الأغلبية القديمة، الأمر الذي سيوسع درجة التفكك لنصبح أمام وضع جديد، وضع سيتكفل التاريخ وحده بفرز قسماته فيما يستقبل من الأيام والسنين**.

ARCHIVE

لقد اعتدنا خلال أزمنة خلت أن نتحدث بكثير من الثقة عن **قدرة حزب الاتحاد الاشتراكي على لملمة أنفاسه**، وكان ذلك ضمن شروط لم تعد هي الشروط التي تؤطر اليوم وجودنا السياسي سواء في الداخل أم في الخارج. ومعنى هذا أن الأمر أصبح معقداً، فنحن أمام متغيرات جديدة تستدعي آليات جديدة في المواجهة وإعادة بناء الذات. أما الاكتفاء بالآليات القديمة التي تستكين إلى آلية توظيف موروث الثقة والنضال والوطنية والمبادئ العامة، فقد لا يثمر في زمن تغيرت فيه كثير من ملامح شرعيات العمل السياسي التقليدية لحساب مرجعية في التوافق ومراعاة مختلف المصالح، مرجعيات تنحو منحى براجماتياً ولا تتحرج من الأفق الليبرالي الذي تسبح في إطاره.

2- من المظاهر البارزة في ورطة التناوب التوافقي عدم القدرة على تدارك الخلل المتمثل في التناقضات الحاصلة داخل مؤسسات الدولة، **حيث تتقاطع مشاريع ومبادرات وأوراش الأجهزة التنفيذية بمبادرات الملك وخطواته وبرامجه المتلاحقة في مجالات الإصلاح**. ولا يتعلق الأمر بسوء في التدبير أو قصور في التنسيق أو تغييب لمؤسسة الوزير الأول، قدر ما يتعلق **بتداخل السلط**. نحن نتجه هنا لوضع اليد على سؤال **حدود السلطة**

الملكية، ومعناه أننا لا نقبل تأجيل **مسألة الإصلاح الدستوري** في القضايا الملحة والمرتبطة **ببرامج التنمية والإصلاح**، وهي البرامج التي تُعَيِّن مدى نجاعة أوعدم نجاعة العمل السياسي. وقد بلغت هذه المسألة حدودها القصوى في التردد الذي عرفه تصريح محصلة تجربة الإصلاح في مذكرة أحزاب الأغلبية، حيث وردت فيها بعض برامج الإصلاح التي رعتها المؤسسة الملكية بصورة لا تحدد قيمتها الفعلية ولا نتائجها القريبة والبعيدة في إطار العمل الجاري خلال الخمس سنوات الماضية. ونحن نفسر التردد المذكور في المسافة الموجودة بين أفعال الإصلاح المنجزة من مختلف الأطراف السياسية الفاعلة في مشهدنا، وما يفترض أن يكون عليه الأمر عندما توضع صيغ العمل والإنجاز ضمن برنامج يعي فيها الفاعلون حدودهم في العمل، المرسومة دستورياً وبصورة واضحة. أما أن تظل مؤسسة الوزير الأول مجرد مؤسسة مكملة لأفعال في الإصلاح ترعاها مباشرة المؤسسة الملكية، وأن ينشئ الملك بجانبه مجالس استشارية تمارس بعضاً من اختصاصات الأجهزة التنفيذية، فإن هذا الأمر يولد اختلاطاً في الأداء السياسي، وتترتب عنه نتائج **تدعونا بصورة مستعجلة إلى مزيد من الإلحاح على وضع حدود معينة للفعل والمبادرة السياسية داخل حقلنا السياسي، الأمر الذي يعني ضرورة إنجاز إصلاح دستوري يستجيب لمبدأ رسم حدود السلط بما يكفي من الوضوح والدقة.**

وقد كان ينبغي في نظرنا المشاركة في حكومات التناوب التوافقي وعدم التخلي في الآن نفسه عن **مطلب الإصلاح الدستوري بالصورة التي تحدد سقف التدخل الملكي وتوسع اختصاصات الوزير الأول، وتقوي من دور المؤسسة التشريعية.**

لم يغب مطلب **الإصلاح الدستوري** وحدده في المؤتمر الأخير لحزب الاتحاد الاشتراكي، بل إن **الجدل السياسي** اختفى من أروقة الحزب وصحافته، فلم نقرأ في مرحلة ما قبل الانتخابات مختلف توقعات ومواقف وآراء الفاعلين السياسيين. ولم تؤطر المؤسسة الثقافية التي أنشأ الحزب، وأعلن انفتاحها على الفاعلين في المشهد الثقافي والأكاديمي المغربي، لم تؤطر هذه المؤسسة الفتية، ولم تنتج ما يغذي **أفق الجدل السياسي المستوعب لأسئلة المرحلة التي عشنا في العشر سنوات الماضية**، والندوات القليلة التي عقدت في إطار هذه المؤسسة لم تعرف الطريق إلى عموم القراء خارج التغطية السريعة لقراء جريدة الحزب المحدودة الانتشار بحكم أوضاعها الخاصة المرتبطة بوضع الإعلام الحزبي في الاتحاد الاشتراكي قبل وصوله إلى السلطة وبعدها. كما أن الندوات القليلة التي عقدت لم تكن

متبوعة بالجدالات الضرورية لتطوير الوعي السياسي بأسئلة المرحلة في مختلف أبعادها .

3- صاحب تجربة السنوات العشر الماضية في تجربة حكومتي التناوب التوافقي شعار اتخذ مع الزمن طابعاً صنمياً ، يتعلق الأمر بشعار **الحداثة والتحديث** ، فقد أصبحت هذه الكلمات في خطب العديد من الفاعلين في مشهدنا السياسي مفتاحا للنطق بمفاهيم خالية من المعنى ، مفاهيم مُفْرَغَة من دلالتها الفكرية والتاريخية التي تشير إلى أفعال ومواقف وسلوكات محددة ، وبدلاً العمل على تبيئة هذه المفاهيم في تلافيف المجتمع في الحزب والمدرسة والمعمل والمقاولة ، وبدل إلغاء طقوس الولاء المخزنية العتيقة **وتحويل مبدأ الاحترام إلى مبدأ سام** ، تمت مواصلة العمل بأفعال التقبيل والانحناء رغم أن الملك في الصور التي شاهدنا ومازلنا نشاهد إلى يومنا هذا يَنْفُرُ من الفعل الذي يحصل بين يديه وأمامه . **فكيف نصنع مجتمع الحداثة والإصلاح الديمقراطي ونحن نعاين مظاهر الخضوع المزيفة؟ ففي روح الحداثة وقيم التحديث كما تعلمنا دروس التاريخ توضع الكرامة الإنسانية في المقام الأول والأعلى** ، وكم تصبح قيم الاحترام مدهشةً وقويةً **عندما تكون معززة بمبدأ الكرامة** .

وإذا كانت الحداثة عبارة عن رؤية إنسانية للتاريخ ، مسنودة **بالعقل وقيم التسامح والمساواة ، فإن التحديث السياسي** يتحدد بدوره كتدبير تاريخي **عقلاني مستند إلى مبادئ النسبية والمصلحة والقانون والمؤسسات** .

نريد من خلال الملاحظة السابقة الإشارة إلى أن **الإصلاح كل لا يتجزأ ، صحيح أنه أمر يحصل بالتدرج ويحصل بإرادة الفاعل ، وانطلاقا من تقديره لسياقات ما يجري وسياقات درجة التحول الحاصلة في المجتمع ، إلا أن أفعال التسويف والتأجيل والإرجاء تصنع لها في التاريخ نتائج ينبغي تبين قوتها في تصليب أو تليين التقاليد ، للتمكن في حال المساهمة بالأفعال والمواقف في تليينها ثم زحزحتها وفتح أبواب التحديث** . ولأننا في المغرب عشنا ونعيش خلال العشر سنوات الماضية داخل ساحة كبيرة من الأمل المفتوح على ممكنات كبيرة في التحول والتنمية ، فإنني أعتقد أن هذا أَوَانُ مَنْحِ العزَّة والكرامة مكانتهما المستحقة داخل مجتمعنا .

4- كان خطر التأسلم السياسي وارداً في المشهد السياسي المغربي ، وكانت علاماته وأعراضه قد اتخذت في بعض الأحيان مظاهر مفضوحة وعنيفة ، برز ذلك في نقد بعض الأنشطة الثقافية والمهرجانات الفنية التي نظمتها بعض الجمعيات ، كما كشف عن نفسه في

التعبير الشرس عن الموقف من لباس صحفية داخل قبة البرلمان . إضافة إلى معطيات أخرى أبرزتها أبحاث اجتماعية ميدانية من قبيل تغلغل نوع من الجمعيات الخيرية في الوسط الحضري ، و كذا التحولات البارزة في بعض مظاهر اللباس في علاقاتها بالثقافة المغربية العامة داخل مجتمعنا ، **الأمر الذي يستدعي قليلاً من الجرأة في مواجهة المظاهر المذكورة ، ومحاولة التفكير فيها في علاقاتها بنمط الحياة العصرية في عالم متغير .** . خاصة وأننا نعرف أن المد السياسي المستند إلى رؤية لا تاريخية للإسلام ، **مدعوم اليوم بحركة احتجاج عالمية ، حركة تستعمل لغة الهوية والأصالة وصراع الحضارات ، وهي حركة قائمة هنا وهناك ، ومدعومة في الوقت نفسه بأفعال إرهابية .** وقد قرأنا في نهاية رسالة التهنئة التي بعثها رئيس حركة التوحيد والإصلاح إلى المسؤول الأول في حزب العدالة والتنمية ما يؤكد إشعاره بأن اختيارات الحزب "ونجاحاته الباهرة" التي يفتحها نجاحه الانتخابي في المشهد السياسي المغربي مدعومة بالمد الإسلامي الدولي . الأمر يدعو إلى مزيد من اليقظة ، **ويدعو التوجهات الحداثية إلى مزيد من العناية بترسيخ قيم النسبية والقانون ولغة التاريخ في العلاقات العامة وفي مختلف قضايا المجتمع ، فقد لا تكون معارك الحداثة في بلادنا قصيرة ،** وذلك رغم بؤس كثير من تجليات الفكر الإسلامي الموظف في المعارك والمواقف التي أشرنا إليها (الكتيبات والنشرات المتداولة داخل الحركات الإسلامية) ، حيث تنعدم الحدود الدنيا للإبداع والاجتهاد ، لتحل محلها لغة مثقلة بالإرث التقليدي المحافظ والمراهن على شعارات قد يكون لها بريق مرحلي بحكم حدة الصراع في المشهد السياسي العالمي ، وبحكم تعثر برامجنا في التنمية والإصلاح ، **حيث تبرز بقوة أهمية تطوير آليات الحوار مع التيارات النصية لإبراز محدودية تصورها للإنسان وللتاريخ ، من أجل فكر أكثر انفتاحاً على مكاسب العصر ومنطقه وآليات عمله .**

لم تتضمن معارك الانتخابات ما يرتب مواقف واضحة في موضوع **جبهة العمل الفكري والثقافي داخل برامج الأحزاب ،** باستثناء الشعار الكبير والعام الذي رفعه الاتحاد الاشتراكي ، حيث دعا الناخبين إلى اختيار مغربهم : **مغرب الحداثة والاجتهاد والمستقبل بدل مغرب التقليد والنصية والظلامية ،** ورسالة الشاعر عبد اللطيف اللعبي ومن وَقَّعها معه ، كان ينبغي أن تُؤسَّس اعتماداً على ميثاق فكري عام تحرص الكتلة الديمقراطية على إنجازه في باب ترسيخ قيم الحداثة ونقد المرجعيات الرافضة للفكر التاريخي ، الأمر الذي لم يحصل رغم أننا في أمس الحاجة إليه لنساهم جميعا في عمليات التعبئة الفكرية والسياسية .

وفي هذا السياق نحن نفترض أن الميثاق الذي ركب في مؤتمر **اتحاد كتاب المغرب الخامس عشر 1998** والذي واكب انطلاق تجربة التناوب التوافقي بهدف دعم تجربة التحول السياسي في صورها الإيجابية، لم تتبعه خطوات تترجم روحه في أفعال نظرية مبدعة تمنح الفكر المغربي والفنون المغربية إطاراً عاماً لتعزيز التحديث المطلوب في مجتمعنا. .

5- لم يستطع الاتحاد الاشتراكي أن يظل حزباً وأن يفكر في كيفيات تطوير الأداة الحزبية طيلة مشاركته في الأغلبية الحكومية 1998-2007، صحيح أنه أعد خلال المرحلة المذكورة لمؤتمريه الأخيرين بكثير من الجهد، وصحيح أيضاً أنه وجد بعض الحلول السريعة لبعض قضاياه التنظيمية، لكن قيادته في تصورنا لم تنجح في العمل بإيقاعين منسجمين، في كل من المجال الحكومي والمجال الحزبي المفتوح على قطاعات وقواعد عريضة داخل المجتمع المغربي. قد يعود السبب فيما حصل إلى جدة التجربة، وقد يعود لأسباب أخرى عديدة ومتنوعة، إلا أن المهم في الأمر **أن أوجه العمل تصلبت في مجال واحد**، وغالبا ما كانت مرجعية وآليات العمل الحكومي تطغى على نظام العمل السياسي الحزبي. لقد تم إعلان الأبواب المفتوحة داخل الحزب لأن مفاهيم العمل السياسي بدأت تتغير، ولأن الأجيال الجديدة مطالبة برسم ملامح أدواتها في العمل السياسي خارج الأطر الحزبية التقليدية التي أنتجت، سواء في نهاية الخمسينيات أو في منتصف السبعينيات. فالزمن تغير والحزب في صورته اللينينية لم يعد يناسب زمناً **يتطلع لنظام حزبي داخل أفق العمل السياسي الهادف إلى تعميم الحداثة وبناء ما يعزز إمكانية الانتقال الديمقراطي**، وفي هذا الإطار تم إعلان الأبواب المفتوحة ولكن كان ينبغي قبل الأبواب المفتوحة **بناء التيارات داخل الحزب**، حتى يظل خيار الوفاء للديمقراطية في قلب المشروع الإصلاحي الذي يتجه الحزب لبنائه. . وربما كان ينبغي قبل الأبواب المفتوحة الاستماع إلى مطالب الجهات والقطاعات، حتى لا يظل المكتب السياسي الفاعل الأول في مختلف تدابير الحزب. . لقد أنتجت الأبواب المفتوحة قبول من يعلن أنه يملك القدرة على النجاح في دائرته، فترشح في حزب القوات الشعبية من لا يعرفون لا تاريخ الحزب ولا أهدافه، ولكنهم يتطلعون إلى مقعد يمنحهم حصانة وهمية في زمن متغير، وداخل أحزاب تزداد مسافة ابتعادها عن أسئلة المجتمع اتساعاً، **ومعنى هذا أننا أمام معضلة مُؤَسَّسِية فعلية، فهل يملك الحزب شجاعة إقرارها ورسم كيفيات محددة لمواجهتها؟**

ARCHIVE

6- منحنا التناوب التوافقي الأمل في الإصلاح، وتمنحنا نتائج انتخابات 2007 الأمل في عودة الحزب إلى المعارضة، إلى بناء **قطب اليسار وتصفية الحساب مع أغلبية مُلَفَّقة، أغلبية تظل تخبرنا دائما بأن الخريطة السياسية في المغرب حُدِّدَت منذ نهاية القرن الماضي بهدف خلط أوراق العمل السياسي**. واليسار الذي يمثل الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية في قلبه الرافعة الكبرى لمشهدنا السياسي، مدعو اليوم وليس غداً لبناء قطبه المركزي الفاعل في تلافيف مجتمعنا السياسي، بالصورة التي **تمنح مشروع التحول في اتجاه الانتقال نحو الديمقراطية صلابة وقوة تفوق ما يمكن أن يترتب عن مشاركته اليوم في الحكومة القادمة**، نقول هذا في صيغة أمل رغم وجود مؤشرات محددة قد تحفز الحزب على مواصلة حضوره في الأجهزة التنفيذية وسط الأغلبية السابقة. إلا أنه في حال حصول هذا الاختيار يكون عليه مواجهة المصير الآخر الذي يمكن أن تؤول إليه أوضاعه وهي أوضاع لن تخرج في كل الأحوال عن أوضاع عرفتها أحزاب أخرى قبله في التاريخ.

أفق السياسة والسياسي بالمغرب

إدريس بنسعيد

أود أن أشير في البداية، إلى أن هذه الملاحظات التي أتقدم بها الآن، لا تدخل في إطار تحليل علمي "بارد" يستند على معطيات كاملة ونهائية بصدد العملية الانتخابية برمتها، خاصة ما يتعلق منها بخصائص الكتلة الناخبة، على ضوء متغيرات متعددة في مقدمتها السن والجنس والمستوى التعليمي والنشاط المهني وغيرها من المعطيات، التي تسمح بتدقيق الطبيعة السوسيولوجية للخريطة الانتخابية ودلالاتها السياسية الكاملة.

يتعلق الأمر بالأحرى في هذه الجلسة بسياق "ساخن" بالمعنى الذي يضفيه كلود ليفي ستروس على هذه الكلمة، يسعى إلى المساهمة في فهم ما جرى يوم السابع من شهر شتنبر 2007 على ضوء أهم نتيجة في هذا الاستحقاق وهي الضعف الكبير للمشاركة في عملية التصويت التي اقتربت، إذا ما أضفنا إليها النسبة المرتفعة من الأوراق الملغاة لتصل إلى نسبة لا تبتعد كثيرا عن 80 % من مجموع المسجلين في اللوائح الانتخابية. إن الصدمة السياسية التي حدثت في صفوف الطبقة السياسية وداخل المجتمع المغربي بشكل عام هي ما يؤطر هذا النقاشة ويرسم آفاقه ويحدد أولوياته. في هذا السياق، أريد أن أتوقف بكيفية خاصة حول بعض القضايا التي أعتقد أن تحليلها ومحاولة فهمها يمكن أن يُساعدا أولا في فهم ما جرى يوم السابع من شتنبر على مستوى السلوك الانتخابي ورد الفعل أمام استحقاق سياسي

محدد، ومن خلاله استشراف آفاق السياسة وتحديد الملامح المقبلة للسلوك السياسي لمختلف المكونات الفاعلة، سلبا أم إيجابا، في هذا المشهد.

كانت مسألة العزوف الملحوظ للشباب عن المشاركة السياسية بصفة عامة والانتخابية تحديدا من أهم القضايا التي حظيت باهتمام كبير قبل الاستحقاق الانتخابي، وشكلت سؤالا مركزيا لكل أطياف الخريطة السياسية بالمغرب. لقد بينت نتائج الانتخابات أن مسألة العزوف السياسي أو على وجه أدق العزوف الانتخابي قد بلغ نسبة تتجاوز بكثير النسبة التي يشكلها الشباب من بين مجموع الساكنة المغربية، غير أن المسألة لا زالت مطروحة كواحدة من أهم محددات أفق السياسة في المغرب وإن بصيغة أخرى تتعلق بالعلاقة بين الأجيال والسياسة داخل مؤسسات الدولة والأحزاب السياسية. إن المسألة لم تعد تتعلق هنا بمشاركة الشباب أو عدم مشاركتهم في الانتخابات، ولكن بموقع الأجيال في الحقل السياسي المغربي. فمباشرة بعد الإعلان عن نتائج الانتخابات، راج داخل الطبقة السياسية نقاش كبير عكست بعضه الصحافة غير الحزبية حول "الإمكانيات الابستيمولوجية" المتوفرة عند الملك للحكم مع جيل الزعماء الحزبيين لا يفسح له أي مجال في مشروعه الخاص ولا في فرق عمله، ولايدمجه ضمن أولوياته؛ وهو ما يشبه نوعا من الدعوة الصامتة من طرف المؤسسة الملكية إلى ما يشبه "المغادرة الطوعية" لجيل السياسيين المخضرمين، المهيمنين على مقاليد جل الأحزاب السياسية لإفساح المجال لأجيال أخرى.

هذه العلاقة بين التناوب السياسي وتناوب الأجيال سوف تكون في رأيي من أهم محددات أفق المشهد السياسي في المستقبل المنظور، سواء فيما يتعلق بتشكيل الحكومة أو توزيع المناصب الوازنة في الدولة؛ وبالتالي فإن مسألة العلاقة بين السياسة و العمل السياسي والحزبي والأجيال سوف تستمر في العمل بوصفها إحدى القضايا غير المقعدة التي تشتغل بالأساس على مستوى الرمز، كفارق مميز بين مشروع ملكي يتميز ب "الشباب" ويؤسس جزءا من مشروعيته عليه، وبين مشاريع حزبية يعيق بروزها وتفعيلها صعوبة ولادة جيل جديد من الزعماء الشباب، خارج مشروعية ووصاية أجيال من السياسيين لا زالت تعتمد في تكريس مشروعيتها على قضايا وتوافقات يحضر فيها الشباب على مستوى الشعار، ويغيب على مستوى نظام الزعامات وتجديد النخب السياسية. على هذا المستوى.

بينت نتائج هذه الانتخابات بكيفية ملموسة ضعف الثقافة السياسية، حتى في صفوف النخب السياسية، نفسها وهو ما يفصح عنه تذبذب وضبابية المفاهيم

والاستراتيجيات وهزالة النقاش السياسي بصفة عامة. هذا الأمر يعكس في جزء كبير منه واقع العمل السياسي بالمغرب، وطبيعة تركيب النخب السياسية؛ غير أنه يثير من جديد موقع ومسؤولية المثقف المغربي في هذا الظرف والسياق. في هذا السياق، أعتبر أن هذه المبادرة المحمودة لاتحاد كتاب المغرب لفتح نقاش واسع لفهم ما جرى هي مبادرة متأخرة زمنيا عن الحدث. لقد كنت أفضل أن يكون حضور المثقف أكبر، قبل وبعد الظرف الانتخابي، باعتبار أن المساهمة من طرف المثقف في النقاش حول السياسة والانتخابات وحول السلطة كان ربما هو الغائب الأكبر في هذا المجال، وتلك مسؤولية يتقاسمها المثقف الفردي والمثقف المؤسساتي (الأحزاب...). ضعف النقاش حول السياسة وتقلص مساهمة النخب الثقافية، واقتصاره في غالب الأحيان على المساهمة الصحفية التي ساهمت إيجابيا في ردم هذا الفراغ؛ هذا الموقع (والموقف) الملتبس للمثقف يعيد إلى الواجهة مسألة العلاقة بين المثقف والسلطة وطبيعة "الحاجة" إلى الثقافة والفكر في تقعيد وتأصيل النقاش السياسي، وهي حاجة لا يبدو أنها ترتب ضمن أولويات الساسة في المغرب، سواء من طرف الدولة أم الأحزاب السياسية.

ما دمنا لا نستطيع الآن من فهم الحياة السياسية والسلوك الانتخابي بالاستناد إلى ما هو واع ومبنين، وما يشتغل على مستوى الخطاب السياسي المعلن، فإن التحليل المباشر لنتائج الانتخابات لا يمكن أن يتجاهل هذا المعطى وأن يخرج عن هذا "المنهج"، وبالتالي فإن أهم نتيجة سياسية قابلة للدرس والتحليل تبقى هي نسبة المصوتين. كيف يمكن تفسير ذلك؟

على مستوى الأحزاب السياسية الني كانت هي المتضرر الأكبر سياسيا واجتماعيا من تدني نسبة التصويت، فإن البحث عن الأسباب الحقيقية لم يصل بعد إلى مستوى المعلن عنه والمعقلن، الذي لا يمكن للمحاسبة الذاتية والمراجعة إلا أن تكون أحد أسلم ممراته لمحاولة إعادة تأسيس التصالح بين مجتمع ونخبه السياسية. في مقابل ذلك، ينتشر بيننا نحن المغاربة تفسير "سري" غير معلن وغير منطوق به، يبدو أنه يحاول تمرير الخطاب التالي: إن مـالا يقل عن 20 في المائة من الناخبين هم وحدهم الذين صوتوا على "السياسيين" بينما يمكن اعتبار 80 في المائة من الكتلة الناخبة غير المصوتة بمثابة "أغلبية صامتة" صوتت بطريقتها الخاصة على مؤسسة صامتة وعن مشروع صامت هو المشروع الملكي/المؤسسة الملكية. هذا الخطاب غير المعلن والذي يحظى برضى ومساندة جزء كبير من النخب

السياسية "الشابة" قد يفصح عن نفسه مستقبلا في محاولة للتنصيب "كناطق" باسم هذه الأغلبية الصامتة، فيما قد يعيد تكرار سيناريوهات سياسية سابقة، مع اختلاف الزمن والسياق والقواميس السياسية.

تأسيسا على ذلك، أعتقد أن نتائج هذه الانتخابات تشكل في نفس الوقت هزيمة، وتكريسا لمشروع سياسي أعتقد أن ملامحه بدأت تتضح وتتكرس الآن. تتمحور نتائج هذه الانتخابات في نظري حول ثلاث خلاصات أساسية:

- تتعلق الخلاصة الأولى بإعادة تحديد وترتيب مجال السياسة بالمغرب، فإذا طرحنا على أنفسنا السؤال التالي: ما هي السياسة بالمغرب؟ وما هو مجالها؟ نجد أن هذا المجال قد ضاق إلى حد كبير، بل وأصبح تحديد معالمه أو النقاش فيه متعذرا لأن هذه الانتخابات قد عززت أولا، المكانة المركزية للملك والمؤسسة الملكية؛ بمعنى أن ما كان ممارسة سلطوية واقعية قد تحول سياسيا، بحكم 80 في المائة من الممتنعين عن التصويت إلى مشروعية سياسية جديدة يصبح فيها ضعف الحزب السياسي وتقلص المشاركة السياسية من خلال الانتخابات بمثابة منبع قوة وتجديد للمشروعية. هذه المكانة المركزية للملك والمؤسسة الملكية أخذت هذا الشكل الغريب من المشروعية من خلال عملية الامتناع عن التصويت. كما أن هذه النتائج قد أضفت مشروعية سياسية مفتقدة أو غير معترف بها على أسلوب حكم تتحدد الآن ملامحه واختياراته الرئيسية. إن الملفات والقضايا الكبرى التي تهم المجتمع بكامله وترهن مصيره تقع كلها خارج السياسة والنقاش أو التداول السياسي، فتدبير من قبيل قضية الصحراء والسياسة الخارجية المغربية وقضايا الإدارة الترابية وتعيين الولاة والعمال ومن أقلهم درجة في ذلك، وتدبير الحقل الديني، هي أولويات عملت نتائج هذه الانتخابات وخاصة الضعف الكبير للمشاركة السياسية على "شرعية" تكريسها هذه كمجال خاص بالمؤسسة الملكية، ناهيك عن الاختيارات الكبرى فيما يتعلق باللغة والتواصل والاختيارات الاقتصادية الكبرى وسياسة التعمير وتهيئة التراب الوطني والسكنى والتجهيزات الكبرى المبنينة، فكل القرارات في هذا المجال تقع خارج نطاق السياسة أو النقاش السياسي.

ARCHIVE

هذا الضيق الكبير في مجال السياسة ستنتج عنه في تقديري مجموعة من النتائج أعتقد أنها كانت نتائج منطقية وبديهية لما جرى. فكيف سيتمّ تدبير ما تبقى من الحياة السياسية، خارج الصلاحيات المتسعة للمؤسسة الملكية وتكريسها الانتخابي؟ فخارج

المؤسسة الملكية ما تبقى من الحياة السياسية كيف يتم تداولها وتقسيمها؟ نلاحظ هنا أن هناك حلقات قوية وحلقات ضعيفة، حلقات واضحة وأخرى في طور البروز . المسألة الأولى هي التساؤل في إطار هذه السياسة الضيقة الحدود حول دور الحكومة خاصة إذا كان الوزير الأول في هذه الحكومة لا يتمتع إلا بصلاحية محدودة جدا تقل بكثير عن صلاحيات الوالي أو العامل، سنجد أن تصور دور الحكومة يتجه لتقليصه في مهام الإدارة بمعناها التدبيري اليومي، على مستوى تدبير الملفات وتصريفها دون اتخاذ قرارات، بمعنى أن القرار في المدخلات أو المخرجات يبقى خارج يد الحكومة .

تتعلق المسألة الثانية في هذا المشروع الذي بدأت ملامحه تتضح بدور وموقع المجتمع المدني، فكما نعرف جميعا فإن بروز وتطورا المجتمع المدني هو من مؤشرات الحداثة السياسية والتطور السياسي في كافة المجتمعات، ولكننا نلاحظ أن المجتمع المدني بالمغرب قد أسندت إليه أدوار جديدة واتسعت اختصاصاته بشكل كبير خارج مقصده الأصلي وتمثيليته النوعية، ليصبح هو المحاور الأساسي للمؤسسة الملكية، والحامل لاختياراتها والمدافع عنها .

من الأشياء المثيرة للدلالة هنا، الدور الذي لعبته جمعية دابا 2007، بمعنى أن تدبير الرأي العام السياسي، تم التعامل معه كملف تقني وتم اعتبار المشاركة السياسية كشأن مدني وليس كاختيار سياسي، كما لو أن الأمر يتعلق باستشارة تقنية لمؤسسة معينة هي التي تنظم وتبنين وهي التي تعطي الدروس وتحفز الشباب والنساء وتتأمل في النتائج قبل وبعد انتخابات 2007، وهذا ما جعل السيد عيوش يظهر في جل تصريحاته بصورة الرابح الدائم الخارج من نطاق المحاسبة، وليس مثل الأحزاب السياسية التي تحاسب على اختياراتها ونتائجها

المسألة الثالثة والتي ظهرت في هذه الخريطة السياسية والمتعلقة بضيق مجال السياسة، جعلت الأحزاب السياسية تقع في ورطة تنظيمية وسياسية وإيديولوجية حقيقية، وهو الأمر الذي ساهم في تقلص أدوارها ومجال اشتغالها حتي أصبحت حبيسة الاشتغال في ملفات صغرى محددة وعينية . وفي نفس الإطار فمفهوم الحداثة السياسية والديمقراطية لا يمكن تمثلها بدون حياة سياسية حقيقية وأحزاب سياسية قوية . لقد وجدت الأحزاب السياسية نفسها مجبرة في هذه الهندسة الجديدة للحياة السياسية على التراجع إلى مواقع أخرى متأخرة عن دينامية سير الواقع السياسي، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى المزيد من

انفصال الخطاب السياسي عن الواقع السياسي، حيث لا يتعلق الأمر بالرهان السياسي حول البرامج أو حول الاختيارات، ولكن بما يمكن تسميته بنقيض الحداثة السياسية، من خلال العودة القوية للقبيلة، الزاوية، العرق اللغة، الدين وحضورها القوي في الحياة السياسية، وهي مكونات يفترض أن تذوب لكي يظهر الحزب السياسي وتظهر السياسة، وتلك إحدى أهم مهام الحزب السياسي كأداة للتوحيد الوطني.

نعيش غداة الانتخابات إذن في وضعية تشوبها عدة مفارقات كالفراغ السياسي الخطير والموجود على مستوى الخطاب السياسي نفسه والذي تحول من المجال الواقعي إلى المجال الافتراضي، فعندما نقرأ الكتاب الذي أخرجته جمعية دابا 2007 نجد أن جميع البرامج الحزبية متشابهة، نفس المصطلحات ونفس الاختيارات، فالعصرنة همّت الخطاب السياسي في شكله فقط، ولكن على مستوى الخيوط الناضمة للمبادئ ولنقط الفروق والاختلافات والانتماءات السياسية والإيديولوجية التي كانت حكرا على التيار الماركسي أو التيار اليميني... كلها اختفت وغابت وراء تسميات فضفاضة كالحداثة والأصالة. أعتقد أن هناك ورشاً مفتوحاً أمام المثقفين وعموم المهتمين للتأمل في نتائج الانتخابات السياسية، وفي هذا الترتيب الجديد في الحياة السياسية المغربية.

مخاضات سياسية، توصيف ثقافي

عبد الرحمان العمراني

أود أن أشكر في البداية الأخوة في اتحاد كتاب المغرب، وفي مقدمتهم الأستاذ عبد الحميد عقار على دعوتي للمشاركة في هذا اللقاء الثقافي الهادئ حول موضوع بهذه الأهمية وبهذه السخونة، موضوع تداعيات نتائج الانتخابات التشريعية الأخيرة.

وأود أن أشير منذ البدء إلى أننا اليوم في حاجة ماسة إلى توصيف ثقافي لما نعيشه من مخاضات سياسية، توصيف نتجاوز به المألوف والمكروه والمستهلك في الخطابات السياسوية المكتفية بذاتها والمنغلقة على نسقيتها التبسيطية في أغلب الأحيان.

وأعتقد في هذا السياق، أن هذا التوصيف الثقافي لابد أن يتعرض لبعض الأسئلة المقلقة، من قبيل، هل نحن حقاً في مرحلة انتقال سياسي يقطع مع كل مسلكيات الماضي؟ ما طبيعة هذا الانتقال؟ ما هي ممكناته المستقبلية كما تتراءى في الأفق؟ ما هي حدوده؟ من هم الفاعلون الأساسيون في هذا الانتقال؟ وهل يخضع عملهم لمنطق موحد أو منسجم في خطوطه العريضة على الأقل؟ أسئلة تتجاوز حدود المعالجة السياسية اليومية، لأنها تستدعي عند المنطلق استحضار البعد الثقافي في الرصد والتحليل والاستشراف، وعند إطلاق الأحكام العامة.

وعلاقة بالموضوع المطروح . يبدو لي أن هناك نوعا من صدمة النتائج في صفوف الديمقراطيين والحداثيين ، وضمنهم بالطبع مختلف فصائل اليسار ، واقتناعي أن التأمل في ما جرى خلال هذه الانتخابات- بعد استيعاب الصدمة- والتأمل في دلالات هذا الذي جرى مسألة في غاية الأهمية- وهذا التأمل الهادئ هو مسؤولية المثقفين بامتياز .

من جهة ثانية ، تبدو الحاجة ماسة اليوم إلى تعامل موضوعي مع تفاعلات الحقل السياسي المغربي بكل ملابساته ، وبكل تحولاته ، انطلاقاً من قراءة متأنية في النتائج ، قراءة لا تحركها قبليات إيديولوجية تجعل من الأحكام ، ومن أحكام القيمة منطلق التحليل ، وغايته- إننا عادة نخضع عند تحليل تحولات الحقل السياسي ، إلى تلك الثنائية المعروفة : إما الرفض المعمَّم للواقع والحاضر باسم نموذج مستقبلي مرسوم في العقل ، نموذج يجري تحويله بالأدلجة ، إلى مَثَل أعلى ، وإما النوستالجيا التي تجعلنا نميل -سيكولوجيا- إلى تمني رجوع عصر سياسي ذهبيٍّ نراه متواريا في ماضينا المتوهج .

بعد هذا التقديم ، أريد أن أطرح خمس منطلقات تحليلية تبدو لي أساسية في رصد ما جرى يوم السابع من شتنبر 2007 .

* المنطلق التحليلي الأول:

يمس علاقة النخبة السياسية بالمحيط المجتمعي العام ، ويبدو لي في هذا الإطار أن هنالك اليوم ، في مغرب اليوم ، نوعا من العلاقة الإشكالية بين النخبة والناخبين . ويمكن طرح القضية - للتوضيح على الشكل التالي : نحن عشنا على نوع من الفرضية المضمرة ، على نوع من البراديكم في تحديد مفهوم الأغلبية- نحن نتصور الأغلبية بمفهوم إيديولوجي - ثقافي ، وليس بمعنى سياسي عددي- .

ونحن في هذا المجال ما زلنا تحت وقع نوع من التفكير ينزع إلى الاحتماء وراء تقسيم ما قبل- سياسي ، أو ما قبل - انتخابي في تحديد مفهوم الأغلبية على مستوى الهيئة الناخبة . إنه تقسيم لا يخدم في شيء متطلب النفاذ الانتخابي إلى صلب الأغلبية الواقعية وليس المفترضة أو تلك المرسومة في ثنايا العقل السياسي الخالص ، مع كل ما يتطلبه ذلك بالطبع من مراجعات .

* المنطلق التحليلي الثاني:

يهم هذا المنطلق أصناف الهيئة الناخبة: إن الظاهرة الكبرى التي كشف عنها اقتراع السابع من شتنبر هي تقلص التصويت السياسي لحساب أنماط أخرى من التصويت، وهي ظاهرة تعمقت بشكل كبير، وهذه الظاهرة هي بمثابة الوجه الآخر لظاهرة ما ندعوه العزوف السياسي.

ويمكننا أن نميز هنا بين أربعة أصناف للناخبين على الأقل:

* صنف الناخبين الحزبيين وعددهم بالطبع محدود، نضيف إليهم المحيط المباشر للمترشحين وعائلاتهم.

* صنف المستقطبين خلال مجريات الحملة من طرف المرشحين، أقصد المستقطبين بالبرامج الانتخابية والطروحات السياسية للمرشحين، بواسطة عمل لجان الدعم والمساندة- لقد تبين خلال الانتخابات الأخيرة أن عدد المستقطبين الانتخابيين كان محدودا للغاية.

* صنف ثالث، المصوتون باقتناعات سياسية مستقرة لا تحركها أو تؤثر فيها الحملات الانتخابية، ولا تنتظر الحملات الانتخابية لكي تكشف عن اختياراتها، ندرج ضمن هذه الفئة ما ندعوه المتعاطفين مع مختلف الأحزاب السياسية، عدد هؤلاء المصوتين كان جد محدوداً كذلك خلال استحقاق السابع من شتنبر 2007.

* يبقى الصنف الرابع، وقد بدا أكثر عددا خلال استحقاق السابع شتنبر، هو صنف الناخبين الذين حركتهم أو أثرت في سلوكهم الانتخابي شبكات العلاقات والمصالح، حيث اختفت النخبة العصرية وانفسح المجال للأعيان الذين لبسوا لبوسا عصرياً في بعض الأحيان من خلال مواقعهم في المجالس الجماعية وما تتيحه من تصرف فيما يسمى بخدمات "القرب".

لماذا تقلص التصويت السياسي إلى هذا الحد؟ هل هو محصلة لفشل استراتيجيات التواصل المعتمدة من طرف الأحزاب السياسية كما تذهب إلى ذلك بعض التحليلات؟ هل يعود الأمر إلى البلقنة التي تعرفها الخريطة السياسية، وما أحدثته من تبخيس للسياسة وللممارسة السياسية، وما أنتجته من تمثلات سلبية للأحزاب السياسية؟ هل يتعلق الأمر بانفجار البارادايكم يمين/يسار بفعل طبيعة الاختيارات الاقتصادية-والمالية التي اتبعت خلال

السنوات الأخيرة والتي قد تكون جعلت الرأي العام يصل إلى خلاصة مفادها أن الاختيارات الاقتصادية المطبقة لا تعبأ بالتمايزات السياسية ولا بالخطاب الإيديولوجي؟ أسئلة عديدة تطرح في خلفية تقلص التصويت السياسي.

من الجدير بالملاحظة هنا، أن حزب العدالة والتنمية كان المستفيد الأول من تقلص التصويت السياسي، لأنه في غياب نسبة مرتفعة من المشاركة، وفي غياب غَلَبَة التصويت السياسي، وفي ظل انسحاب الطبقات الوسطى من الفعل الانتخابي، تمكّن هذا التنظيم الأصولي من أن يستفيد بشكل مزدوج: من التصويت الإيديولوجي والسياسي لأتباعه، ومن التصويت الذي أتاحته له شبكات الخدمة المباشرة الإسعافية التي أقامها واعتمد عليها في تحركاته واستقطاباته، فهو لم يظهر بصورة جلية من خلال الحملة الانتخابية، بل كان ظهوره خلال مختلف أطوار الحملة باهتا غير مثير لأي انتباه.

* المنطلق التحليلي الثالث:

يمس هذا المنطلق التحليلي العلاقة بين المحلي والوطني في تشكيل الوعي السياسي للناخبين بشكل عام، لقد لاحظنا كيف اختلط الوطني بالمحلي في ذهنية الهيئة الناخبة سواء على مستوى المطالب أو الانتظارات، وذلك في حملة للانتخابات التشريعية من المفروض أن تهيمن الاهتمامات الكبرى الاستراتيجية والتوجهات القطاعية الأساسية.

هل يتعلق الأمر بتراجع في الوعي السياسي العام؟ هل هي صعوبات المعيش اليومي التي تدفع إلى تكييف التفكير السياسي ليرتبط بأكثر الحاجيات ضغطا؟ هل هي من مخلفات انسحاب الطبقات الوسطى ،التي كانت تلعب دور ضخ نوع من الثقافة السياسية المتجاوزة لحدود المعيش اليومي المباشر، والمبلورة للمشروع المجتمعي ولفكرة المشروع العام؟ لا نملك بالطبع في غياب دراسات أو معالجات ميدانية، الأجوبة الصحيحة على هذا النوع من التساؤلات الإشكالية، ولكن من المؤكد أن السياسة المغربية تعيش اليوم – كما كشفت عن ذلك نتائج السابع من شتنبر– صداما بين الفكرة والخدمة، بين المشروع المستقبلي وبين الشأن الملموس الفوري، بين المعيش المباشر والقيمي المتخيّل؛ وهي قضية لابد أن تسائل القوى الديمقراطية الحداثية لأن هذا التنافر بين الفكرة والخدمة الفورية يصب أساسا في طاحونة القوى الرجعية والمحافظة، ولابد أن يتمخض عن هذه المساءلة نوع من إعادة تأسيس مفهوم المشروع السياسي المجتمعي بشكل يجعله قابلا للتجسيد، تُرى جوانبه الملموسة على أوسع نطاق، وبالنسبة لكل الشرائح المجتمعية.

* المنطلق التحليلي الرابع:

يمس هذا المنطلق ظاهرة التنافر الحاصلة - كما عكستها مجريات الحملة الانتخابية وسلوك المنخرطين فيها خلال الانتخابات التشريعية - بين ما يمكن أن نسميه بالعقل النقدي والعقل العملي ؛ لقد بدا واضحا أن التطور الهائل الذي أفرزه المسار المجتمعي في المغرب، خاصة في مستوى حركية المجتمع المدني والمنظمات غير الحكومية من جهة، وزخم الصحافة المستقلة ذات النفس النقدي من جهة ثانية-، إن هذا التطور لم ينعكس بشكل حاسم على نتائج الانتخابات، أي أنه لم يدفع في اتجاه تطوير الحقل السياسي والمؤسساتي، سواء من حيث نوعية الفاعلين (المُنْتَخَبون) أو من حيث طبيعة الممارسة السياسية.

لماذا لا يتعدى دور العقل النقدي حدود نفي الموجود، ولا يرقى إلى مستوى بناء المطلوب؟ سؤال نتركه مفتوحا؛ حسبنا الإشارة الآن إلى أن هذا التنافر، أو لنقل في أقل الأحوال، انعدام التكامل بين العقل النقدي والعقل العملي يطرح أكثر من تساؤل حول حدود الممارسة النقدية، حدودها البنيوية في الوضع الراهن، وبنفس الصورة فإنه يطرح الحاجة إلى حوار ومصالحة عميقتين بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي، بين المطلب الجزئي والسياسي الشامل، تلافيا لخلط الأوراق والمسؤوليات مع ما ينتج عنه من محاكمات للنوايا بين المدني والسياسي.

* المنطلق التحليلي الخامس:

يرتبط بما لاحظناه خلال مجريات الانتخابات من غياب أو انسحاب شبه مُعْلَن للطبقات الوسطى، التي حملت على امتداد أزيد من أربعة عقود من الزمن مشْعَل التأطير السياسي والإيديولوجي، وكانت المصدر الأساسي لتكوين النخب السياسية والإدارية، لاحظنا بشكل جلي خلال الاستحقاقات الأخيرة انسحابا واضحا للطبقات الوسطى بمختلف مكوناتها الاجتماعية، سواء على صعيد المشاركة أو على صعيد تأطير السلوك الانتخابي لعموم المواطنين خاصة على مستوى الدرجات الدنيا من الهرم الاجتماعي والتي بقيت، في ظل تواري الدور السياسي للطبقات الوسطى، فريسة سهلة للأعيان، القدامى والجدد، وللأصوليين الذين استغلوا المرجعية العقدية في استدراج الأصوات الانتخابية.

انسحاب الطبقات الوسطى يطرح تحديا جديا على القوى الديموقراطية، وفي مقدمتها فصائل اليسار التي راهنت على دورها الطليعي في التوعية والدمقرطة والتحديث،

لدرجة أنستها العمل المباشر في الأوساط الشعبية، وكان من نتائج ذلك -يَا لَمكْر التاريخ- أن القوى الاجتماعية التي تعتبر المحور الأساسي في خطاب قوى التغيير وفي برامج القوى اليسارية، ابتعدت نهائيا في سلوكها الانتخابي عن تلك القوى، وهو ما يطرح الحاجة إلى إعادة تأسيس الخطاب السياسي مجددا، بما يمكنه من إعادة النفاذ إلى عقول وقلوب الفئات الشعبية العريضة، في ضواحي المدن الكبرى والمتوسطة والصغيرة.

وفي الحقيقة، فإن هذا الإشكال يطرح معضلة الانعكاس Reflexivity وفق التعبير السوسيولوجي، أي مدى ودرجة انعكاس الخطاب السياسي في الواقع الاجتماعي في مغرب اليوم، ذلك أننا نعيش نوعا من التنافر بين الخطاب السياسي الديمقراطي الحداثي ومُتَلَقيه المفترضين داخل الفئات الشعبية، تنافر ينضاف إلى التنافر الحاصل بين العقل النقدي والعقل العملي، الذي أشرنا إليه قبل قليل.

تلكم بعض المنطلقات التحليلية التي أتاحت لي، عند رصد نتائج الانتخابات التشريعية الأخيرة، وضعية المشارك/المراقب، أو الفاعل/المتأمل، وهي الوضعية التي عشتها خلال تلك الانتخابات؛ ويَبقى اقتناعي أن دور المثقفين في تحديد الأسباب والتداعيات العميقة لما جرى يوم السابع من شتنبر 2007، هو دور لا يمكن تعويضه وفوق كونه غير قابل للتعويض فهو غير قابل أيضا للتأجيل.

استحقاق 7 شتنبر 2007
بين التحضير والنتائج

رشيدة بنمسعود

ARCHIVE

مدخل:

كانت بلادنا في الشهور الأخيرة على موعد تاريخي مع تجربة الاستحقاقات التشريعية الأخيرة ، التي جرت في يوم الجمعة 7 شتنبر 2007 ، وتستحق هذه التجربة من المثقفين و الملاحظين السياسيين و الفاعلين داخل الأحزاب السياسية و قفة تأملية ولحظة مراجعة ، سواء على مستوى الخطاب السياسي المهيمن عند الأحزاب وجمعيات المجتمع المدني و الدولة نظرا للنتائج التي أفرزتها هذه التجربة على مستوى المشاركة المحدودة في الاقتراع ، وكذا على مستوى ترتيب الخريطة السياسية التي تدعو الفاعلين السياسيين إلى القراءة المتأنية للنتائج التي عبرت عنها انتخابات السابع من شتنبر 2007 ، أو على مستوى التحالفات والأقطاب السياسية التي تهم أساسا وبالدرجة الأولى جبهة الديمقراطيين و اليساريين .

وسوف أقدم كفاعلة سياسية تهتم بالشأن العام في هذه الورقة ملاحظات على شكل انطباعات أولية ، يمكن اعتبارها ملاحظات آنية وشخصية لأني ما زلت أعيش تحت وطأة الصدمة والخيبة التي نتجت عن انتخابات 7 شتنبر . سأبدأ هذه الملاحظة بالحديث عن أهمية المؤسسة البرلمانية باعتبارها سلطة تشريعية ورقابية ودبلوماسية ، لها دور أساسي في تفعيل

المشهد السياسي ببلادنا. لقد راكمت هذه المؤسسة منذ انتخابات 1963، أي بعد مرور 44 سنة على وجودها، تجربة خصبة من زاوية الحصيلة الكمية والكيفية، تمثلت محطاتها الكبرى في سبع ولايات تشريعية كانت آخرها التجربة الانتخابية الأخيرة (التي نحن بصدد مناقشة حصيلتها). والملاحظة الأولى التي أصادر بقولها إننا ما زلنا في حاجة إلى تطوير الحكامة التشريعية و تعزيز دور المؤسسة البرلمانية، وأهم ما يستوقفني في هذا السياق كون العديد من الاستشارات النيابية السابقة، كانت تسبقها مراجعة دستورية، وأمثل لذلك بتعديل سنتي 1992 و1996 اللذين كانا مدخلين للانتخابات التي أجريت سنتي 1993 و1997. لكن مثل هذا الإجراء لم يتحقق مع الانتخابات الأخيرة (7 شتنبر 2007)، بالرغم من مرور عقد من الزمن على آخر تعديل دستوري 1996 وبالرغم كذلك من انخراط المغرب في هذه المرحلة في تجربة طليعية مع حكومة التناوب التوافقي، تمثلت في مشاركة أحزاب المعارضة السابقة في هذه التجربة ورئاسة حزب الاتحاد الاشتراكي للحكومة، حيث عرفت بلادنا دينامية من الإصلاحات السياسية والحقوقية بوأت بلادنا منزلة مميزة على المستوى العربي والإفريقي.

في هذا السياق، نعتبر أن تجربة يوم الجمعة 7 شتنبر 2007، منعطف تاريخي بالنسبة لتجربة الانتقال الديمقراطي، إنها التجربة النيابية الثانية في مرحلة الانتقال الديمقراطي، والثانية كذلك في عهد الملك محمد السادس، فماهي الإضافات التي تقدمها هذه التجربة لمسلسل الإصلاح و مسار التغيير الديمقراطي؟

يمكن أن نؤكد جوابا عن هذا السؤال، على ضرورة استحضار بعض الملاحظات التمهيدية التي أجمعت عليها القوى السياسية التي شاركت في هذه الاستشارة التشريعية.

1- إرادة الدولة في التزام الحياد والرهان على انتخابات نزيهة وشفافة.

2- إجماع كل المشاركين على نزاهة هذه الانتخابات التي جرت في السابع من شتنبر 2007.

كرونولوجيا التحضير:

قبل تقويم النتائج التي أفرزتها هذه الانتخابات و التعليق على ما صاحبها من ضعف المشاركة (37%)، أرى من اللازم العودة إلى المرحلة التي سبقت التحضير للانتخابات، والتي تتمثل في إصدار قانون تنظيم الأحزاب، الذي يشكل بصفة عامة خطوة في اتجاه

عقلنة المشهد السياسي ببلادنا و ترشيد المشهد الحزبي من خلال التركيز على الشفافية المالية داخل الأحزاب، واحترام الديمقراطية الداخلية والانحياز إلى التشبيب والتأنيث على مستوى الأجهزة المسؤولة والقيادية، وذلك بهدف جعل الأحزاب السياسية قاطرة في تأطير العمل السياسي و الارتقاء بأدوارها من الحلقية و العلاقات الزبونية إلى احترام مبدأ الكفاءة و الفاعلية. وفي هذا السياق علينا أن نتساءل إلى أي حد استطاعت الأحزاب السياسية الاسترشاد بمقتضيات قانون الأحزاب في إعداد وتقديم مرشحيها ومرشحاتها لاستحقاق 7 شتنبر 2007.

أما على مستوى مجلس النواب، فقد سبق هذه التجربة الانتخابية الأخيرة، الموافقةُ على قانون انتخابي جديد، لكن التقطيع الانتخابي ظل هو نفسه تقريبا باستثناء بعض التعديلات الطفيفة المتعلقة بتقليص عدد المقاعد في بعض الدوائر، فاس والدار البيضاء على سبيل المثال، وإضافة دوائر جديدة بالنسبة لبعض المدن الأخرى. لقد أثار الإبقاء على التقطيع الانتخابي السابق، انتقادات من طرف العديد من الفاعلين السياسيين الذين اعتبروها عملية غير بريئة في مراميها، لأن الخلفية الرابطة لها تتمثل حسب بعض الانتقادات في الرغبة في التحكم في المشهد الانتخابي.

أما بالنسبة لنمط الاقتراع، فقد طالته بعض التغييرات، خاصة فيما يتعلق بالعتبة التي حددت في المرحلة الأولى (7%) ثم قلصت في مرحلة ثانية إلى 5% نتيجة لاعتراض بعض الأحزاب اليسارية الصغرى عليها.

ومن بين الإجراءات الجديدة التي صاحبت اقتراع 7 شتنبر 2007 من أجل ضمان النزاهة والحياد، الاستعانة بالمراقبة التي طالب بها النسيج الجمعوي والمجلس الاستشاري لحقوق الإنسان، وقبول حضور الملاحظين الدوليين.

كما أن وزارة العدل والداخلية قامتا بسن قوانين وتدابير زجرية بهدف تخليق الحياة العامة وضمان نزاهة و مصداقية العملية الانتخابية، ولقد توجت هذه الإجراءات الاحترازية بإعلان الملك في خطاب ذكرى ثورة الملك والشعب على ضرورة صيانة حرمة ونزاهة الاقتراع في انتخابات السابع من شتنبر.

وتجدر الإشارة في هذا الإطار، إلى أن المشاركة الانتخابية تميزت بتواجد 33 حزبا و26 لائحة وطنية مخصصة للنساء. أما عدد اللوائح المستقلة التي لا انتماء سياسي لمرشحيها، فقد وصلت إلى 13 لائحة.

وفيما يتعلق بتشكيلة المرشحين، فالملاحظة عليها أنها تتكون من 60% من الأميين و45% من الحاصلين على مستوى جامعي عال، وأن 3% هم من رجال المال والأعمال فقط.

والملاحظة العامة فيما يتعلق بإدارة الأحزاب للحملة الانتخابية تتمثل في كون جميع الأحزاب المشاركة في هذه الاستشارة الانتخابية، اتخذت من بين آليات الاتصال بالمواطنين و التواصل معهم وساطة المجال السمعي البصري، الذي يدخل في نطاق الأعراف الديمقراطية، لكن ما يمكن تسجيله كملاحظة أولية فيما يخص توظيف هذه الأداة التواصلية، أن العديد من الأحزاب لم تستطع أن تقنع مخاطبيها بحوار حقيقي حول برامجها، و لم تجعل من هذه الفرصة الثمينة في اللقاء مع الجماهير أداة للتشجيع على المشاركة في اقتراع يوم الجمعة، حيث تميز تواصلها بطابع المونولوج. كما أن التنافس بين الأحزاب بدلا أن يكون مبررا عاملا للتعبئة الجماهيرية، انقلب عند البعض إلى وسيلة للمزايدة المجانية، خصوصا فيما يتعلق بالمسألة الاجتماعية وفرص الشغل. كما أن المرشحين بصفة عامة أبانوا عن ضعف في تأطيرهم للحملة الانتخابية، وطفت إلى السطح التراكمات السلبية السابقة ممثلة في استعمال المال و شراء الأصوات الذي طغى على صوت البرامج على حساب الاحتكام إلى الكفاءة و الفاعلية السياسية.

ولقد ساهم في ظهور هذه الاختلالات اللاديمقراطية حياد الإدارة الذي كان سلبيا أمام مافيا الفساد و شراء الذمم في العديد من الأقاليم و الجهات.

لهذه الأسباب جميعها نتج عن انتخابات 7 شتنبر 2007 خريطة سياسية غير سوية تذكرنا بالسيناريوهات السياسية القديمة التي كنا نعتقد أن الزمن عفا عنها بعد تجربة نصف قرن من العمل التشريعي، وأحسن مثال على ذلك عودة الإيديولوجية القبلية والانتصار للدعوة المغلوطة التي تجعل من التجربة البرلمانية مجرد نسخة مطابقة لتجربة الانتخابات البلدية التي تصب برامجها عادة في اتجاه الارتباط بالدائرة الواحدة ومشاغلها الخاصة، بينما بالنسبة للانتخابات التشريعية، ففضلا على كون المرشح معني بشأن الدائرة تبقى مهامه الأساسية والمركزية حسب الدستور محددة في التشريع ومراقبة العمل الحكومي والدبلوماسية البرلمانية.

وهكذا جاءت نتائج اقتراع 7 شتنبر 2007 مخيبة لآمال الأحزاب اليسارية، خصوصا حزب الاتحاد الاشتراكي الذي تراجع على مستوى النتائج إلى الرتبة الخامسة مقارنة مع

ARCHIVE

انتخابات 27 شتنبر 2002 التي احتل فيها الرتبة الأولى؛ وذلك، بالرغم من عملية الانفتاح التي انخرط فيها الحزب، ورغم العملية الاندماجية الحزب الاشتراكي الديمقراطي في صفوفه، فقد عرف تراجعا في عدد المقاعد المحصل عليها (38 مقعدا)، وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن النتائج التي رتبت وضع الأحزاب كانت متقاربة لكنها كانت دالة في عمومها، بحيث أعادت إنتاج خريطة سياسية فسيفسائية، ولم تعزز أغلبية قطبية ومحورية، سواء في الأغلبية السابقة أم من بين أحزاب الكتلة الديمقراطية، الشيء الذي قد يؤدي إلى غياب حكومة أغلبية قوية ومنسجمة.

كما أن هذه النتائج التي انبثقت عن اقتراع 7 شتنبر، لم تفرز على المستوى الحزبي حسب قانون الأحزاب هندسة حزبية تؤشر في المستقبل على ولادة المحاور وتكتلات قطبية تعتمد على تحالفات تؤدي إلى الفرز الإيديولوجي والتقاربعلى مستوى الاختيارات المجتمعية المنسجمة، مما أدى إلى شيوع نظرة تبسيطية داخل المشهد السياسي تعتبر (أن أولاد عبد الواحد كلهم واحد)، نتيجة لعدم بروز الهويات الإيديولوجية الخاصة بالأحزاب، كما أنها فندت كل التوقعات القبلية المنحازة التي كانت تروج لما يسمى بالاكتساح الإسلامي ممثلا في "حزب العدالة والتنمية"، الذي احتفظ بحجمه الحقيقي، رغم انه غطى في هذه التجربة جل الدوائر الانتخابية (عكس ما كان عليه الواقع في انتخابات 2002). وكذب بذلك كل التوقعات التي كانت تمنحه نسبة كبيرة تصل إلى ثمانين مقعدا حسب بعض التصريحات الصادرة عن وكالة رويتر للأنباء، التي كانت تتوقع أن يصنع هذا الحزب المفاجأة، أو من طرف بعض الجمعيات كجمعية "دابا 2007" التي كانت متفائلة بخصوص صعود المد الإسلامي وتراجع المد اليساري.

لكن بغض النظر عن الموقع الذي احتله حزب العدالة والتنمية بالنسبة لنتائج الاقتراع، فان الملاحظ أن موقع حزب الاستقلال الذي احتل المقدمة، وحصول العدالة والتنمية على الرتبة الثانية، يؤشران على أن الخط التقليدي والمحافظ قد هيمن على توجهات هذه الانتخابات. ومن بين الملاحظات المائزة بالنسبة لاقتراع 7 شتنبر ظاهرة العزوف الانتخابي، إذ أن نسبة المشاركة لم تتجاوز(37%). و يبدو أن القراءة الموضوعية لهذه الظاهرة ينبغي أن تنطلق من تجارب الماضي، ذلك أن الانتخابات السابقة عندما كانت ترتفع نسبة المشاركة فيها إلى أرقام قياسية كان الاعتقاد السائد أن تلك النسب لم تكن دالّة على واقع صحي، أو ارتفاع في مستوى الوعي عند الناخبين، وإنما كان نتيجة للتدخل

السافر أو الإكراه الذي كانت تمارسه الإدارة على المواطنين، وأيضا من خلال تزوير صناديق الاقتراع عن طريق تضخيم نسبة المشاركة. نتيجة هذا المعطى، يمكن اعتبار، من جهة أولى، أن ما حدث في الانتخابات الأخيرة من عزوف انتخابي يعتبر دلالة عن تحرر المواطنين من تدخلات السلطة الإجبارية، وممارستهم الحرة لحقهم في الاختيار؛ ومن جهة ثانية، قد يعود إلى عدم الاهتمام بالعمل السياسي نتيجة للإحباط واختلاط الخطابات الحزبية نظرا للتشويش الذي عرفته الحملات الانتخابية.

ويمكن القول، إن الاتحاد الاشتراكي الذي خاض تجربة المعارضة لأكثر من أربعة عقود، وقرر المشاركة في الحكومة منذ تجربة حكومة التناوب التوافقي (فبراير 1998) كان المستهدف الأول من هذا العزوف، والمتضرر الأكبر من عملية تفشي توظيف المال، و يمكن فهم العزوف و ضعف المشاركة على انه موقف احتجاجي أو عقابي بسبب خيبة الآمال العريضة التي كانت معلقة على الحزب باعتباره قاطرة للانتقال الديمقراطي، يضاف إلى ذلك، أن شروط المزاحمة غير الإيجابية التي مارستها الأحزاب اليسارية الصغرى بتحويل معركتها إلى معركة ضد حزب الاتحاد الاشتراكي، أدّى إلى خلق نوع من التشويش السلبي والبلبلة داخل صفوف اليسار عموما (خير نموذج لذلك دائرة المحيط بمدينة الرباط). كما أن الأداء الحكومي بالنسبة للوزراء الاتحاديين بالرغم من إيجابيته العالية، فإنه لم يستثمر بطريقة ذكية، فألصقت السلبيات كلها بفئة الوزراء الاتحاديين، وتنصل باقي مكونات الحكومة من كل تضامن حكومي.

وقد تكون من بين أسباب العزوف الانتخابي أيضا الصورة السلبية المتوارثة عن البرلمان، والتي عمقها دور الإعلام و الأداء النيابي للعديد من المنتخبين بسبب الغياب المتكرر، وتفاقم ظاهرة الترحال، وعدم احترام التعهدات أمام السكان الذين صوتوا عليهم، مما يجعل المردودية الإيجابية للمؤسسة التشريعية تتراجع أمام هذه الصورة السوداء التي ترسخت في مخيلة الجماهير عن وظيفة البرلمان، مما يقتضي ضرورة رد الاعتبار للمؤسسة التشريعية وذلك بتطهيرها من سماسرة الانتخابات وإيجاد قوانين تحفيزية واعتماد معايير مؤسسة على الكفاءة والمحاسبة النضالية مع إعمال مقتضيات النظام الداخلي للبرلمان القاضي بالتزام النواب بالحضور.

وإذا ابتعدنا عن مقاربة ظاهرة العزوف الانتخابي في علاقته بالأحزاب وتحديدا أحزاب اليسار، فإن فهم هذه الإشكالية يتطلب منا أن نتعاطى معها كشأن عام يسائل

المجتمع ويرهن مستقبل المغرب. الشيء الذي يتطلب من جميع الأطراف (الدولة، الأحزاب، جمعيات المجتمع المدني) أن تساهم في تفكيك شفرة هذا العزوف السياسي من أجل تحديد المسؤوليات، لأن المستهدف من هذه الظاهرة هو المجتمع السياسي في شموليته؛ ومن بين العوامل المساعدة في فهم هذه الظاهرة الانتكاسة التي عرفتها ثقافة المواطنة تراجع عن مزاولة الواجب الوطني الذي يعتبر حق ممارسة التصويت أحد آلياته الطبيعية، الشيء الذي ترك المجال فارغا أمام سيادة العلاقات النفعية والبلقنة السياسية المعتمدة على الإفساد للضمائر وشراء الذمم لاعتبارات ذاتية قد تصل إلى اقتناعات عدمية عند بعض المجموعات السياسية، مما أفرز ظاهرة جديدة أو نخب جديدة تذكرنا بمرحلة ما قبل الاستقلال، والتي عرفت بالأعيان وتضخيم صورة الأطر التقنوقراطية تجعل منهم مجرد إداريين همهم الوحيد هو تدبير المصالح اليومية وتشجيع الأمية السياسية والعداء للالتزام الحزبي بصفته أرقى أشكال الممارسة الحداثية.

أما بالنسبة لمشاركة المرأة في مراكز اتخاذ القرار السياسي التي تعتبر في مغرب اليوم صمام التقدم و الرهان على المستقبل و التعبئة المجتمعية، فإن نسبة تمثيليتها في مجلس النواب حسب نتائج اقتراع 7 شتنبر قد عرفت تراجعا ملحوظا حيث انخفضت مشاركة النساء، بمقعد واحد (34 نائبة برلمانية) بالمقارنة مع التجربة السابقة، في الوقت الذي رفعت فيها الحركة النسائية شعار ثلث مقاعد مجلس النواب للنساء، كما أن ترشيح النساء كوكيلات للوائح المحلية لم يعرف تقدما مميزا يتماشى وحجم الأداء النيابي الإيجابي الذي قدمته جل النائبات البرلمانيات على امتداد ولاية 2002–2007. فعلى سبيل المثال، نجد أن حزب الاتحاد الاشتراكي للقوات الشعبية الذي انتمي إليه لم يقدم ضمن 95 دائرة سوى مرشحتين وكيلتين للائحتين. بينما عرفت اللائحة الوطنية التي كنا نراهن عليها كنساء لكي تكون رافعة للتمييز الايجابي، قد تحولت في دورتها الأخيرة إلى هدف في حد ذاته، أساء إلى مدلولها النبيل، فبدلا من أن تكون أداة لتشجيع القيادات النسائية ووسيلة لتعزيز القدرات النسائية، صارت عند إعدادها و تدبيرها وفي غياب معايير موضوعية، آلية لإجهاض الكفاءات النسائية الصاعدة. وعملية عرقلة في طريق صناعة النخب النسائية الرائدة.

جملة أخيرة:

بالرغم من التحضير المادي والأدبي الذي قامت به الدولة والأحزاب من أجل إنجاح محطة اقتراع 7 شتنبر2007 ، أبان المشهد الانتخابي عن مجموعة من العلل والأعطاب ترتبط في جزء منها بما هو تقني كنمط الاقتراع (العتبة – أكبر البقايا) . والتقطيع الانتخابي (التفاوت بين الدوائر على مستوى المساحة وعدد الأصوات)، وسوء تدبير العديد من الأحزاب لملف الترشيحات وجريها المتلهف نحو تحقيق الفوز وجلب المقاعد بأي ثمن، مما أدى إلى سيادة مبدأ (دعه يفعل دعه يمر)، وهيمنة ثقافة الإفساد واستعمال المال الذي يغذي نزعات الفردانية والنفعية .

إن تقديم هذه الصورة المعطوبة للمشهد الانتخابي العام، تلزمنا بالتأمل الموضوعي، والبحث عن خارطة الطريق بغية إرجاع المصداقية للعمل السياسي وتجديد الثقة المفقودة عند الناخبين في الاحزاب السياسية ، وذلك لن يتحقق إلا بالاهتمام بالتأطير والتعبئة وإفساح المجال للنساء والشباب ، واعتماد الكفاءة بالنسبة عند إسناد المسؤوليات ، مع الحرص على تعزيز وتقوية الامتدادات الشعبية والتواصل اليومي مع المواطنين حتى لايبقى اللقاء موسميا ومناسباتيا . فضلا عن هذا، يظل مسار تحصين تجربة الانتقال إلى الديمقراطية وتطويرها رهيناً بالمبادرة إلى إقرار الإصلاحات الدستورية التي تحقق التوازن في العلاقة بين السلط ، وإيجاد حل لمعضلة البطالة، والشغل الذي يشكل أهم انتظارات الفئات الشعبية العريضة .

ARCHIVE

مناقشة وتعقيب

- عبد الحميد عقار:

ARCHIVE

قبل فتح باب المناقشة والتعقيب، أشير إلى أن المحافظة والتقليد في سياق حديثنا ملمح مميز للأحزاب التي فازت بالمراتب الأولى في الاستحقاق التشريعي لشتنبر 2007. فعلاقتها بالقصر أساسها الولاء والموالاة، بدل التعاقد المقَنَّن بالدستور، وبالقوانين، وبمواثيق توضح الإطار الأخلاقي لهذا التعاقد، وسبل الممارسة السليمة له؛ هذه الأحزاب تعبر بانتظام عن أنها مع ما سيقرره الملك فيما يخص تعيين الوزير الأول والحكومة، بل وحتى البرنامج الحكومي نفسه. ولا تقف المحافظة عند حدود الاتّكاء، ولو باختلاف وتفاوت، على المرجعية الدينية وإبرازها بهذا التأويل أو ذاك، وبهذه الكيفية أو تلك في الاستعمال والتكييف للدين(مجال القداسة والرسوخ)، مع السياسة (مجال تدبير الحكم دنيويا وبشريا، ومجال صراع البرامج والمشاريع المجتمعية وتنافسها الخلاق بأفق مدني خالص ومتغير)، المحافظة تمتد لتشمل إقحام عناصر "ثقافية" تقليدية لضمان الفوز في نظام انتخابي حديث ومعاصر ومتواضع عليه سياسياً وقانونياً. هناك عودة قوية للوجهاء ولفكرة الوجاهة معياراً للترشح؛ وهناك توظيف متجدد لروابط القرابة والزبونية؛ وهناك عزف غير مقبول سياسياً على الإقليمية والمحلية؛ والحال أن تدبير شؤون الجماعات

والأقاليم والجهات هي من اختصاص منتخبين آخرين، غير البرلمانيين.

نظام الانتخابات يقوم، باستثناء دوائر محدودة، على اللائحة، لكن الحملة الانتخابية بما في ذلك حملة الإشهار في التلفزة وغيرها من وسائل الاتصال، كانت توجه خطاباتها نحو ضرورة اختيار الأفراد بمواصفات معينة، بينما الأساسي في هذا النظام الانتخابي هو البرنامج، وهو الحزب. المحافظة إذن؛ فضلا عن كونها تتضمن مواظبة على التقاليد ومقاومة ما للتغيير، هي مجموعة آليات ذهنية وسلوكية تقليدية، توظَّف لتملُّك ماهو عصري وزماني.

– محمد مصطفى القباح:

أعتقد أن مثل هذه اللقاءات جيدة، مع أنها تتم في الغرف المغلقة، إذ لم نقم يوما بنقاش مفتوح للعموم، هل هو خوف من مواجهة الرأي العام؟ لقد اكتفينا دائما بالمواثيق والبيانات والتصريحات على خلاف الدول الديمقراطية، عندما يكون ثمة حدث ما، يتم فتح حوار عمومي صريح ومفتوح، وهذا مشكل حقيقي عندنا، لأن عنوان الديمقراطية هو هذا الحوار العمومي؛ وقد رأينا كيف تتم العديد من هذه الحوارات في العالم، حيث يمكن أن يحضر فيها الهاجس الحزبي والهاجس الوطني، أو العام، ففي فرنسا عندما كان هناك نقاش عمومي حول الدستور الأوروبي لم يكن هناك أي نزوع حزبي أو سياسي ضيق، إذن أقول إن هذا الحوار العمومي هو ما ينقصنا.

ثانيا، نحن باعتبارنا أناسا لا علاقة لنا بالتحليل النظري أو العلمي غالبا ما ننظر إلى الأحداث ليس في ظرفيتها، بل نذهب أبعد من ذلك، فنبحث في حفرياتها، فما وقع الآن ليس وليد اليوم، ولكنه يعود إلى العهود الأولى للاستقلال، ولهذا سأحاول تحديد بعض الأعراض المرَضية السياسية التي يمكن أن نفهم من خلالها ما وقع. العرَض الأول هو تخلف النضج السياسي، فمنذ الاستقلال لم ننتبه للانتقال الديموقراطي إلا سنة 1998 مع حكومة التوافق. أي 40 سنة من التخلف العقلي والنفسي للمجتمع المغربي و"لما جا المعقول" كنا قد وصلنا إلى مستوى عال من إهدار طاقتنا، كسياسيين، وبات هناك نوع من الضعف في الأداء السياسي، وحتى هذا التوافق لم يأت لأن المشهد السياسي أنضج التجربة، بل لأن المؤسسة العسكرية عليها اعتمدت المؤسسة الملكية، فوجدت بذلك سبيلاً لحماية نفسها أو غطاء مدنيا، لتيسير الانتقال السلس، كما يقال، في المؤسسة الملكية بين

الحسن الثاني ومحمد السادس، والمؤسسة الملكية دشنت الفعل السياسي ليصل إلى الحالة التي هو عليها الآن.

إذن مشكلتنا هي تأخر النضج، 40 سنة من الصدامات، ومن الانشغال بالقضايا الهامشية، ومن سنوات الرصاص، كل ذلك، من أجل أن نصل إلى أنه حان الوقت لنوع من التوافق والنقلة الديموقراطية التي لم تأت بحكم النضج، بل بحكم أن الحسن الثاني "رأى حلما" مفاده أنه ينبغي عمل شيء، في أفق إعداد الخلافة لابنه محمد السادس بطريقة سلسلة وبطريقة فيها نوع من التوافق المدني والسياسي. التحليل السياسي إذن، لا ينبغي أن يهم اليوم أو أمس فقط، بل يجب أن يذهب بعيدا في الحفريات السياسية من أجل أن نفهم حركة الإنتاج السياسي وكيف حدث وكذلك الصراعات، وأيضا الفرص التي ضاعت.

إن المغرب مع الأسف يضيع الفرص يوما بعد يوم. وهناك فرص ضائعة كثيرة، من جملتها أننا لم نع بضرورة البناء السياسي بعد الاستقلال مباشرة، وأجلناه حتى تأخر النضج وأهدرت الطاقات السياسية وحتى شاخ الناس وأصبحوا يبحثون عن مصالحهم ومنافعهم وعن المراكز السياسية وغير ذلك، بحيث صار الكل مدجنا وداخل اللعبة مع كامل الأسف. إذن هناك عيب في الصيرورة السياسية التاريخية التي ينبغي أن نعيد فيها النظر بصفة أساسية. وأعتقد أن الأمل، كل الأمل في أن يعلن الاتحاد الاشتراكي عن موقف يخلق دينامية سياسية تخرجنا من هذه العطالة السياسية التي يوجد فيها المغرب، فهذه الورطة التي نحن فيها، كما قال كمال عبد اللطيف، هي ورطة حقيقية وخطيرة، ومن الواجب علينا نحن بوصفنا محللين أن نحلل الموقف بشكل من الامتداد الزمني بشكل من متابعة السيرورة في حفرياتها، من أجل أن نفهم الأصول التاريخية ولماذا وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

ARCHIVE

طبعا هناك أعراض مرضية كثيرة نتيجة هذا الوضع، والعرَض الأول هو نوع من انفصام الشخصية السياسية عند المنتسبين للعمل السياسي. وعندما أشاهد الإخوان والخبراء السياسيين الذين شاركوا في الموائد المستديرة لما بعد الانتخابات، بالانتباه لأصابعهم أكتشف أنهم لم يصوتوا، بدليل أن أصابعهم خالية من المداد، ويشتكون من ضعف المشاركة، ويجعلون منها قضية كبرى وخطيرة ويتباكون على ذلك، هنا نحن في حاجة إلى تحليل نفسي للمجتمع، بمعنى أن هناك مشكلا في الجسم الاجتماعي غير مفهوم. ولكي نجد أصل

المشكل، لابد من أن نذهب بعيدا في التحليل، سواء أكان التحليل سوسيولوجيا أو نفسيا أو تاريخيا، وذلك من أجل فهم هذا الانفصام السياسي الذي اعتبره من الأعراض المَرَضية سواء في الطبقة الشعبية أو النخبة أو غير ذلك. أعتقد أن إظهار نسبة المشاركة كما لو أنها في صالح الملك خطأ، لأن الملك عندما تحدث عن الانتخابات في غشت، فهو مَنْ حثّ الناس على الذهاب للتصويت وعلى الحرص على الأخلاق، لكن الواقع أن لا أحد احترم ذلك، إذن فهذا نوع من الموقف من الملك بشكل عام. موقف خطير. إذن هناك أمور في عمق النسيج الاجتماعي والنسيج المؤسساتي تدل على هذا الموقف أيضا. هناك قضية انفصام خطيرة بين السياسة والمجتمع. الإخوان توقعوا ما يمكن أن يحدث، لكن توقعاتهم كانت مخطئة، وبالتالي فهذا يدل على أنهم لا يعرفون مجتمعهم، وهذا خطير جدا، فإذا توقعتَ أمراً ولم يحدث، فمعنى هذا في حسابك السياسي أنك لم تأخذ في الاعتبار المجتمع، إذن ليس هناك نوع من الإصغاء الحقيقي للمجتمع، أو ليست هناك معايشة للمجتمع في تحركاته، والتوقعات يجب أن تكون صائبة على الأقل بخمسين في المائة أو ٤٠ في المائة؛ لكن أن تكون هذه النسبة هي 10 أو 5 في المائة، وندخل في هذه العملية كل القوى ونخلق لها مجموعة من الآليات منها آلية "2007 دابا" التي كانت آلية ارتزاقية وآلية سطحية ولا قيمة لها، فذلك يطرح علينا التساؤل بل والحرج بصدد درجة معرفة الفاعلين بالمجتمع وبتوجهات الرأي والاختيار فيه؛ يطرح علينا السؤال بصدد الآلية الاشهارية الموظفة بديلا للأحزاب والمحللين والمثقفين والخبراء؟ وما هي قيمة استطلاع للرأي يقوم به عيوش أو غيره في المجتمع المغربي، كي يأتي ويقول إن المشاركة ستصل إلى 70 في المائة وفي الأخير لم تتعد 37 في المائة، وندفع له الأموال الطائلة لإنجاز ذلك. إذن هناك عَرَض مرضي سياسي آخر بكل صراحة هو ميوعة سلوكية تجاه الفعل السياسي، بمعنى أن الفعل السياسي أصبح مميعاً، وهناك الكثير من المظاهر الدالة على هذا منها كثرة الأحزاب وكثرة البرامج؛ ويكفي أن نستحضر مضمون وأجواء الحملة الانتخابية لهذه السنة، لنجد بوصفنا مثقفين أنها كانت عبارة عن مسخرة، عبارة عن كوميديا ليست سخيفة فحسب، بل أكثر من ذلك مُتّشحَة بالوسخ في الشوارع. الحملة الانتخابية لهذه السنة لا تعكس القيمة الحقيقية المؤسساتية للعمل الانتخابي، وقد أشار الإخوان إلى ضعف الثقافة الانتخابية، إذن في نظري أرى أنه ينبغي أن نأخذ بوصفنا مثقفين ما يكفي من الوقت، لأن المثقف هو الذي كان مهمشا في هذه الانتخابات، وكذلك الثقافة والعلم، علينا أن نأخذ ما يكفي من الوقت لنحاول تقييم هذه الانتخابات، ونحاول إسماع صوتنا في الساحة العمومية، فليس

من المهم أن نكون في الغرف، بل أن نخرج إلى الناس.

- عبد الحميد عقار:

مضمون حلقة النقاش هذه، موجه بالفعل لعموم القراء والمهتمين، لكن من خلال مجلة **آفاق** عدد ديسمبر 2007. أما مسألة الوقت أو المسافة مع الوقائع، فلها بالفعل أهميتها وضرورتها من المنظور الثقافي والمعرفي، بشرط أن يتواصل الحوار ويتعمق النقاش العمومي وينخرط المثقفون إيجابيا فيه. أما بخصوص فكرة الفرص الضائعة، فهي ذات بعد تفسيري. وسبق لأندري جوليان أن وظفها في سياق آخر في خاتمة كتابه "أفريقيا تسير" منتقدا الجمهورية الرابعة تحت عنوان "سياسة الفرص المتلاشية". وتحيل الفكرة إجمالا على هذا النوع من التصلب في الرأي والموقف تجاه ما تطرحه الأحزاب والمعارضة إجمالا، من أفكار ومشاريع، لتطوير النظام وعدم تبديد الوقت في صراعات جانبية وهامشية وشبه عقائدية.

- عبد الصمد الديالمي:

أود تقديم ملاحظة تحليلية عامة ثم تساؤلا مستقبليا؛ بالنسبة للملاحظة فهي تتعلق بالأساس بالاتحاد الاشتراكي، الحزب الذي أحبه منذ مدة طويلة، والخسران الذي يعيشه الآن يسائلني انطلاقا من نقطتين، إحداهما أشار إليها الأستاذ ادريس بنسعيد، والأخرى أشار إليها الأستاذ عبد الرحمان العمراني. الاتحاد الاشتراكي في سنتي 1997 و1998 كان في موقع قوة، حصل على الأغلبية سنتي 1997 و2002، ولكنه قبل الدخول في اللعبة السياسية متنازلا في نفس الوقت عما سمي بوزارات السيادة / الأساسية الكبيرة. وقد اقترح ادريس بنسعيد التمييز بين ما هو سياسي وما هو لا سياسي أو ما هو فوق سياسي، أي ملكي؛ أعتقد أن هذا التمييز غير وارد، وينبغي أن نقول صراحة إن الملك فاعل سياسي كذلك، ليس فوق السياسة وليس خارجها، إذن لماذا قبل الاتحاد الاشتراكي أن يدخل لعبة سياسية مبتورة ويعرف مسبقا أن تدخله في السياسة العمومية سيكون محدوداً ومبتوراً. وهنا لا ينبغي أن نقول إن الحزبي هو السياسي وغير الحزبي ليس بسياسي، لا، بالمنطق الحزبي، الملكي هو السياسي كذلك، والملك فاعل سياسي مباشر وكبير، إذن هذا هو في ما أعتقد الخطأ الاستراتيجي الأول الذي وقع فيه الاتحاد الاشتراكي. والخطأ الثاني (يرتبط)

بتمثيليته، وهنا أخاطب الأستاذ عبد الرحمان، إن الاتحاد الاشتراكي أخذ قوته من تجذره في الطبقات الشعبية، وهي التي أعطته الأغلبية في سنة 1997 وفي سنة 2002، من هذه الطبقات استمد قوته السياسية؛ ولكن حين بلغ "السلطة" سَنَّ سياسات عمومية في صالح الطبقات الوسطى، إذن لا وجود لاستمرارية بين خطابه "الشعبي"، حتى لا أقول الشعبوي، وبين السياسات العمومية الموجهة لصالح الطبقات المتوسطة، ومن ثم فهذه السياسات هي التي وقعت بين 2002 و2007، ومن ثم هزيمته في الانتخابات الأخيرة، وبالتالي، فهذا هو التناقض الأساسي الذي يعيشه الاتحاد الاشتراكي: من جهة قبول الدخول في لعبة سياسية مبتورة لصالح الملك، ومن جهة ثانية خيانة التمثيلية وخيانة الثقة التي وضعتها الطبقات الشعبية في الاتحاد الاشتراكي، وهذه مسألة أساسية ينبغي الانتباه إليها.

إن الرهان الكبير المطروح على الكل الآن تجاه المستقبل، هو رهان الإصلاح الدستوري. فهل الاتحاد الاشتراكي مقتنع به استراتيجيا وفي العمق، أم يعبر عن ذلك فقط في إطار لعب سياسي؟ هل هناك اقتناع عميق وحقيقي بالإصلاح الدستوري، اقتناع بأن الإصلاح الدستوري ضرورة تاريخية أساسية؟ هذا سؤال أول، ثم ما هي القوى المقتنعة بهذه الضرورة التاريخية؟ هل الاتحاد الاشتراكي مقتنع لوحده بهذه الضرورة، أم هناك أحزاب أخرى مقتنعة بأن الإصلاح الدستوري أمر ضروري؟ هل الملك مقتنع بهذه الضرورة؟ إذن لابد من تشخيص القوى السياسية المقتنعة بهذا الإصلاح الدستوري بوصفه ضرورة سياسية لصناعة مستقبل سياسي مغربي. تشخيص القوى السياسية التي تؤيد هذه الخطوة الأساسية والأولية، وكيفية الوصول إلى تحقيق هذا الهدف سؤالان أساسيان. السؤالان في اعتقادي هما اللذان ينبغي طرحهما الآن على أنفسنا كمثقفين وكمتعاطفين وكسياسيين وكمواطنين.

- أنور المرتجي:

أناقش هذا الموضوع خاصة في إطار اتحاد كتاب المغرب ونظراً لما في ذلك من دلالة، فمثل هذه الموضوعات أعتقد أن المناقشة الجدية والمثمرة لا تكون داخل الأحزاب، وهذا هو التعارض والتناقض اللذان حدثا، مثلا لو أنني كنت أتحدث داخل الحزب ما كنت لأتحدث بالطريقة التي سأتحدث بها الآن، أنطلق من مصادرة هي الخلاصة التي توصلت إليها وهي

عامة، تهم المخزن والأحزاب السياسية وتهم اليسار على وجه خاص. هذه النتائج هي إعلان نهاية ما كان يسمى بالانتقال الديموقراطي، وتجليات هذه المسألة هي أولا أن اليسار هو الذي ظل يرفع شعار الانتقال الديموقراطي وخصوصا الاتحاد الاشتراكي، والانتقال الديموقراطي هو نوع من التوافق الذي كان بين الملك الحسن الثاني والمعارضة ممثلة في الاتحاد الاشتراكي، وقام على تنازل أسميه التنازل المتبادل؛ فالمعارضة تنازلت من جهتها والملك الراحل تنازل من جانبه أيضا واعترف بالسكتة القلبية وغير ذلك، وهذا عشناه كله. الآن نجد أن نتائج استحقاق 2007 تؤشر على صعود ظاهرة عامة أسميها الصعود المحافظ، والملك هو المنتصر الأول في الانتخابات وسأوضح لماذا؛ الأحزاب الأربعة الأولى، والاتحاد الاشتراكي في الرتبة الخامسة، فهذا يتضمن خطاباً موجَّهاً للاتحاد الاشتراكي، سواء كان موجه هذا الخطاب هو المجتمع أو السلطة الانتخابية، فهو خطاب يقول للاتحاد الاشتراكي، كفى من المسيرة التي قامت على التوافق واستمرت لأكثر من عقدين من الزمن. وبهذا الصدد نقدم بعض الأمثلة البسيطة، أولا أنظر لهذا التوجه المحافظ والقطيعة مع شيء اسمه الانتقال الديموقراطي في العزوف الانتخابي. وأنا لا أتحدث عن أن النتائج كان ينبغي أن تكون 60 أو 55، هذه مجرد أوهام خاصة في مجتمع مثل المغرب ينتمي إلى العالم الثالث، وأنا شخصيا لم أصدق في يوم من الأيام هذه الأرقام ولو كانت 20 مقعدا، 20 مقعداً حقيقياً بوعي مثل وعي يعرف صناديق الاقتراع ويعرف الانتخاب وغير ذلك، هذا لا يمكن أن يصدق. نسبة الذين شاركوا في التصويت تبين أن هناك عزوفا انتخابياً غير مسبوق في الأسرة الناخبة لليسار، لأن العزوف لا ينسجم مع التصور المحافظ. إن الذي يملك هذه القدرة على التحليل هو ذلك الذي ينتمي إلى الأسرة الديموقراطية من المثقفين أو النخب، وفي ذلك العزوف إذن دلالة على صعود الاتجاه المحافظ.

وبالنسبة لطبيعة النظام الانتخابي لدينا، هنا يمكننا أن نتحدث بصراحة عن هذه الديموقراطية التّمثيلية، وهي في الواقع ليست ديموقراطية، فما معنى أن أكبر حزب يحصل على أكبر عدد من المقاعد والحزب الثاني بعده يفرقه عن الأول عدد جد محدود من المقاعد. فهل هذا يعبر عن رأي عام. كيف يمكن لرأي عام أن يتعامل بهذه الطريقة التي تشبه تنقيط المعلم، يعطى لهذا 5 وللآخر 6 لا بأس وللثالث 7 مستحسن وما إلى ذلك. إن هذا لا يعبر عن مخاض فكري. نحن لدينا ثلاث وجهات نظر مجتمعية وسط ويسار ويمين. وهذا يكفي، ولكن مع ذلك نجد هذه الفسيفساء. إذن أنا أطعن في هذه الديموقراطية التمثيلية،

أولا بالنظر لهذا الفشل الذي عشناه جميعا، أي صعود الفكر المحافظ أو التوجه المحافظ بصفة عامة، والقطيعة مع فكرة الإصلاح الدستوري، حيث لا عودة، وأقولها هكذا، أو لن يكون مستقبلا هناك حديث عن ما يسمى بالإصلاحات الدستورية والاصلاحات الديموقراطية. لأن المؤهل شرعيا أعطيَتْ له الدرجة الأخيرة، بمعنى أنه ليست له المصداقية في أن يطرح تلك الإصلاحات وإلا أُدْخل ذلك في إطار المزايدة، فيقال لهذا الحزب إنه عندما يفشل يعمد إلى شد الحبل. بموضوعية، أعتبر إن مكسب تعيين الوزير الأول في إطار المنهجية الديموقراطية ليس مكسبا ديموقراطياً، لأن الذي كان يطالب به هو الاتحاد الاشتراكي ولكنه لم يستفد منه (في 2002) وهو الذي يعرف معناه وقيمته، المعيّن وزيراً أول اليوم يقبل بالحكومة أعين وزير أول تيكنوقراطي أو غيره، نحن متشبثون فقط بالقرار الذي يتخذه الملك، وبالتالي ليس مكسبا سياسياً يمكن التغني به، والواقع أننا نحن في اليسار الذين تلقوا الضربة القاسية نحاول التخفيف من وقعها بالحديث عن أن أحد المطالب التي كنا نطالب بها قد تحقق. لن تكون مكاسب دستورية في المستقبل، وأطرح هنا السؤال التالي، هل سنعيش إلى الوقت الذي ستتمتع فيه بذلك المكسب الذي طالبنا به، سيعطى للاتحاد الدستوري بعد ٥ سنوات إذا تبدلت الخريطة، فعلى كل، هناك توجه إلى إقبار ما يسمى بمشروع الانتقال إلى الديموقراطية الآن، لن تكون الحكومة المقبلة إلا تنفيذية إدارية أي تقوم فقط بالتدبير.

إن إزاحة اليسار وتأخره في هذا الموقع، يجعل قضايا الإصلاح الدستوري قضايا نخب، نأتي إلى اتحاد كتاب المغرب ونناقشه وليس أكثر.

بصراحة هل هناك حل للاحتماء أو الدعوة إلى المعارضة؟ لا، هذا خطأ. لم نعد قادرين. ولم يعد هناك وقت لتشكل الأحزاب وتطورها وتوفير دينامية عملها ومشاركتها في الحكومة. هذا العهد ولى. لم تعد هناك معارضة. أطالب فقط لأجل إنقاذ هذا الوضع اللاديموقراطي الذي نعيشه خلال هذه الانتخابات بديموقراطية تشاركية. ويمكنني أن أذهب أبعد، فهناك ايديولوجيا داخل الأحزاب وخاصة في اليسار، وهي أنه يلزمنا نوع من التشارك على المستوى الإيديولوجي، أي احترام التعدد الفكري عند اليسار، وأتحدث عن اليسار بأكمله من الاتحاد الاشتراكي إلى المكونات الصغرى الأخرى، ينبغي علينا التفكير بنغمة محددة.

لماذا أتحدث عن صعوبة العودة إلى المعارضة الآن؟ لأن تدبير الشأن العام في سياقنا الحالي غالبا ما يكون على حساب العمل الحزبي . أقول فقط إن الاتحاد الاشتراكي خسر الانتخابات ، لكنه ربح الحزب ، لأنه استطاع أن يتحكم في تداعيات هذا المخاض ، أي الحفاظ على واحترام التعدد الفكري داخل الحزب الواحد .

– محمد زرنين:

أشكر اتحاد كتاب المغرب على إتاحته لنا هذه الفرصة . وبالنسبة لي وأنا أنصت إلى الأوراق المقدمة ، سجلت مجموعة من الملاحظات بمثابة تفاعل مع ما كنت أنصت إليه . طبعا هذا التفاعل على خلفية متابعة ما وقع . ما قيل الآن ، وما كُتب أثناء الانتخابات وما بعدها أعطيه عنواناً مؤقتا **هو موت السياسة وضرورة سياسة أخرى** . أنظم النقط حسب التسلسل الذي اقترحه الأستاذ عقار في البداية من أجل التحكم في الوقت أكثر ؛ فبالنسبة للنقطة الأولى المتعلقة بالعودة إلى المنهجية الديموقراطية ، أظن أن هناك نقطة أساسية لم يتم التركيز عليها والإلحاح عليها بالقوة الكافية وهي بيداغوجية الشكل . ففقهاء القانون ومنظور الفلسفة السياسية لم يكونوا يتحدثون عبثا عندما كانوا يتوقفون مطولا عند ضرورات الشكل . وأظن أنه على هذا المستوى يمكن اعتبار هذا القرار مكسبا ، علما أن العبرة بالمآل ، لأن هناك الزمن ، فهذا القرار اتُّخذ في الحاضر ، ولكن يحكم عليه بمستقبله . هذه نقطة مهمة . لماذا الشكل؟ لأن الشكل يَلزم ويربي الإرادة ، يمنح المنهجية الديموقراطية إطارها المتعاقَد عليه ، ومن هنا فهذه النقطة جد مهمة ويجب الانتباه إليها .

النقطة الثانية هي ما مآل الممارسة السياسية في سياق دستور غير معدَّل؟ طبعا دستور غير معدل ، يعني أنه ، كما تذهب إلى ذلك الأستاذة رقية المصدق وغيرها من الباحثين ، هناك الضمني والمصرح به ، وعادة ما تكون اللعبة ليس في ما هو مصرح به ، ولكن في ما هو ضمني ، بل ما لم يُقل وما لم يكتب ، وله ربما نفس أهمية أو أكثر مما يقال ومما يكتب وما يصرح به . تعديل الدستور هو توطين المسؤولية ، هو البحث لها عن وطن . المغرب وطن ، نعم ، ولكن تعديل الدستور هو توطين المسؤولية في الهيكل التنظيمي للدولة . هذه المسؤولية تطرح دمقرطة القرار ، ودمقرطة القرار تعطينا خريطة السلط ، والسلط المضادة .

النقطة الثالثة تتعلق بمسؤولية الحكومة . طبعا هناك عبارة جميلة قيلت هي تهريب التسيير ، وبالرغم من أنها عبارة جميلة وتغري ، أعوضها بجملة بديلة ، هي (قتل أو اغتيال

السياسة)، قتل التسييس والعمل من ثمة على تعطيل أو الحدّ من مسؤولية المجتمع. من منظور تاريخي وأنتربولوجي أتساءل، لماذا كانت أشكال الفاعلية التاريخية كما تجسدت في المجتمع المغربي، تتجسد طبعا في السلاطين وأيضا في أولياء الله الصالحين؟ أظن أن المسؤول هو نوع من أولياء الصالح العام. كتبت هذا وأنا أفكر في تجربة التناوب سنة 1998، ولكن أظن أن الولي الصالح عندما يموت تبنى على ضريحه قبة، وأن ولي الصالح العام ينبغي أن يراه الناس، أن يَرَوْه كيف يأكل، وكيف يعيش، وكيف يفكر، وكيف يكون "مع". طبعا هذه رؤوس أقلام متسرعة لكي لا أطيل، لكنها ذات فائدة في التحليل.

إن التخليق هو نوع من شاعرية الممارسة، هو تجديد الممارسة الاجتماعية ونوع من التوطين الممكن لما هو ممكن، ولما هو في المتناول "على قد الحال"؛ لأننا عندما ننظر إلى سير الفاعلين التاريخيين الكبار سنجد أنهم بموارد محدودة، كانوا يصنعون قراراً؛ لأنهم كانوا متصالحين ويتصالحون مع الموارد والوسائل، وكانوا يكيفونها مع الغايات. وهذه نقطة لا يتم التفكير فيها بالرغم من أنها حساسة بالنسبة للمجتمع المغربي. لكن، هناك مؤشرات، كهذا الميل المتصاعد لتنظيمات الزاوية ولتنظيمات العمل الخيري، وكأن هناك تنظيمات "تتسيف" وتتقنع، أي تدخل إلى الكيان من خلال مجموعة من الأعمال والخدمات.

بالنسبة لوضعية العمل الحزبي، ففي ما يتعلق بالهيكل التنظيمي للحزب، عندما نتابع الوقائع الملموسة اليومية من أفواه المناضلين المنتمين من داخل التنظيمات، فإن الهياكل التنظيمية للأحزاب، ليست بآليات للتدرب على تدبير الملفات والتسيير والاختيار، وإنما هي توابيت (جمع تابوت)، بينما الهيكل التنظيمي هو آلية حية. وهكذا بالنسبة لوضعية العمل الحزبي هناك مشكل ينبغي التفكير فيه، وهو كيف لا يكون الهيكل التنظيمي تابوتاً؛ هذه نقطة مهمة، لأن آلية التنظيم، هي آلية توطين الفعل محليا وجهويا. بهذا المعنى يمكن أن نقول، أليس في إنزال مترشحين في جهات بكاملها ذات ثقل تاريخي وحضاري، أو إنزال أفراد بعينهم، أليس فيه قتل للسياسة؟ عندما نقول ما العمل أمام تصاعد المحافظة والتقليد؟ أنا أتذكر جملة- لهيغل هذا الفيلسوف الذي يُعتبر عن خطأ فيلسوفاً بعيداً عن الواقع والملموس وما إلى ذلك- تقول "إنه عندما يتعلق الأمر بالتأثير في الناس، ليس هناك ألف طريق وطريق، بل هناك طريق وحيد هو البحث عنهم حيث هم". السياسة تدعي أو تريد أن تغير، والمطلب الأول هو أن تبحث عن الناس حيث هم؛ وحيث هنا ليست ظرف مكان فقط، بل هي ظرف زمان أيضا، زمان الممارسة. وأظن أن إحدى نتائج انتخابات

2007 هي أنها أبانت أن عناوين المستهدفين غير معروفة لدى من يدعي أنه يعرف الطريق والسير فيه لبلوغ الهدف. 2007 بصيغة من الصيغ هي تيه. لأنه لم تكن هناك عناوين. وهذه النتيجة تتفرع عنها نتائج على مستوى التنظيم الحزبي، وعلى مستوى البيداغوجيا، وعلى مستوى طريقة الكلام. الأستاذة بنمسعود قالت إنه أثناء الحملة لم تكن هناك حملة سياسية أبدا، لأن السياسة حوار، وهي صراع وهي حساب، وهذا الحساب قد يصيب وقد يخطىء؛ وأفلاطون كان يقول، لا يمكن أن تكون هناك ديموقراطية إذا لم تكن تعرف الحساب. لا تعرف الحساب بمعنى لا تعرف كيف تبقي ولا كيف تضيف ولا كيف تطرح أو تقسم. هذه ليست مسألة مجردة، ولكنها مسألة باللغة الطبيعية بالدارجة، بالأمازيغية، بالتوضيح، ببيان خاص، ببيان يعرف عناوين المستهدفين بالخطاب والممارسة والرأي. ويعرف حيث هم.

هذه أفكار سريعة. وما دمنا جئنا لنناقش الأوراق المقدمة فأنا أقول إنه بالنسبة للأستاذ المودن الذي قال إن المفاجأة الكبرى هي سقوط اليسار، سقوط رموز اليسار، أظن أن هناك ثلاث نقط يطرحها هذا الأمر. أولا التفكير في إغراء المشاركة في الحكم. أفاعيل الإغراء. مفعولات المشاركة في الحكم أو في التسيير وآثارها. ثانيا، هناك تراجع الفكر الاشتراكي في العالم، وهذا مشهود به، ولكن هناك فكر قوي على مستوى التفكير في التملكات المواطنة، هناك حركات عالمية في الفكر، ولكن لا نجد لها صدى في النقاشات الفكرية. علماء الاقتصاد والباحثون في الفكر السياسي في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، كانوا يتكلمون في مجموعة من الأمور، الآن نجد نوعا من الجبن على مستوى التدخل في المجال العمومي وفي التحليل. وأظن أن مشكل الاشتراكية يطرح مشكلة التملكات وإعادة صياغتها. أما مسألة المحافظة والهوية فأعتقد أن مراجعة الموقف من الدين هي مسألة لابد فيها من جرأة، وهنا بالنسبة لمظاهر الورطة التي تحدث عنها الأستاذ كمال، سأعطي مثالا تكميليا، مظاهر الورطة هي إعداد التراب. أنا أظن أنّه أحد مكامن الخلل، كيف لا يكون هناك تفكير في هذا الاتجاه؟ والمختبر الحقيقي لمفهوم وحدة الدولة هو إعداد التراب الوطني. نجد من بين أهم القرارات المهيكلة للمجال الوطني: توطين الاستثمارات، ثانيا سياسة المكاتب العمومية، الكهرباء والسكك الحديدية والماء الصالح للشرب، وهذه لوبيات، ومراكز قوى تشهد على أن الدولة لم تحقق وحدتها على الأقل في مستوى مفهوم إعداد التراب الوطني، وكان ينبغي لليسار ولمفكري اليسار أن

يأخذوا موقفا صريحا من هذه المسألة، على أن يكون مُلزما على مستوى الالتزامات الحكومية، وهو ما يعني العمل ونشدان وحدة مفهوم الدولة.

ثمة مشكل آخر توقف عنده الأستاذ بنسعيد، وهو المغادرة الطوعية للجيل، وهنا أعتقد أن هناك أجيالاً أكلت ما يكفي أبناءها، وأن التصالح مع التاريخ، ومع المبادرة التاريخية، أو التصالح فقط مع ما تبقى مما هو ممكن، هو أن تغادر وتترك الأبناء يتنفسون، وتقرّ بأن لهم الحق في الخطأ، وفي أن يتعلموا التدبير وأن يتعودوا على تحمل المسؤولية بدون أية وصاية. والخلافة هنا، هي خلافة تعلم التدبير، وليس خلافة الابن للأب، لأن هذه الأخيرة ستجعلنا في نفس النواة، التي هي خلافة الخلفاء للرسول والتي أعطتنا الفتنة وبإمكان خلافة الأبناء للآباء أن تعطينا الفتنة.

سأنهي حديثي بفكرة هي "دابا 2007"، إن الماركتيتغ هو عدو الصيرورة. والوعي التاريخي "دابا" تنقلب بسرعة إلى ماض. ولكن هناك ماض وهناك مستقبل (دابا 2007) قتلت الصيرورة وانتصرت للملصق، "بحركة بسيطة تقرر مصيرك"، بصندوق من زجاج ولكن نعرف أن العلاقات هي أصعب وأكبر من أن تستوعبها شفافية الزجاج.

– محمد بوخزار:

على كل حال أنا عندي مجموعة من الملاحظات البسيطة فقط، لأن ما ينفع في مثل هذا المقام هو التسلح والتزود بالسوسيولوجيا الانتخابية التي أشار إليها الأستاذ المودن، وأنا معلوماتي بسيطة جدا في السوسيولوجيا الانتخابية، ولذلك أتساءل حقّاً هل توجد سوسيولوجيا سياسية مقارنة؟ لماذا هذا السؤال؟ لأنني أعتبر من وجهة نظر صحفي، أن ما وقع في المغرب ليس كارثة. صحيح أن المشهد العام يبدو في ظاهره سورياليا ولاعقلانيا؛ والواقع أن دولا عربية مثلنا تدعي أنها دخلت الطور الديموقراطي تجري فيها الأوضاع بأسوأ مما وقع عندنا، فمثلا في الجزائر، نسبة المشاركة كانت هي 31%، إذا صحت معطيات وزارة الداخلية؛ كما نتساءل هل صحيحة أيضا معطيات وزارة الداخلية في المغرب، هل صحيح فعلا أن 37% من المغاربة صوتوا خلال انتخابات 7 شتنبر 2007؟ أعتقد أن النسبة كانت أقل بكثير، ثم يجب أن نتساءل عن نسبة تصويت المدن لأن السياسة تجري في المدن، فالبادية ليست مجالا للسياسة. هذه نقطة أولى، أما النقطة الثانية، فأعتقد أنه أمام هذا الوضع المثير والغريب المدهش بمعنى من المعاني، يجب أن نتخلى عن بعض المفاهيم التقليدية، فمثلا

القول بأن هذا التصويت محافظ ، فأنا أتساءل هل يوجد في المغرب فكر محافظ ، فالمحافظة هي منظومة فلسفية ، ولديها وجهة نظر في الزواج ، في الفن ، في الموسيقى ، في كرة القدم ، في الميتافيزيقيا ، تماما كما أتساءل هل يوجد فكر ليبرالي في المغرب ، ما الفرق بين ليبرالية الاتحاد الدستوري وليبرالية التجمع الوطني للأحرار ، هذا إذا لم نقل إنه حتى الاتحاد الاشتراكي نفسه ينحو نحو الليبرالية .

أريد أن أقف أيضا عند مسؤولية الدولة وغيرها ، هنا أعتقد أن المسؤولية متقاسمة ، هناك مسؤولية الدولة ومسؤولية الأحزاب ومسؤولية المجتمع المدني ، وأنا أرى أن مسؤولية المجتمع المدني هي مسؤولية خطيرة . لماذا ظللنا نلح على مسألة الملاحظين الدوليين ، هل كنا في حرب أهلية ، أم هل خرجنا من صراعات عرقية حتى نقبل بملاحظين دوليين؟ ما فائدتهم؟ إن فائدة القبول بوجودهم هي أن البلد ليس ناضجا ديموقراطيا ، وليس في مستوى الديموقراطية ، والمشكل أنهم لم يجدوا ما يلاحظون مع نسبة المشاركة المتدنية . إذن فمسؤولية الدولة تجلت في سلبية مطلقة وغامضة ومشكوك فيها ، بحيث ساوت بين الجميع ، لا فرق بين حزب تأسس قبل فترة قصيرة ، وبين حزب وقع على وثيقة المطالبة بالاستقلال . لاماب تستجوب الجميع ، التلفزة أيضا . شخصيا يبدو لي أننا في مجتمع أو في نظام يسيره الهواة ، ليس لنا نهائيا رجال سياسة . الديموقراطية ليست هي التزييف contrefaçon . الأحزاب عندنا أصبحت مثل البضائع الصينية ، في كل مرة هناك منتوج جديد . لهذا لابد من تقنين ، فهنا تحديدا يطرح تراجع الأحزاب ، وهو تراجع خطير مع قبولها بأنصاف الحلول ، وهذا يذكرني بالكلمة التاريخية للمهدي بنبركة أن من الأخطاء القاتلة القبول بأنصاف الحلول ، بينما لو تشبث الاتحاد الاشتراكي والقوى الديموقراطية بالحلول بدل أنصافها أو أشباهها ، لكان الأمر خلاف ذلك .

هناك سؤال أيضا ، نعم نحن نتناقش ، وأتمنى أن ينتقل النقاش إلى الشارع ، ولكن هل يمكن للمحلل السياسي في المغرب الآن أن يقول لنا كيف سيكون المشهد الانتخابي المقبل حيث هناك الانتخابات البلدية سنة 2009 ، هل ستتغير الصورة؟ ذلك ، انطلاقا من فرضية الأستاذ العمراني الذي يقول إن القرب أصبح هو الأداة وكذلك شبكة العلاقات . فهل ستتغير الصورة أم سنتفاجأ بوحش انتخابي آخر؟ ثم هناك مسألة أخرى ، في صيغة سؤال وتنبيه موجه للطبقة السياسية في مجملها ، فقبل انتخابات مجلس النواب كانت هناك انتخابات مجلس المستشارين ، وظهر جليا أن الأمور لا تسير في الطريق الصحيح ، فلماذا

لم نستخلص ما يلزم من العبَر؟

هناك ملاحظة أريد أن أختم بها، وتتعلق بالتعديلات الدستورية، إذ أتساءل من وجهة نظر عادية هل يمكن أن تكون هناك تعديلات دستورية؟ بالأمس فقط كنت أتحدث مع قيادي بارز في حزب لا حاجة إلى ذكره، فقلت له هل تعتقد أن هذه الولاية التشريعية ستدوم خمس سنوات، فقال ولم لا؟ فقلت هل يمكن اعتبار هذه الفترة فترة انتقالية تتم بموازاتها التعديلات الدستورية على أساس أن هذه الخريطة الانتخابية على علاتها وتناقضها فهي تعطي مؤشرات، قد تكون مضللة وقد تكون دالة؟ فأجابني، إن التعديلات الدستورية لن تُمنح، بل يجب أن تُنتزع، ولن تنتزعها إلا أحزاب قوية، وما دامت الأحزاب غير قوية وذات عجز بنيوي، أتساءل ما جدوى التعديلات الدستورية، فانتخابات شتنبر كشفت أن المشكل ليس مشكلا قانونيا، بل هو مشكل سياسي عميق، ويجب أن نحلله بما يلزم من الحذر.

- سليم رضوان:

انطلاقا من المداخلات لدي تساؤل: هل الانتخابات الأخيرة تعتبر حدثا يمكن أن يناقش؟ أظن أن الجهات الخارجية بصفة عامة كانت ستعتبرها حدثا لو فاز حزب العدالة والتنمية بالمرتبة الأولى. فالذي قرأ الجرائد الدولية ويشاهد القنوات التلفزيونية بما فيها الفرنسية وغيرها، سيجد نفس ما حدث سنة 1990 في الجزائر مع صعود جبهة الإنقاذ، فهل جبهة التحرير الجزائرية لم تقدم أي شيء للشعب الجزائري حتى يعاقبها انتخابياً؟ إن ما أعطته جبهة التحرير من مكتسبات اجتماعية للشعب الجزائري سواء في البعد أو في القرب مهم: الشغل، المنح، العلاج، السكن، الحماية الاجتماعية، ومع ذلك صعدت جبهة الإنقاذ التي لم يكن لديها أي امتداد. ونفس الشيء بالنسبة للفلسطينيين، حيث وظف ياسر عرفات قبل وفاته 150000 موظف لا يقومون بأي شيء. ومع ذلك صوتوا ضد فتح، مع أنهم كانوا يتقاضون 200 أو 300 دولار دون أن يقوموا بأي عمل. إذن المشكل ليس في القرب أو في البعد. أعتقد أن هناك عوامل أخرى.

بالنسبة للخارج إما أن ينجح الأصوليون أو لا يعتبر هذا حدثًا، وبالتالي فمباشرة بعد انتهاء الانتخابات لم تعد لا جريدة لوموند ولا قناة الجزيرة أو أي صحيفة أخرى تتحدث عن هذه الانتخابات، إن ما حدث هو بالنسبة لها لا حدث؛ ولذلك كان ضروريا حضور

مراقبين دوليين. مصر مثلا، واجهت الإخوان المسلمين بالدولة أي بالجيش والطبقة العاملة، ونفس الشيء في الجزائر؛ فاللذين حاربوا الأصوليين ليسوا هم المثقفون ولا الجامعات، وقد لاحظنا كيف تسقط الجامعات في أيدي الأصوليين. أما الطبقات الوسطى فهي طبقات مترددة خائفة، هي التي تؤدي الثمن غاليا في النهاية ولكنها تبقى في نظر المحللين طبقات جبانة. جميع القيادات النقابية في الجزائر تم قتلها وتصفيتها، لأن عبد الحق بنحمودة هو الذي خرج لكي يعلن مواجهة الأصولية والانتصار للجمهورية، وكذلك الأمر بالنسبة لتونس. إن أغلب الدول العربية التي أجريت فيها الانتخابات، إما آلت فيها الأغلبية للأصوليين، وإما واجهتها الدولة بالتزوير والقمع. ولم يكن هناك أي خيار آخر أبدا، وقد عشت هذه التجربة على مدى 15 سنة وأيضا أعرفها في جميع البلدان العربية على حقيقتها. وكذلك في العمل النقابي، فالمثقفون والسياسيون بعيدون عن العمل النقابي، ليس من حقي أن أتدخل في مناقشة حزب أعتز به هو الاتحاد الاشتراكي، ولكن كأي حزب عمالي يجب أن تكون له قاعدة عمالية أو لا يكون، وهذه مسألة واضحة، وذلك على غرار جميع الأحزاب الاشتراكية في العالم، وهذه القاعدة هم المصوتون عليه، لأنهم هم الملتزمون فعلا، أما الأساتذة والمعلمون فهؤلاء لا يعول عليهم، لذلك فإن الحزب الاشتراكي أو العمالي هو الذي تكون له قاعدة عمالية، ومن الأخطاء الكبيرة القاتلة التي ارتكبها السي عبد الرحمان اليوسفي أنه لم يول أي اهتمام ولا أي عناية للأوضاع الاجتماعية للعمال، في حين كانت هناك دائما زيادات 10 أو 5 في المائة سنويا، وأيضا حماية اجتماعية واهتمام بالمرأة العاملة وغير ذلك، وكما نعرف فقطاع النسيج يشغل 800 ألف عاملة، وعندما كنت مسؤولا في الاتحاد المغربي للشغل كان عدد النساء العاملات في النسيج اللواتي يشاركن في استعراضات فاتح ماي يصل إلى 30 ألف عاملة فقط في الرباط وسلا، وهؤلاء يعشن أوضاعا مزرية. إذن فالقاعدة العمالية هي الأساس والمشكلون لهذه القاعدة هم الذين يدفعون، فعلا، عائلاتهم إلى التصويت. أما المعلم والأستاذ فهو نفسه لا يصوت، فأحرى أن يأتي بخمسة أو ستة أصوات أخرى. هذا جانب، أما الجانب الثاني فيتعلق بالنتائج، وأنا أرى أنها نتائج عادية تعكس تعددية المجتمع، ولو كان الأمر يتعلق بمواجهة الاتحاد الاشتراكي أو اليسار للأصوليين لفاز الأصوليون بدون شك. فهناك غواية أصولية في المجتمع؛ لذلك، فإن ما أوقف هؤلاء هو بالضبط هذه التعددية الحزبية الموجودة في البوادي، وفي الحركة، وفي التجمع، الذين لهم زبناء ولهم أتباع ولديهم من يصوت

عليهم، فالمسألة مسألة مصالح وخدمات متبادلة، أو كما قال الأستاذ العمراني شبكات علائقية مترسخة منذ تأسيس هذه الأحزاب.

بالنسبة لضعف المشاركة، لا أدري بماذا يتعلق الأمر تحديدا، ولكن ما أعرفه هو أنه بعد 16 ماي 2003 بدأ الأصوليون يشكون في أنفسهم. إن الذين يعرفون الأصوليين قبل 16 ماي، وقد عشنا هذا في جمعية مساندة الكفاح الفلسطيني ولجنة التضامن مع العراق، حيث لاحظنا كيف كانوا مسيطرين على المجتمع المغربي بكامله، ولكن 16 ماي خلقت نوعا من الشك لدى الذين يصوتون أو لدى الناس العاديين بشكل عام، وكان هذا عاملا مهما، ولذلك فضحايا 16 ماي يشبهون ضحايا سنوات الرصاص، قد لعبوا دوراً كبيراً في ما يتعلق بإنقاذ المغرب من الأصولية.

بالنسبة للمستقبل، أظن الآن مع وجود ظاهرة المستقلين في الرحامنة التي سجلت فيها نسبة تصويت بلغت 67 في المائة، وحصلت لائحتهم على أكثر من 40 ألف صوت، إنها ظاهرة فريدة في المغرب، وأظن أنها قد تعمم على جميع مناطق المغرب.

التناوب سيكون بين من ومن؟ إذا كانت الكتلة مع الأغلبية التي لديها ستظل دائما في الحكم فلن يكون هناك تناوب، إما أن تستطيع الكتلة أن تحكم بمفردها وأن تقابلها أحزاب أخرى، أو أن يكون هناك حزب آخر قادر على التعبير على التطلعات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي لم تستطع الأحزاب أن تقوم بها، وهذا رأي سائد حتى داخل اليسار، بمعنى أن النقاش يجري الآن داخل مختلف الأوساط، وليس داخل أوساط معينة أو محددة، إذن يمكن أن تكون هناك كتلة جديدة أو تجمع جديد قادر على التعبير عن المرحلة المقبلة.

وهذا أيضا احتمال تظهره نتائج لائحة المستقلين في الرحامنة والتي ربما لن تظل معزولة مستقبلا.

أظن أن هذا هو التوجه. وأعتقد أن الشعب لا تهمه مسألة الأصلاحات الدستورية، هذا دور السياسيين الذين يستطيعون أن يقوموا في مرحلة معينة بالتعبير عن تطلعات المرحلة وانتظاراتها. والمرحلة المقبلة هي مرحلة الحكم الذاتي في الصحراء وهذه مسألة أساسية مهمة، أي تفكير مجدَّد في الوحدة الترابية للمغرب، ثم هناك التحديات الاجتماعية والاقتصادية المطروحة، وهي أيضا تحديات ما بعد المصالحة، وما بعد سنوات الرصاص. ما

هو المجتمع الديموقراطي الذي سيبنى بناء على هذه المرحلة، وبناء أيضا ويجب أن نقولها بصراحة، على العهد الجديد؟ فهناك ملك جديد، وهو يريد أن يبني مجداً جديدا ورؤية جديدة وتحولاً جديداً في المجتمع، وهناك فئات واسعة من الشعب المغربي تشاركهُ هذا الرأي، ومن ضمنهم مناضلون، وفيهم أيضا فئات من اليسار. أظن أن هذا أيضا من المهام المقبلة.

- عبد الحميد عقار:

إن النسبة المرتفعة للعزوف عن التصويت ولبطائق التصويت الملغاة، رسالةٌ موجهة ليس للأحزاب فقط؛ بل لها، وللملك، وللعمل السياسي، ولمؤسسات دستورية يتم تجاوزها أو الحد من فعاليتها. مضمون الرسالة يمكن قراءته من حيث هو:

- احتجاج على تهميش الحكومة والبرلمان وضعف دورهما؛

- ورفض لتركيز السلطات والعودة إلى احتكارها والاستئثار بها من المؤسسة الملكية وحدها؛

- نقد قوي للأحزاب السياسية، والديموقراطية منها بالأساس، لما أظهرته من عدم القدرة على الدفاع عن دورها وموقعها في النسيج المجتمعي، وفي القرار السياسي والاقتصادي، وانعكاس ذلك على أداء الحكومة والبرلمان ووظائفهما؛ ولتراجع هذه الأحزاب في خطاباتها عن المطالبة باستكمال الإصلاحات الدستورية والاقتصادية الضرورية لتقدم المجتمع، وتكافؤ الفرص، ولتحقيق العدل والمساواة على أساس التوزيع العادل للسلطات وللثروات.

- إن القضايا الأساسية تعالج في الغالب الأعم خارج قبة البرلمان ودائرة الحكومة، والمجلس الوزاري لا تكاد أشغاله تتجاوز المصادقة على القوانين والمشاريع، بينما المطلوب هو أن يصبح فضاء منتظما لمناقشة وإعداد الاختيارات الوطنية والسياسات العمومية، أتعلقت بالداخل أم بالخارج.

- في سبيل ذلك، وحرصا على ديموقراطية فعالة في إطار ملكية برلمانية تشاركية مواطنة، كان العزوف عن التصويت مرتفع النسبة (63%)، وكان التصويت مرتفعا كذلك، بالإلغاء لحد مقلق.

- ادريس بنسعيد:

لقد أعطاني تدخل الصديق عبد الصمد الديالمي فرصة لتوضيح فكرة أساسية تم فهمها على غير وجهها، وسيكون مشكلا كبيراً وصولها إلى المتلقي على هذا النحو، أي عكس ما أردت قوله. بالنسبة لي عندما أميز بين ما هو سياسي وما هو فوق السياسة لا أتحدث عن التحليل الذي يقول إن هناك سياسة وهناك الملك أو أن المؤسسة الملكية فوق السياسة. لا، على العكس تماما، ما أريد قوله، هو أننا نعيش في انتقال أساسي يجب التفكير فيه، وهو أن هامش الملك احتل رقعة العمل السياسي في المغرب، لقد أصبح الملك فاعلاً وفي خطابه الأخير تحدث عن الملكية المواطنة، الملكية فاعلة بوصفها طرفاً، وقد أعطيت بعض الأمثلة، بمعنى أن الهامش المتبقي في تلك الرقعة السياسية أصبح ضيقاً جدا. إذن نحن في نوع من الانتقال حيث الممارسة السياسية في طور التحول أو هي تحولت فعلا إلى نظام سياسي. وهذا بالنسبة لي معطى أساسي جدا في الخريطة السياسية أو الرقعة السياسية، وما يترتب عنه من إصلاح دستوري أو غيره هو تفاصيل، إذا لم نناقش أو نحسم هذه القضية. سأعطى مثالا يحمل دلالة كبيرة، وهو تنقلات الملك عبر التراب الوطني، فقد جعلتنا بالتعبير القديم أمام أنواع من الحركة الجديدة، ولم يسبق أن كان هذا التنقل بالكثافة أو الرمزية التي كانت له أثناء الحملة الانتخابية، بمعنى أن نقاش الستينات حول المجالات الخاصة بين الحسن الثاني والحركة الوطنية تمَّ تجاوزه، فالملك لم يعد فوق مجال السياسة، ولكنه احتل هذا المجال ولم يبق للسياسي سوى هوامش صغيرة، والحملة الانتخابية تمت، تحديداً، في هذا السياق. إذن فنحن الآن في طور الانتقال من ممارسة إلى نظام مع ما يترتب عن ذلك من مقتضيات.

الأمر الآخر، وهو من مشمولات تضييق هذه الرقعة السياسية، ويتعلق بتحالفات الأغلبية الحكومية الممكنة فنتيجة لهذا الضعف قامت الأغلبية على توافقات. وكان أول رد فعل هو تجمع أشتات الحركة الشعبية بما في ذلك حركة عرشان، وبالتالي فالذي سيشارك في التحالف الحكومي سيكون عليه الحكم مع عرشان، أو مع ممثل حزبه بما يقتضي ذلك من نتائج داخل وخارج الأحزاب.

- عبد الحي المودن:

على المثقف في إطار القيام بدوره، أن يخضع خطابه للتفكير والتحليل. ربما نحن نعيش الآن بيداغوجيا الحداثة السياسية التي تتضمن من بين ما تتضمنه الهزيمة السياسية. هذه الهزيمة الانتخابية التي يعيشها اليسار بشكل أكبر، ليس لها سابق، وجاءت من صناديق الاقتراع، وبالتالي يجب أن يكون هناك تفكير في كيفية التعامل معها. كيف يتعامل المثقف وكيف يتعامل اليسار مع هذه الهزيمة؟ يبدو لي أن هناك في هذا الأمر أيضا جانباً غير عقلاني، أي جانب عاطفي يؤدي إلى تحليلات كثيرة، وأظن أنه بعد هذه المرحلة العاطفية ستكون هناك مرحلة أكثر هدوءاً، عندئذ سيتم طرح بعض القضايا التي نطرحها الآن، لكن لا نطرحها كتساؤلات بل كأجوبة، ومن بينها التعديل الدستوري. شخصيا أنا مع التعديل الدستوري، ولكن كيف يمكن أن تُبرر الجهة التي كانت تطالب بهذا التعديل والتي انهزمت في الانتخابات مطالبتها بالتعديل الدستوري، بينما عندما كانت هي الأقوى في الأغلبية الحكومية وفي البرلمان لم تكن تتحدث عن هذا الموضوع؟ خاصة أنه لا ينبغي اعتبار التعديل الدستوري اجتهادا فكريا، بل مشروعا ستقدمه النخبة نفسها للناس الذين صوتوا في هذه الانتخابات بما وبمَنْ فيهم الشبكات والمتغيبون عن التصويت وسكان البادية؛ هذا المشروع هو الذي سيقدم لنفس الكتلة الناخبة، إضافة إلى الجيش، نحن لا نتكلم عن مشروع يكتبه المثقفون ويتفقون عليه، بل عن مشروع سياسي ستقدمه النخبة السياسية.

ARCHIVE

المسألة الأخرى المرتبطة بهذا الموضوع هي عقلنة التعديل الدستوري كيف وعلى أي أساس؟ الآن بدأت تظهر بعد هزيمة الاتحاد الاشتراكي مجموعة من التأويلات المتناقضة، أو هي تبدو كذلك في عمقها، وينبغي قبل الدفع بها حسمها فكريا، وهنا يكمن دور المثقف. من بين هذه التأويلات، هل عرقل الملك مشاريع سياسية واقتصادية كانت لدى الاتحاد الاشتراكي؟ إذا كانت هذه المشاريع موجودة فعلا فما هي؟ وما هي الأدوات التي وظفها الملك لعرقلتها؟. ونجد أيضا وهذا يتم ترويجه في الكواليس حديثاً عن أن هذه المشاريع التي ينجزها الملك كانت في الأصل مشاريع للأحزاب، ولكن الملك استحوذ عليها، إن هذا الأمر يحتاج إلى توثيق. مثلا هل كان مشروع ميناء طنجة المتوسط، أو مشروع تهيئة ضفتي أبي رقراق، أو بناء الطرق السيارة، أو رفع عدد السياح إلى 10 ملايين سائح سنويا لدى حزب أو لدى أحزاب معينة؟ أكثر من ذلك، هذه المشاريع التي قدمتها الأحزاب الآن في برامجها الانتخابية لشتنبر 2007، ماذا يمكن أن نقول بخصوصها بعد أن تبدأ الحكومة

عملها؟ هذه هي مشاريع الأحزاب التي استحوذ عليها الملك ! إذن هذه العلاقة بين الملك والأحزاب يجب أن نخضعها للتحليل، ليس فقط التحليل النظري ولكن التحليل العملي.

ختاما، أود القول، إن الإشكال المطروح هو أن لدينا ملكية قوية، ولها تصورها الخاص، مفاده أن محمد السادس لا يريد أن يكون آخر ملك علوي، تماما مثل ما كان الشأن لدى الحسن الثاني، وبالتالي فهو يفكر على بعد 25 أو 30 سنة من الآن، ويفكر كيف سيقدم سلطته للحسن الثالث، فإذن إذا كان هو يفكر بهذه الطريقة، فكيف تفكر الأحزاب؟

هو يفكر باستراتيجية، بينما المجهود الذي نبذله نحن حاليا، كمثقفين وسياسيين، يدور فقط حول كيف نتمكن من الدخول إلى الحكومة الآن أو كيف ننجح في انتخابات 2012. فهل للأحزاب تصور بعيد الأمد، هذا يعني من بين ما يعنيه، أن الملك ربما ينصت للمجتمع أكثر، وإذا كان هو يقوم بهذه الحملات، ما هي الحملات التي قام بها الوزراء؟ ومن هم الوزراء الذين كانوا يدافعون عن مشاريعهم بنفس الحماس الذي يدافع به الملك عن مشاريعه؟ سأذهب أبعد من ذلك، لدي انتقاد للمثقفين، وحتى لاتحاد كتاب المغرب، بخصوص غياب صوت الاتحاد من الإذاعة ومن التلفزيون، ليس عليه فقط أن ينتظر من الإذاعة أو من التلفزة أن تستدعيانه، بل ما الذي يمنع اتحاد كتاب المغرب أن يطلق إذاعته الخاصة. وما الذي يمنعه من تنظيم وقفة احتجاجية أمام التلفزيون ليقول إنه عوض هذه السخافات التي تعرض فيه يمكن إعداد حصة يظهر فيها المثقفون ومخصصة لهم.

باختصار، وأظن أني قلت هذا في إحدى الجلسات وأثارت ردود فعل سلبية من قبل اليساريين، إذا كانت عندنا ملكية قوية ولديها مشاريع فهناك احتمالان فقط، إما أن نعمل ما أمكن لتوقيف هذه الملكية وعرقلة مشاريعها، لأن لدينا مشاريع أفضل من مشاريعها وهنا يتوجب أن نعلن عن هذه المشاريع وندافع عنها. وهذا أمر غير ممكن لأن الملك لديه مشاريع أقوى من جميع الأحزاب من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار. والاحتمال الثاني هو التسليم بأن لدى الملك مشاريع، وليس هناك أي وسيلة دستورية يمكن بها توقيف هذا الأمر، وبالتالي يجب العمل على منافسته.

- **رشيدة بنمسعود:**

الملك لديه مشاريع لأنه يمتلك ميزانيات، مؤسسة الحسن الثاني ومؤسسة محمد الخامس ومؤسسات أخرى وهي ميزانيات غير خاضعة للميزانيات الحكومية وغير خاضعة للمراقبة البرلمانية والتشريعية، وهذه قضايا ينبغي طرحها للنقاش.

- **عبد الحي المودن:**

أنا لا أقول إن علينا الدفاع عن الوضع الحالي ليبقى على حاله. ولكن من الناحية الاستراتيجية إذا أردت الدفاع عن مشروع مغاير ومنافس، فينبغي أن تدخل في حلبة المنافسة معه، على أساس أن تأتي بمشاريع، وتقول إن لدي مشاريع لكن القصر يستحوذ على تمويلها بالرغم من أنها أفضل من مشاريع القصر.

- **أنور المرتجي:**

الاتحاد الاشتراكي طرح مشروع إيجاد العمل لمليونين من المغاربة، وهذا مشروع كبير من الناحية الشكلية مادمت تتحدث بمنطق شكلي نوعا ما.

- **عبد الحي المودن:**

براغماتي وليس شكليا

- **أنور المرتجي:**

مثلا أقول لك ميناء طنجة هو في الواقع مشروع لعبد الرحمان اليوسفي ولكن هل له الصلاحية أن يعبر بوصفه وزيراً أول عن تنافس ديمقراطي مع الملك ويقول له، لا إن هذا المشروع هو مشروعي. إن هذا المشروع هو مشروع الجميع مثل ما كان الاستقلال الذي حصل عليه المغرب في 1956. لكن السؤال هو هل بإمكان الحكومة أن تنفذه؟ وهذا السؤال يطرح على الحكومة، وليس على الملك لأن الملك إذا أراد تنفيذه فسيفعل.

- عبد الحي المودن:

سأوضح فكرتي من جديد، أساس هذه المسألة كلها هو كيف ستقنع المجتمع بمشروع ما، بهذا الشكل الذي تتحدث به عن أن مشروع ميناء طنجة كان مشروع عبد الرحمان اليوسفي، فمن قام بتوثيق ذلك. هناك اليوم جرائد مستقلة نعتبرها تعمل على تغذية فكرة ضعف الأحزاب، ولكنها تنتقد وتتحدث عن مداخيل الملك، في وقت لا يستطيع فيه أقوى الأحزاب في المغرب توثيق مشروع يقول إنه كان صاحبه واستحوذ عليه الملك.

- محمد بو خزار:

هناك مثال آخر هو الخطة الوطنية لإدماج المرأة في التنمية الذي اقترحه اليسار المغربي في الأصل وتم احتواؤه وإلغاؤه، واللجوء بدل الصراع والتنافس إلى التحكيم الملكي.

- عبد الحي المودن:

لكي أختم ، أقول إن التجارب العالمية لإضعاف السلطة الملكية أو لتحديد سلطات الملك، كما في أوروبا مثلا، لم تأت نتيجة لتصورات ذهنية، ولكن نتيجة لكيفية التفعيل العملي وكيفية إقناع الناس بها، لذلك أعتقد أنه إذا كان الملك قد عين وزيراً أول من الأغلبية، فينبغي على الجميع دون استثناء أن يدافع عن هذا الأمر كمبدأ، وكيفما كان الحال في المستقبل، فهذا عرفٌ أقره الملك، ويجب أن يوثق في الدستور، وهو مكسب. ثم إن الإصلاح الدستوري لا يأتي بمجرد النزول إلى الناس وإفهامهم بأنه يجب تقنين سلطات الملك لأنها أمر غير مفهوم، بل يجب إقناعهم بحجم الخسارة التي حدثت نتيجة عدم تقنين سلطات الملك، والتوضيح لهم بأنه ها هي المشاريع التي كانت لدينا (كأحزاب) وأخذها الملك. ويكون لديك كل الحق، فهذا جزء من الصراع، من قبل كنتَ كسياسي أو كحزب سياسي تتصارع مع الملك لأنه كان يمنعك من الدخول إلى السلطة، ولدى اليسار والمعارضة عموما ثقافة طويلة في كيفية المجابهة من الخارج، والآن هناك لزوم لثقافة أخرى هي ثقافة المجابهة من الداخل، على أساس أن يكون الحكَم هو الانتخابات وليس اقتناعات مجموعة من المثقفين.

- كمال عبد اللطيف:

عندما طرحت في الملاحظات التي أبديتها في ورقتي موضوع حدود السلطة الملكية، وضعته في سياق محدد، فقد كنت أفترض أنه كان على الاتحاد الاشتراكي وأحزاب الكتلة في العشر سنوات الماضية أن تطالب بتحقيق خطوة جديدة في موضوع الإصلاح الدستوري، خاصة وأنه لم تنقطع المطالبة بالإصلاح الدستوري في أغلب التيارات اليسارية المغربية.

لقد بدا لي وأنا أتابع حركات مشهدنا السياسي أن كثيراً من المعطيات تحتاج باستمرار إلى المراجعة. صحيح أنني أكدت على أهمية مراجعة المؤسسات الحزبية، وذلك بالتوقف على وجه الخصوص أمام حزب الاتحاد الاشتراكي نظرا للوزن التاريخي والسياسي الذي ما فتئ يتمتع به في المجال السياسي المغربي، رغم مختلف مظاهر التمزق التي لحقته في السنوات الأخيرة، إلا أنني توقفت في الورقة ومن خلال إشارات سريعة أمام موضوع المؤسسة الملكية. أما الذين يتحدثون اليوم بحماس عن قوة أفعال هذه المؤسسة، فإنهم يغفلون أن نجاح الأداء السياسي في المغرب، أي نجاح الإصلاح يقتضي أفعالاً متوازنة من مختلف الأطراف التي نتصور أنها روافع فاعلة في الحقل السياسي المغربي.. أما نجاح طرف واحد على حساب أطراف أخرى فإنه يستدعي أفعالاً في المراجعة تقيم التوازنات الصانعة للنجاعة في الفعل السياسي، والمحققة لكلية الإصلاح وشموليته.

إن نجاح التحولات السياسية في المغرب واقترابها من عتبة الانتقال الديموقراطي المرغوب فيه من طرف الجميع، شأن جماعي، شأن لا يتحقق بتغييب أي طرف؛ ضمن هذا الأفق ننظر إلى مطلب الإصلاح الدستوري الهادف إلى ضمان توازن فعال بين مختلف السلط في بلادنا، والهادف في نفس الوقت إلى تعزيز أدوار مختلف المؤسسات ليتمكن الجميع، أي تتمكن مختلف فرق وأطراف العمل السياسي، في لحظة بنائها وتركيبها لمحصلة عملها السياسي خلال العشر سنوات الماضية من إبراز المكاسب لتحصينها وتطويرها، والتعثرات لتجاوزها؛ وذلك، كما حصل عند نهاية حكومة إدريس جطو من تقديم مختلف المكاسب باعتبار أن نجاحات الملك وأوراش الحكومة والقوانين التي تبلورها المؤسسة التشريعية تندرج مجتمعة ضمن أفق في الإصلاح لا أحد ينكر اليوم أهميته القصوى في بلادنا.

– عبد الحميد عقار:

ما يطرحه عبد الحي مودن وقبله إدريس بنسعيد وباقي التدخلات، ليس مرفوضاً بإطلاق وبالجملة. إنه في حاجة إلى تنْسيب. فهل الوقوف عند وصف واقع الحال كاف للتفسير وللتجاوز؟ قوة الملك، مثلُها مَثَلُ قوة باقي المؤسسات والهيآت، مرغوب فيها وضرورية، ولا يمكن تصور أدوار فاعلة وطلائعية وجرّئية للدولة من دون وجود هذه القوة في الحضور والممارسة والابتكار والقرب. ولكن، بالتكافؤ والتضافر؛ قوة الملك ينبغي أن تكون نابعة من قوة المؤسسات، كل المؤسسات، ومن شروط ذلك، نَزْع الطابع الشخصي عن الدولة. فقوة الملك لا ينبغي أن تقوم على إضعاف الأحزاب السياسية، ولا على تهميش المؤسسات المنبثقة عن الاستحقاقات الانتخابية الشفافة والنزيهة، ولا على إلغاء التقويم والمراقبة الدستورية والتشريعية للملك ولمحيطه، ودونما مسّ بحرمة الملك وما يلزم له من احترام. فالأمر لا يتعلق بالتنافس بين الأحزاب ولا بين البرلمان والحكومة من جهة، وبين المؤسّسة الملكية ومحيطها من جانب ثان. بدل ذلك، الحاجة ماسة إلى تشييد دولة القانون والحق والمؤسسات والمسؤولية في إطار تعاقدي تشاركي، يضمن التداول المشروع والنزيه على السلطة، واحترام مبدأ فصل السلط، وتوزيع مهامها بالعدل والمساواة والروح التشاركية. الملك قوي وفعال ويحكم مع الأغلبية البرلمانية والحكومة المنبثقة عنها، ومع المؤبسات الدستورية، وليس فوقها ولا خارجها.

فالمغرب في حاجة إلى تأهيل وتعزيز القطبية الحزبية، تمهيداً وتحضيراً لفرز أغلبية حزبية قطبية، متجانسة المرجعية والمشروع المجتمعي وأسس صياغة البرنامج الانتخابي والحكومي بعد ذلك. هذا التفكير يتقاسمه السياسيون والمثقفون والاقتصاديون والإعلاميون. هناك اليوم من هؤلاء ومعهم الحق، ومع الاحترام الواجب للملك، مَنْ يتحفَّظ على النفوذ المالي المتزايد للمؤسسة الملكية وتدخلها في حقل الاقتصاد والسياسة والثقافة، وهو ما يعوق النمو الطبيعي والتنافس الخلاّق القانوني والديموقراطي بالنسبة لتلك الحقول. الحوار والنقاش العمومي بعقلانية بصدد هذه القضايا هام وضروري لتصحيح الأوضاع في أفق السنوات الخمس الآتية. أما اتحاد كتاب المغرب فقد انخرط في حدود إمكاناته والوضع الثقافي المرتبك والمعقد بالمغرب، في عملية تثقيف وتنوير لها أهميتها دون أن تحقق كل مراميها. فبعض أبرز القضايا التي نناقشها الآن، أتيحَت لي ولباحثين ومثقفين شاركوا اتحاد كتاب المغرب برنامجه الثقافي عدة مناسبات لتوضيحها

بالتلفزة وبالصحافة وبالمحاضرات والعروض . من ذلك ، مسألة الحكم الذاتي وقبل أن يكون هناك تصور رائج ؛ مسألة التفكير في البوليزاريو باعتبارها حركة انفصالية بعيداً اللغة الخشبية القائمة على لغة الاتهام وتبادل الاتهام ؛ مسألة بُطْء الانتقال الديموقراطي بالمغرب وما يتهدده من احتمال نفور المواطنين واللامبالاة السياسية ؛ مسألة الملكية البرلمانية وضرورتها بالنسبة للمغرب . وكذلك سلطة المثقف تجاه سلطة الدولة والمجتمع . . . هذه قضايا كانت موضوع تحليل بيداغوجي وسياسي حازم ومتفتح ، فضلا عن فكرة ضرورة ترسيخ التعددية السياسية وحماية وتطوير التنوع الثقافي واللغوي باعتبارهما أفقاً لحاضر المغرب ومستقبله .

لذلك ، فالنقد والانتقاد ضرورة ثقافية وسياسية ، بها نقف على التعثُّرات ، وبها نقوم بالاستدراك ، وبها نبلور البدائل الوجيهة .

قصائد

نافذة

وفاء العمراني

طفلَةً
كَانَ لي في بَيْتِنَا الغَامِرِ
نَافِذَةٌ حُلْوَةٌ
مِنْهَا أرَى مِنْ بَعيد
بَحْراً وحَدِيقَةَ لَوْزٍ وَمَمَراً إلَى
سَمَاءٍ مِخْمَلِيَّةٍ . .

بقَلَقِ الرِّيحِ
وَلَهْفَةِ الْمَا وَرَاء
لَمْ أرْكُنْ للانْتِظَارِ

سَابَقْتُ زَمَنِي
إلى الْبَحْرِ وَالحَدِيقَةِ وَالمَمَرِّ
بَحْثاً عَنِ السَّمَاءِ
سَمَائِي . .

فِي الطَّرِيقِ الْمُغْبَرِّ
وَلُجِّ الْعَوَاصِفِ وَالغَدْرِ
حِينَ الْتَفَتُّ إلَى حُرُوفِ
قَدَري
رَأيْتُ أدْغَالاً جَائعَةً
تَبْتَلِعُ الْخَلْفَ وَالْعُمْرَ
وَالطِّفْلَةَ التي كُنْتُ
وَالْحُلْمَ الْوَرْدِيَّ

وَلَمْ أعثُرْ . . عَلَيَّ !

عَلقَ الْقَلْبُ عَلَى الْمَمَرِّ
الرَّأْسُ فِي الْبَحْرِ
الْعَيْنُ إِلى الْحَدِيقَةِ
وَأنَا خَارِجَ الْبَيْتِ وَالْغَمْرِ
وَلاَ نَافِذَةَ لِي
فَقَطْ أشْلاَئِي مُتَنَاثِرَةٌ
فِي السَّمَاءِ التي صَارَتْ
مُشْرَعَةً لِي . . .

الرباط في: 9 أبريل 2007

الشَّاعِرَة

أَتَتْ مِنْ بَعِيدِ بَعِيد
بَعِيدْ
مُثْقَلَةً بِالْفَجْرِ
وَالفَرَحِ الْمُثْخَنِ
وَسَمَاوَاتِ يُنافِسُ فِيهَا
الرَّحِيلُ الرَّحِيلَ
مَأخُوذَةً بِنُبُوءَاتِ الدُّرُوب
وَالْوَقْت
تَنْسُجُ، حَفِيَّةً، رِحْلَةَ النَّذْرِ
مُتْرَعَةً بِشَهَوَاتِ الرُّوحِ
مُتَوَّجَةً بِالأَلَمِ الْحَكِيمِ

هُوِيَّتُهَا الْمَوجُ
وَفِي يَدِهَا تُولَدُ أَسْرَارُ الْأَرْضِ
وَالْجَسَدَ
وَوَحْيُ الْمَاءْ

لاَ نُقْطَةَ
مَسَافَاتٌ تَتَنَاسَلُ
وَهَذِي السَّمَاءُ- بَيْتُهَا
لاَ تُمْطِرُ سِوَى تَرْحَال مَدِيدِ
لاَ يَحُطُّ

خُطُوَاتٌ سَفَرٌ
جَسَدٌ نَخيلٌ
وَقَلْبُهَا لِأَحْوَالِ الْقَلَقِ الْوَفِيِّ
دَلِيل

قَدَرُهَا النَّشيدُ ألاَ تَتَفَيَّأ
غَيْرَ عِطْرِ هَذا التِّيه
الْجَلِيلْ
أتُرَاهَا الْجَذْرُ أمِ التَّوْيَجُ
أمْ نُسْغُ الرِّيحِ؟ !
لاَ تَفْهَمُ /
لاَ يَفْهَمُهَا هَذَا الزَّمَنُ الْجَاثِي
الْمُغْبَرُّ
وَلاَ ذَاكَ الْحَجَرُ الْمُقِيمُ عَلَى
فَوْهَاتِ الْيَقِين
أحْيَاناً تَنْتَسِبُ لِلْبَرْق
وَأحَايِينَ تَتَحَدَّثُ بِصَمْتِ
الشَّجَر

وَحِيدَةً وَآهِلَةً كَالْعُلُوِّ
لاَ تُضَامُ
في غُرْبَتِهَا الصَّاعِدَة
تَسِيرُ تَسِيرُ وَتَسِيرُ
مَنْفَاهَا الطَّرِيقُ

وَمَلاَذُهَا الفَجْرُ
بَدْءاً وَعَوْداً
كَالْبَحْرِ هِيَ أبَداً لاَ تستكين. . .

الرباط في: 21 أبريل 2007

فِي مَهَبٍّ الانتظار...

فَرَحُهَا الْمُرْجَأُ
كَلمَاتُ قَلْبِهَا
أَحْلاَمُ أنَامِلَها
أُنُوثَتُهَا الأُخْرَى
الْمُعْفَاةُ من ضَرَائب
الْعُمْرِ
مَغَارَاتُ رُوحِهَا
شُمُوسُ جَسَدِهَا
أَشْرِعَةُ رُمُوشِهَا
مُنْذُ ظَمإٍ،
تَنْتَظِرُكَ فِي الْبَيَاضِ

لِتَمْسَحَ رَائحَةَ الْخَوْف
عَنْ مَعْبَرِهَا
وَتُجْرِيَ صَافياً
نَهْرَ الْحِكَايَة. . .

بنصف عُمْر
ظَلَّتْ تَغْزِلُ ضَفَائرَ الأَيَّامِ
والنِّصْفُ الآخَرُ
وَهَبَتْهُ لِفُصُولِ الانْتِظَار. . .

مَسَاءً،
تُسَافرُ في نَبْعِ نَايَاتهَا
تَتَبَدَّدُ في أَرَقِ النُّجُوم
احْتِفَاءً بِمَا يَلِيقُ بالسَّيِد
الْغِيَاب. . .

وَفي الصَّبَاح
تَنْسُجُ طَرِيقَهَا الْعَنْكَبُوتَ
بحكْمَةَ الرِّيحِ
خُطُوَاتُهَا للَيْلِ الْبَشَرِ
عِطْرٌ دَلِيلٌ
وَطَوْقُهَا غَدٌ
مُسْتَحِيلٌ. . .

آتيَةٌ مِنْ جِهَةِ الضَّوْءْ
غَدَتْ تُمْسِكُ بالشَّمْسِ
وَتُجْرِي فِي مُمِيطَات
السَّمَاءَ
أَبْجَدِيَّاتِهَا النَّافِرَة

هَيْهَاتَ أنه يَلْحَقَ بهَا
صَوْتُ الزَّبَد
الْتَبَسَ الْيَوْمَ دَمُهَا
بِلَوْنِ الأَبَد. . .

الرباط في: 2007/7/7

دُولْسِينيا

العياشي أبو الشتاء

الأرض التي استفاقتْ
عصافير رغبتها
حتى لا أقول : غَدَائِرُ رغبتها
حتى لا يقالْ :
الشيخُ نورْ
يتفصحنُ
أو يتحذلقُ
ليْلَهُ لم ينَمْ
شفَّهُ صدُّ القوافي
والألمْ
صاعداً جبل التوْبادْ
من سفُوحه
"فَهْوَ ووادَي البلاغة
كاليد للْفَمِ"
شعره مبتلٌ . . .
مبتلٌ
فيه من ميْتِ القبورْ
ما لا تعلَمون .

* * *

الأرضُ التي استفاقتْ
غدائرُ رغبتها
أزهر هودجها
نوارَ دُفْلى
مقصلةً

لحن قيثارْ

هي الآنَ عَاكِفَةٌ
تُرضِعُ من حَليبِ الشَّمْس
تربتها
والأشجارُ التي تذْرع عالية الجبالْ
حيثُ الريحُ والغيمْ
تستلقي راغبةً في أحضان الجنّ
ولحاف المَنّ
والأعناقُ المقطوعةُ راغبةٌ في مهاوي
الضياء تساقي أحشاء البُهم المبقورةْ
كأس مَحبَّة وَوصَالْ
هي الآن رَاحلةٌ تتنكَّرُ في فروةِ
من غبارِ الديارْ
وشهيقَ الضوء خلال رحيل النهارْ
لَنْ تكْبُوَ شَمْسُ النهارْ
دولسينيا
يا دولسينيا
يا غيماً مَوْعُوداً أطَلّ
يا ظلاً مملوءاً
يا جرحاً ألَمّ
يا قمراً أهَلّ
في ريف الأندلُسِ
وقت المَابَيْن
فبكينا طويلاً
وتعانقنا أصيلاً
ثم افترقنا بِبَابِ العَيْن
دولسينيا
يَا دولسينيا
يا زمناً مرغوباً أفل .

نموت أنا ما يموت حبيبي

أحمد لمسيح

نص مهدى إلى الشاعر مراد القادري

في موجة شاردة
توسد جفا النوم دراع ا لحلمة
شاف في المنام
راسو ناعس
على حلم في نهود السما
على عين الما الملتمة
على حاضي العش
نوارة حرقت الكون
وعجنت بطينو ذاتها
. . . .
. . . .
وما كان غير رما د الذات نايض
الليل جاي مراجل في سلهامو
ما عاطي ولهة للأرض تتنيـن
والليف الخافي اتمحى
وتد اللحم مريض بجفا النوم
وزيعة مشروكة بين دافن و مدفون
حرف ما ينطق غير بهم
مللي يتخالطو في موت ابيض
نايضة فيه الجدبة
راني طفل
فرحتي من شهد
ما دركوه يدين
القايلة مبورشة
مرعوشة
والمكان يشهي
بدينا نمضغو ظلنا قبل ما يطير
حطيت سحابة في كاسي

وتسنيت العاصفة
الكاس عوى
تجمعت لرمال تنوح
اندسيت
سافرت ف سفينة لخبال
عكازي الخيال
رسيت في مرسى الشوف
وتسنيت زهري
ينوض من قبرو
تبعثت نوارة
طلت من السهوة
قالت أنا طوير من الجنة
مالك مغيب
يا الطفل العاصي ؟
لما نوات تكون
حلقت
فضت أنا
سحت
باش مانكون سبولة الما
كميت سري
حتى نبقى لها فراش من الما
وغطا من النور
ومرايا تخبي فيها تاجها
ونتوه تبوريشة ف الذات
ودقات من الما
ونوارة تعاتبني
لاش تشيخ
ونت طفل قريب من الجنة ؟
لاش تقدف نعل الزمان ؟
لاش ما تحبو في علايا
وتندس في ريش الحلمة
باش عاد تكون في المقام ؟
نميل لتخمامي
نسند عليه
تريب الذات – الرماد
تخرج مني الروح
ناقشة صرختها من الريح
ليف هاز ليف بليف
وظهرو يلقط اطراف "كن"
يوجد ذات ساكنها زلزال
صوت يهلل الرعشة
يلجم الشوفة
يرقص الطفل حكاياتو ،
وطلاسمو في الحضرة
ضاع منو الباب
طلع للمطهر المنسي
يختن ظلو الهارب للضو
الذات مسيوقة لجنان معربط
الحيرة تنادي
تروي الصمت
بالدمع تسقي عشبة السؤال
اللذة شجرة شفافة

الحرف ما طفى سقفو
وسيدنا العشق هب
صفحة مدلية من بحر ليام
غامض و ضاوي
هايج و ساكن
رايم و مقلب
كاين و ما كاين
دخان جايع يلهث
يفتش على عافية يطير منها
عيني ثرثارة
سكنت فيها نوارة
تتعاشق مع را سها في دموعي
جفوني اسوا ر تحجبها من لعجاج
مقلقة
علاش الصمت تنفس
وقت صلاتها ؟
الما انتحر
اصلب راسو . . .
. . . . . . تبعث . . . . . .
. . . . . . كان الصليب نوارة
اطلق الما سراح فرحتو
حتى تبل بدموعو
هربت للسحا ب
بان الما قفص
هادمة قلعة من الدخان
محزمة بشوفة من التيه
ولى ظلها فراشة
تحوم على الما
شافت راسها فيه
ولات رماد نوارة
دراتو الخاطر
وطاح على الصفحة كفن
. . . .
. . . .
. . . . . . صحيت . . . .
تمنيت لو كنت الما
نحضن النوارة
نتسلل في عروقها
نسكر في ماها
وتشوف هي زينها في دواخلي
ونقول أنا :
نموت أنا ما يموت حبيبي

---

* هذا النص يدخل في با ب **"كلام آخر"** .

يوميات الحزن بجدة

فاتحة مرشيد

إلى روح والدي الذي لن يموت..

على ضفّة البحر الأحمر
يكنسُ ذيل عباءتي السّوداء
بقايا عاصفة رملية
وترفض الطّرحة أن تستوي
على جبين أردتَهُ
عاليا
عاريا
كشمس الظّهيرة

يقول أحد المارّة
"غطّي شعرك يا حُرْمَه"
قلتُ:
لقد دفنتُ غطائي عندكم
وأفردتُ الرّوح
للرّيح

❑ ❑ ❑

عند انبلاج فجر
غير منتظر
بين حشرجتين
وغصتين
أحطّ
كنورس حزين
بمطار جدة

يقول الجمركيّ
من سيستلمك يا حُرْمَه؟

قلتُ لنفسي
ما استلمتني يوما
غير نفسي

◆ ◆ ◆

أركض
كهارب
نحو المستشفى العسكري
حيث لا سلاح
إلاّ الصّبر

لسكون اللّيل
دويُّ الألم

مُسالمٌ أنت
بين مُحترفي الحرب
ممدّدٌ
في انتظار هُدنة

◆ ◆ ◆

بين الهنا والهناك

معلّقان
من تلابيب النّبض
يعدُّ السّكون من حولنا
أنفاسنا
نفسا
نفسا

هل من معجزة
تنفخ في رحمي
فتولد من جديد
أنت الوالدُ
الصّامدُ
على فراش المِحن

◆ ◆ ◆

أتلمّس شعيرات رأسك
أنت الذي
مشّطت طفولتي
بأنامل من حرير

تفتح عينا
على الفراغ

أتذكرني
وهل تُدفيك
حُمّى ارتعاشي

حين أقبّل يديك؟

أقرأ عليك
سورة مريم
يا من ماتت
في عشقه النّساءُ
ثم أبدأُ
في سرد قصتنا معا
لعلّ الذكرى
تنفع المومنين
بينما أمَسّحُ القدمين
التي سرتُ
على خطاها

* * *

تدخل الممرضة الآسيوية
بخمار أبيض
تتعثرُ
في ابتسامة مُفتعلة
نتبادل
نظرات مُثقلة
بسؤال الوجود

تعتذر عن الإزعاج

للوداع

حميمية الحب

* * *

أنظر إليك
أراك لأول مرّة
عاريا
سوى من كبرياء الألم

ما أقساني
أيكفي العلم درعاً
أمام حيائك؟

* * *

لا تخجل منّي
سوف أنسى يوم تقومُ
كلّ أنّة من جسدك
سوف ترتدي
جلبابك الأبيض
وسوف أزغردُ
يا عريس جدّة
يوم تنهض
وسوف نهزأ
من القدر
وسوف..
وسوف..

وسوف..
....
...
...

وسوف
يهزأ منّا القدر

* * *

على ضفّة البحر الأحمر
ينخر ملح عرقي
عباب الجسد
والموت بارد
ولا يدٌ
تلمّ حبّات عقد
من فرط وحدته
انفرط

* * *

على ضفّة البحر الأحمر
ترنّ هواتف
وترقص أخرى
للنّعال وقع جيوش
وللأسرى
أساور من ذهب

وأنا
كسّرتُ قيودي
يوم وُلدتُ
وجعلتُ كفني
ورقا أبيض

* * *

كيف يستقيمُ
بعدك الحرف
وفي سجنكَ
تحرّرَتْ كلماتي؟

* * *

على ضفّة البحر الأحمر
حيث لا موج
لا بحّار
لا مدّ
ولا جزر
بحيرات صامتة
كوجوه تحت حجاب
نساء تنظر من خلف سواد
ورجال ترى ما خلفَ السّوادِ

وأنا البريئة

من كلّ انتماء
كيف تستفزّني
الصّحراءُ
ولي في كلّ حبّة رمل
رثاءُ؟

* * *

هل يكفي موتٌ
لدفن الذاكرة ؟

ومتى رمّم الثلج
شروخ الجبل؟

هُطولنا السرّي
يجرفنا
ويعجز التّرابُ
عن إخماد
صدى
اقترافنا للحياة

للقبر
أبواب موصدة
وأخرى
لوحدها
ترتطم

* * *

على ضفّة البحر الأحمر
يكنس ذيل عباءتي السّوداء
بقايا عاصفة رملية
بينما
ككلّ اليتامى
أجرُّ الأقدام حافية

يقول أحد المارّة :
"احتشمي يا حُرْمَه"
قلت:
دع عنك ذنوبي
إنّي كفيلة بها
أتقاسمها بسخاء
مع من رضي الله عنهم

* * *

عند الغروب
أحطّ كحطام
بمطار الدار البيضاء
زادي منك:
طقم أسنان اصطناعية
نظارة طبية
وحقن من الأنسولين

ويحهم

لقد سرقوا منك
تذكرة العودة
وجواز السفر

* * *

كسُنبلة
يأتيها النّدى
ساعة الحصاد
أمتصّ آخر رشفة
ودونما اعتذار
أستجدي السّماء
لخطيئة أخيرة

* * *

من بؤرة ذاكرتي المُعتمة
يطلّ كالشروق محيّاك
يُعيدني
لرحم الدّفء
حيث أغراضكَ العاديّة
طقوسا، قدسية
وأنا الرّاهبة
الممتنّة
التقيّة
أصلّي
لكي تظلّ خطيئتي
وأظلّ العصيّة

* * *

تُخيّمُ
على كلّ سبيل أخذتُهُ
وكأنّكَ وجْهتهُ

فاتحة نَصّبتني
فلم أغلقتَ الكتاب؟

تَبكيكَ كلّ النّساء
بداخلي
ورجال أحببتُهم فيك
أيتام

* * *

على ضفّة البحر الأحمر
ودّعتك بما يليق بمُرْشد
وأنشدتُ مع أطفال
حملوا نعشك
برعونتهم:

لا موت سوى موت الحبّ
أنا لن يموت أبي.

فاكهة بلا مقابل

عزيز أزغاي

1 - ضَحِكٌ في ممر..

تأكد من أن البابَ مغلقٌ
والنوافذَ
والغاز،
وأنك آخرُ من يمنع الليل من النوم. .
ثم لا تفكر في الغرباء،
لكل سريره في العتمة
وله أيضا ملائكة تَتْعب. .

تأكد فقط من الهيكل
وابدأ كآدم،
إنها أرجوحتك الأخيرة
في نزل بارد:
بضعُ أمتار من الأصباغ
وكلمات لا يفهما أحد،
مجرد تَخَترِ في شريان نادم
يلزمك مصاحبتُه
إلى نهاية التجرية،
وسيكون الأمر لذيذا
لو تفشل!

الحكمة دائما في التعب،
في حنكة المِقَصات

وهي تخلص الجسارة من النضج!
أنت وحدك من يسمع الضحك
في ممر آخر.

تأكد فقط من الأطراف
ثم لا تتقدم..!

2 – ضربات خاطفة في وجه مشدود

القسمات التي رجعت إلى أثرها
بسبب الهاتف،
تبدو الآن
مجرد تمرين عصبي
على تجريب الخلل،
أو ريبرتوار من الضربات الخاطفة
في وجه مشدود..

ليس أقل من ذلك سماجة
إغراق سمكة
في أكواريوم لوحة،
أو تقليم العربدة
في حظيرة أقنان..

مجرد قشرة موز كهاته
يجعلني أثق بالأجنحة.

الخيال جناح الشاعر
في الصعوبات،
رَغْوتُه التي تخدع المظليين.

لم يعد للخفة من ألم.
بودي، بعد كل ذلك، لو أتعرى الآن.

3 – حين لا وصول

الليالي البيضاء
تحت سماء النيون،
هي نفسها منجم الفحم
على رفوف المتاحف،
دليل المقامرين في تمارين النسيان.

الليالي الكاسرةُ بأنصاف الثمالات،
يدخلها الراقصون بقمصان لامعة
ونذوب في المحافظ.
يدخلها الفارون من وضوح في الألم،

الجميع هنا يقودهم الخوف
إلى ارتباك العلامات .

ليس فرارا هذا الذي يستبق العظام ،
إنما العسر في استظهار الحركات ،
في اليد التي تلطم خدا
لاكتشاف المعجزة .

في آخر الليل ،
هناك – دائما – رجل
يتسلق شريط أفكار
ثم لا يصلني!

4 – ظل الجثة

مجرد تمرين على قتل الفرص الضائعة ،
أو تنويعٍ لغوي لقول نعم
ثم لا .
هذا ما يحدث في شقوق المغناطيس .

في هذه اللحظة
يصبح الراديو
آلة حادة لقص الأخبار :
الكوارث والمجاعات
والأعراس . .
كلها سعراتٌ حرارية للجسد الهش ،
الأقراصُ التي تلسع
من شدة الصدق .

هذا بعضُ ما يتعلمه المتلصصون على العتمة .
مجردُ حساب يدوي
لفهم الذي سيقع
ويهشم كل ما تحته
بلا حب ،
بلا شفقة .

* * *

في أقل من بُرودتين تتمددان
فوق سرير بلا وسادة .
في انحناءة لم تكن ضرورية
لاصطياد التنين .
في الجمل المنكسرة .
في أعواد الثقاب . . . ،
الشيء نفسه يتناسل في كريات الدم ،

في تساقط الشعر والأسنان .

وحدها الروح تعبر سكة الحديد
ولا تتمنى جنوح القطارات .

□ □ □

النمل الذي يذب في المسام
ليس درسا لترويض المشقة ،
إنما الحيلة في الخيال .

الضحكة التي تطاول الأعصاب
لم تعد بحاجة إلى يد
لتلطيف العجمة .

كان التهور ضروريا في ما مضى ،
في التضاريس التي لا تكذب على أحد ،
ولا تقامر على المتأنقين .

ظل ما يعبر في شريط ،
تليه جثته .

5 – شجر قديم

يدك التي تلوح خلف الزجاج ،
هي الحكمة المنزوعة
من شجر قديم .
فاكهة بلا مقابل
تنضج وحيدة في الأدراج .
لمجرد أن تنزع ثوبها الشفيف
لا تشبع .

أنت الآن على بعد شهيتين ،
مائدتك واضحة
لكنك لا تفهمني !

عرش من يحموم

فاطمة الزهراء بنيس

من وَحْي المرارات
هَبَّت
كنفحة نسيم
أبهى
من البهاء
قطفتْ منَ الشرارات
ما أذابَ غشائي

... ...

ويحها هامدة
بأيّ الإشارات
ستسردُ
جدل البدايات؟
من مخرَ غيمة العميان
الضلعُ العاشقُ
أمِ الرحمُ الملفوف
ببرد القربان؟
ها رغبتي
في الجحيم
تستلهمُ جسدي
أ... د ... و... خُ
أدوخُ بنشوة
الوجع المقدَّس
تطوّقني أعضاءٌ
سامقةٌ

من حيثُ لا أدري
تنتصبُ هوسًا
بحوّاءَ
السِّحر المصلوب
على
عرش من يحموم
... ...

آه ...
يا التي حالمتْ قطفها
فما أطفأت حلاوتها
ظمأ الخليقة
يا التي شعشَعت برحيقها
حواسي
كفاك توغُّلا فيَّ
قد جرِفتني
صوبَ فنائي
... ...

منْ سواك
سيتلو شهوةَ الألم ؟
إذا الأرضُ
ضاقت بغوايتها السماء
وإذا البَشريةُ
حنَّطت فُجورها
بينَ جبلين
قيلَ إنَّ بينهما برزخا
لا يلتقيانْ

....

بنبضات فاحمة
هبَّت
تستبصرُ جرعتها
من ذاك الجنون
من الغيمة
التي أمطرت الكون
ومن سيولها
حَبل التراب
فكان
هذا اليباب
وكنّا كأسين
لا يرتويانْ .

قصائد

محمد العربي غجو

تفاحة

دع التفاحة
لاتقطفها
دع صمتها للريح
دعها
ليدين طريتين
تدحرجانها
عبر مسافات
الأنين
دع
شهدها
توقضه
الخيول
أنينها
تجرفه
السيول
دمها يبكي
وجع
الغياب

دماء

دم الخطيئة
النازف
دم الأفعى
التي تسير
دم الأنثى
التي تتخبط
في أثواب الحرير
دم الطفل الذي
تقطر الدهشة
من أصابعه
دم وجهي الذي
يفر من
محفل الموت
دم الصبوة
اللعينة
دم اللعنة
الشهية
دم التفاحة
التي
أغوت
دم التفاحة
التي
طردت
أباك وأبي
من
حدائق
الشهوة

قسوة

رحماك
أيها القاسي
يا المسكون بحمى
الجزر البعيدة
رحماك
أيها المارد
المستأسد
في حضرة
البنفسج
رحماك
يا الشغوف
الشمعدان
المسفوح
على أقدام
مملكة الريح
يا الموغل
في حمامات
الشهوة
وآبار المسك
المطعون
في ذروة
الصبوة
رحماك
رفقا بأشجاري
بعنبي
بعسل
شفاهي
يقطر على
ضفاف
مياهك
العطشى

موت

يندس
بين المفاصل
والعظام
يربض خلف
حفيف الورق

يندفع
بين السطور
كجندي
مهزوم

يجلس على
ناصية الطريق
في منعطف
درب طويل
في الصفحة
الأخيرة
لجريدة الغد

يغفو
في رقدة أبدية
بين الضلوع
والعظام

ينام
في السرير
في مجسات الحرير
في ألبوم الصور
في غبار البيانو

يرقد
بين تذاكر السفر
في تلويحة الغجر
في منقار
طائر موشك
على
السفر

وجه في حاجة إلى اسم ما

سعيد الباز

1 – في الردّ على الماوردي

أوجدتُ
حبّة للسنبلة .
سنبلة للحقل .
حقلا للعصفور .

. . . في
اليوم السابع
جلستُ أفكّرُ
في القفص .

2 – خيانة

الظلام
ليس ليلا .
الظلام
مجرد خيانة للشمس .

3 – هموم البصّاص

ليس
همّ البصّاص طول
دقّة الباب .
همّه
دورة القفل .

4 - تعريفات (1)

المازوشية
هي أن تضع قلبك تحت مسّاحة
الباب .

السّادية
هي ألاّ يكون ثمّة
أصلا أيّ باب .

5 - تعريفات (2)

الخواتم
لمباركة الثبات في الحياة .
الباروكات
هي الإتقان الجيّد
لفنّ الكذب .

6 - أصل الطاولة

قبل
داروين وبعده بكثير
الطاولة فصيلة نادرة
من الكائنات .
تجلس على أربع
وأصلها بالتأكيد
شجرة ارتبطت
ذات قطع
بفأس
حطّاب .

7 - وجه ما

الشارب رغبة في رجولة ما .
الحاجب حجب لغضب ما .
اللحية خوف من عري ما .

في
النهاية ، ثمة
وجه في حاجة إلى اسم ما .

8 - يد البستاني

بين القطفة الأولى
و قطرة الندى
المندلقة
من أصل الوردة ،
حكمة لا تدركها
يد البستاني .

9 - عناد

موجة
بعد أخرى يكتشف
البحر
عناد اليابسة .

10- لقاء

قلت
في الواحدة إلاّ الربّع
نلتقي
هاهي الواحدة
إلاّ
أنت .

11- علاقة (1)

أنت الإبرة
أنا الخيط
الثوب
هو
ما ضاع منا

12 - علاقة (2)

وبالنسبة
للباب
النافذة فضيحة .

لِلنَّبْعِ رَعْشَةٌ عَلى مِيَاهِ الرُّوحِ العَمِيقَةِ

عبدالحق بن رحمون

لُبْنَانْ . . . . يَا لُبْنَانْ
لاَ تَنْظُرْ يَا أبِي خَلفَنَا ، دَعْنَا نَسِيرُ لِنَرَى السَّلاَمْ . لَمْ يَبْقَ يَفْصِلنا عَنْ قَرْيَتِنَا
إِلاَّ فَرْسَخٌ
أعْذُرْنِي إِنْ رَهَنْتُ مَتَاعَ البَيْتِ عِنْدَ المُرَابِي .
فَلاَ أحَدٌ بَقِيَ فِي لبْنَانْ
لاَ تَلْتَفتْ فَالشَّجَرُ يَسْمَعُنَا وَيَرَانَا
إِنَّا ائْتَمَنَّاهُ عَلى فَصَائِلِ خُرُوجِنَا مِنَ البِلادْ
وَتَرَكْنَا البَسَاتِينَ عَلى عَوَاهِنِهَا
هَلْ نَخْشَى انْ تَحَرَّكَتْ جُذُورُ أحْشَائِهَا ، وَتَبِعَتْهَا كِلابٌ وَفِيَّةٌ تَقُولُ إِنَّهَا
رَاعِيَةٌ لِلسَّلاَمْ .

مَرَّتْ سَنَوَاتٌ عِجَافْ
وَرَكِبَ جَدِّي حِمَارَهُ وَخَشْخَشَ الأرْضَ بِعَصَاهْ .
أُمْسِكُ بِأَصَابِعِ المَاءْ الخِصْبَةِ قَبْلَ أنْ تَغْطِسَ شَبَكَةُ الخَيَالِ المَمْهُورَةِ بِالتَّرَقُّبِ .
الذَّنْبُ مَنْثُورٌ بِشَتَّى الخَسارَاتْ،
لِلنَّبْعِ رَعْشَةُ شَجَرَ الأرزْ عَلَى مِيَاهِ الرُّوحِ العَمِيقَةِ .
المَسَافَةُ فِي عُرْفِ المَاءْ تَقْصُرُ عِنْدَ سُطُورٍ
يُجْبِرُهَا الخَاطِرُ عَلَى دُرُوبِ الهَوَى
التَقَيْتُهَا فِي طِيقَانِ الرَّغْبَةِ وَشَهْوَةَ الشَّوْقِ لِزَائِرَةٍ تَأتِي مَا بَعْدَ أمْصَالِ اللَّيْلِ .

الإوَزُّ الرَّمَادِي

أَمَلِي أَنْ لا أكُونَ حَذِراً إنْ ذَهَبْتُ إلى المُنْتَزَهَاتْ
يَوْمَ الأحَدْ . وَلَمْ أعُدْ فِي احْتِمَالِ الأمْوَاجْ .
لِوَحْدِي وَعَدْتُ رِفَاقِي أنِّي لنْ أتَرَاجَعَ
إنْ وَجَدْتُ الألغَامَ فِي الضِّفَةِ الأخْرَى
وَمُهَاجِرِين سِرِيينْ يَبتَاعُونَهُمْ بِمِثقَالِ غَزِيلِ المَاءِ فِي الأوهامْ .
لاَ أرُجِّحُ ابْتِكَارَ وَجْهِ الضِّفَافْ
إنْ رَأيْتُهُمْ فِي طَحِينِ الأحْلامِ يَذهَبُونَ بَعِيداً
لالتِقَاطِ بُوسْتِيرَاتِ الأوْطَانِ الجَمِيلَةْ

شِتَاءُ المَيْزِ العُنْصُرِي

دُلِّينِي إِلى وَرَقَةٍ مِنْ شِتَاءٍ ضَلِيلْ
دُلِينِي إِلَى عُمْرِي كَيْ لا يَصْفَرْ، وَجَبَلٍ مِنْ نُحَاسْ لا يَهْوَى عَلى عُمْرِهِ،
وَنَجْم لا يَأفَلُ عَلى بَشَرٍ، نوَّمَهُمْ تَبَايُنُ الأَبْيَضِ وَالأَسْوَدِ
دُلِّينِي مَنْ قَتَل " أَلمَانُو " فِي شِتَاءِ المَيزِ العُنْصُرِي
مَن حَصَدَ لهُ قَرَارَ الجُوعِ والبَحْرِ والقرِّ والوَهْمِ
بِمكْيَالِ الكُحولِ القَوِيِّ. . . وكَانَ يَسْعَى فِي القُمَامَةِ كَقِطٍّ غَرِيبٌ في (. . .)
قَبْل أنْ يَقتلُوهُ
رَأَيْتُهُمْ
وَضَعُوهُ فِي صُنْدُوقِ القُمَامَةِ، وَتَمَرَّدَ فِي الوَحَلْ
بَيْنَ شَفَةِ قِنِّينَةِ اليَأسِ والسَّائِل الكِيمِيائِي

نجيب محفوظ

فِيلمٌ عَرَبِي : بِدَايَة بِلانهَايَةْ
بِه تَربَّعَ الخيالُ عَلى عَرْشِ سَرْدِ الحَارَاتْ والمَواخيِرْ
وَلا تحْسبُوا أنَّ الخَيالَ
دَخَلَ البيُوتَ مِنْ أبْوَابهَا
فَمَنْ شَاءَ أتَاهَا عَبْر النَّشَانِيشْ

موسم القطاف

صباح الدبي

هل يدعوني ورد الجمر المنثور
الى رقص الضوء . . .
أم أن الصبح سليل غيوم تائهة؟
كم كان لدي من الأشواق أصففها
لأرافق هودجك المكنون و أرفع رايته
و الظلمة تاج حنين . . .
هل أنت على مر الأزمان تلوكين العسل المهجور
لتزهر فيك مدائن تشرب غربتها
و تهيء للشطآن سديم الشهد و أزهار الصبار
و روض يباب . . .
في منعطف لنحيب القلب تبدى جرحك

يعتصر الجسد المتلألىء
يزرعه في جوف الليل و في عدن المحراب
و يغمره
بسواقي العصف القادم منك
و من ملكوت النور المقمر فيك
و أنت تعيدين الوطن المسلوب
الى مدن الصحو . . .
كم قلت لنار الأشياء
انتشري في مهج الأعناق
لعل شقائق هذا الركب
تصب دم الأقدام على عتبات الشوك
و تنتظر القطف الموعود
و ما في القطف سوى حبات سراب تشرب غصتها
و تذوب كأذيال الشمس . . .
هل صوت الليل يقودك
كي تقفي بمعاقل هذا الوقت المنهك فيك
و تغترفي أعمار الصبح المذعورة؟

ARCHIVE

عشاب ساحة الغول

محمد غرناط

خذلني عقلي وخيالي . أم أني أهبل بدون عقل ولا خيال . ما الذي يدفعني إلى مزيد من السير . لم أتوقف ولو أن الهلع الذي تملكني فاحش أسود ، والعرق البارد الذي تصبب مني بلل كل ثيابي . أمشي وأنا أتضوع جوعا وألما . من أين لي بهذا العناد؟ الراجح أنه بورحيم صاحب المطعم الذي حدثني البارحة . كان صوته كما عهدته قويا واثقا بدد في لحظة ما كل شكوكي . أرشدني إلى مكان ينبعث منه ضوء ساطع مثل نجم معلق في السماء وقال لي هناك يوجد عشاب في مهارة جني ، ما أن يراك ويسمع كلماتك الأولى حتى يعرف سر الداء ، حكيم عاقل وزاهد أعاد الناس للصواب ورضخ له الغول الذي كان ينشر الرعب في ساحة كانت تسمى قبل ساحة الجنرال . قاومت ضعفي وغبائي ودرجت مثل محارب لا يهاب الموت . لم أتردد لحظة ، ولم أتراجع وهو نفسه حذرني من أن أفعل . الطاولة التي كانت تفصل بيننا لم تسعفنا على الحديث طويلا ، في عبارات موجزة بليغة دلني على العشاب وهيأ لي الطريق الآمن ، فنهضت وسرت بخطى حثيثة نحو الضوء الذي يبدو دائما مثل نجم معلق في السماء . كان الليل في أوله ، لكنني فجأة أحسست أنني وصلت في نفس اللحظة التي انطلقت فيها وكأنني لم أقطع سوى خطوة واحدة وكنت في مدخل المدينة . مدينة؟ لا شك أني أهبل .

وقفت أرتب أنفاسي وأدور ببصري على الشوارع الممتدة أمامي. أحدها فسيح مشطور إلى نصفين ومحفوف بأشجار برتقال مشذبة وبنايات متفاوتة الطول والألوان، إنه الشارع الذي وصف لي وطلب مني أن آخذ رصيفه الأيمن، وأمر على سينما الباهية ومقهى فرنسا ومكتبة الخير، وأمشي قليلا حتى أصل إلى ساحة دائرية شاسعة تتوسطها خصة معطلة، ثم أرفع بصري نحو بناية قديمة ضخمة وأقرأ على يافطة زرقاء معلقة على جدار الطابق الثالث إسم العشاب ورقم هاتفه. فعلت بلا تردد، فالغول، كما قال لي، كان له صوت راعد وقد أخمده، وأنا بداخلي أيضا صوت راعد فليخمده. كنت مع كل خطوة أخطوها أحس أنني لا أقترب فقط من العشاب ولكن أقترب من حظي في الشفاء. لاشك أنني سأتخلص من داء سكنني سنوات طويلة. المعلم بورحيم كان واثقا وهو يحدثني، وأنا الآن أيضا أكاد أكون واثقا. لا أعرف كيف أدرك سر الداء الذي يجري في عروقي، إنه هو أيضا جني، قال لي لا طبيب ولا طبيبة على وجه الأرض ينفع معي، والعشاب وحده يريحني، ففي أصابعه بركة الحكماء والأولياء والصالحين.

خطر لي بغتة أن أتراجع وأعود إلى القلعة النائية بسرعة، وهم لعين يركبني؟ لم أدر كيف جف حلقي وركد الدم في ركبتي. بحلقت حولي مثل معتوه فأحسست أني هبطت للتو على أرض ملبدة بالغيم، باردة حد الموت. هل خذلتني حواسي؟ أين ساحة الغول والعشاب بونو؟ استأذنت رجلا يمشي مشية قرد عجوز لأسأله. لم يلتفت نحوي، ثم ثانيا وثالثا فلم أفلح. الوجوه التي أصادفها متشابهة، كالحة مقفلة، آذان مختومة بالطين، عيون صفراء ساهمة. أحسست بالعياء وقعدت إلى الأرض، ثم رفعت بصري وفوجئت باليافطة واسم العشاب ورقم هاتفه. الحظ يبتسم لي وأنا غافل؟ هدأت نفسي وقمت لأصعد أدراج العمارة، وصلت إلى باب شقة مكتوب عليه اسم العشاب ورقم هاتفه، ضغطت على زر مدفون بجدار أملس وانتظرت. بعد ثوان شاقة لاح لي وجه سيدة متوسطة العمر، بفم أحمر باسم وعينين واسعتين مكحلتين، وذراعين بيضاوين عاريين. حييتها وردت علي التحية وأوسعت الباب أمامي كأني على موعد مع العشاب. قالت دون أن أسألها إنه هنا في انتظارك. اهتزت أطرافي ووددت لحظتها لو قفزت من إحدى النوافذ صارخا وهربت. هل أستطيع؟ سخرت من نفسي وتنهدت بأقصى ما أملك من قوة وسمعتها تقول «لا بأس عليك..» وقادتني إلى قاعة واسعة مفروشة بأناقة ومزينة برسومات لنباتات وعروش أشجار ووجوه لنساء ورجال منشرحين.

لم يمض وقت طويل حتى حضر رجل في الخمسين من عمره ، ممتلئ القامة ، يرتدي زيا أبيض ناصعا ، ويمسك بيده سبحة يحرك حباتها بأناة . سلم علي وقعد في مقابلي ومسح على لحيته المقصوصة بعناية ، ثم رحب بي وسألني بصوت هادئ عميق النبرة :

- ماذا بك أيها العبد الحيران؟

أجبته فورا :

- ضيق في التنفس ، عسر في الهضم ، رعشات في القلب وأصابع اليد ، صداع في الرأس لا يهدأ ليلا ولا نهارا .

قاطعني :

- أمثالك لا تغلبهم متاعب الدنيا .

تساءلت غير مصدق :

- حقا ما تقول يا حكيم؟

- أنا لا أمزح . سأعالجك في وقت قصير .

- حقا؟

- صدقني . .

ورفع رأسه وأخذ يتكلم كأنه يخاطب روحا تحلق فوق رؤوسنا . قال إنه قهر الغول الرهيب الذي استولى على الساحة زمنا طويلا وكيف لا يقهر دائي . ابتسمت ودعوت له في سري وتمنيت أن يكون قد سمع دعائي . ثم لهجت بصوت خافت أن الساحة كان يجب أن تحمل اسمه بدل أن تحمل اسم الغول . فانتفض بقوة وقد تغير لون وجهه . جني؟ جني وابن جني . قلت له «حفظك الله . . » فأغمض عينيه لحظات ، ثم فتحهما وتفرس في وجهي طويلا قبل أن يقول :

- لا تفكر هكذا . أنا عرفت ماذا بك .

صمت برهة وسألني :

- أتريد أن تشفى سريعا من دائك؟

أجتبه :

- أي لا أفكر في شيء ولا أحزن لشيء وأنسى كل شيء . .

قاطعني :

- لا تتكلم هكذا . قل كلمة واحدة .

- وماذا أقول ؟

- قل . . راحة البال مثلا .

ثم أضاف وهو يلامس جبهتي :

- منذ الآن ستر تاح نفسك . تنام كما تشاء ، وتحلم كما تشاء وتقوم وقتما تشاء . سأعطيك دواء أفضل من كل أعشاب الدنيا .

- ما هو يا حكيم؟

- قال بثقة :

- مخ الضبع .

جمدت لحظات ثم نطقت بصوت متقطع :

- ولكن . .

- إسمع . . لا تهتم بكلام الناس واهتم بحياتك . أتريد أن تهنأ؟ أعطيك مقدار ما ينفعك فتصير إنسانا هادئا وديعا صامتا غير مبال .

سمع طرقات على الباب فصمت إلى أن دخل علينا شاب أنيق وسيم . بدا هادئا وديعا صامتا غير مبال . سأله العشاب عن حاله فابتسم ابتسامة صغيرة محسوبة . وفي وقت وجيز أحضرت السيدة كأسين مملوءتين بسائل لزج . مد الشاب يده وتناول واحدة وجعل يحسو جرعة تلو جرعة حتى أفرغها واسترخى بجانبي . مكثت أرقبه في صمت حتى أغمض عينيه . هل نام؟ تساءلت في سري وأنا أسمع العشاب يطلب مني أن أتوكل على الله . لم أتردد فرجوته أن يمهلني لحظة حتى أخمن وأتهيأ . تركني بالغرفة ومضى . مر وقت طويل وأنا أرى الشاب نائما والكأس على الطاولة والضوء الخافت يرتعش . ثم دنوت منه وحركته فاهتز ونظر إلي بعينين مفزوعتين ، طلبت منه أن ينهض ويرافقني إلى مكان ما

نقضي فيه بقية الليل معا . وافق بحركة من رأسه وغادرنا بيت العشاب . عثرنا دون عناء على مقهى صغير قرب محطة القطار . اقتعدت كرسيا وطلبت من الشاب أن يقعد بجانبي ليشرب قهوة وأحكي له عن الغول فقعد وأخذت أحكي له وهو ينصت . خلته في البداية مثل ضبع ، لكن شيئا فشيئا كنت أرى عينيه تنفتحان ولون وجهه يتغير .

وكان الليل يدنو من نهايته .

الرباط 2007

بلّغ سلامي إلى عايـدة

محمد أنقّار

رن جرس الهاتف في وقت متأخر من الليل . انتفضت كالملسوع . أوقدت الأباجورة حذراً من أن أزيد في إزعاج زوجتي . تمتمت وأنا أرتدي الروب الرمادي فوق البيجامة المخططة بالسواد :

«- خيراً إن شاء الله ! . . » .

ألصقت السماعة الباردة بأذني فإذا بالصوت الأجش يأتيني متدفقاً كالوثب :

«ألو . السي أحمد ! . . » .

«- نعم أنا هو . . » .

ثم قطعتُ الجملة مخافة أن أستشاط غضباً وأفجر فوْرتي في أذن اللعين الذي تجرأ على إيقاظي في هده الساعة ونحن في عز النوم . بيد أني تماسكت عن الانسياق وراء الفورة عقب الهنيهة التي تمكن عقلي خلالها من استعادة توازنه وتمييز صاحب الكلمات الثلاث . ثم تابعت في شيء غير قليل من الانشراح :

«- أنت ألـمَلعون ! . . » .

«- هاتفتك إلى الثابت لأني أعرف أنه الأقرب إليك في هذه الساعة. . أوَليس من عادتك أن تُبعد عنك المحمول خلال النوم انسياقاً مع رفضك للتكنولوجيا الجديدة؟. . ».

كان الأمر يتعلق بعبد القادر تاجر الحرير؛ صديق الحارة زمن الشباب المولي، ونديم المقهى خلال أمسيات العمر الرذيل. ولم يترك لي الصديق الباش فرصة طويلة للتردد فالتقط رأس الخيط وعاجلني بالخبر الجديد:

«- آسف على الإزعاج، فالوقت غير مناسب. ثم إنك أدرى الناس بسلوكي الفوضوي وترك الأمور إلى آخر ساعة. لكن الطارئ جديد وهو عذري الوحيد. وفي جميع الأحوال فقد فكرت فيك بمجرد أن جاءت فرصة السفر. غداً صباحاً سأطير إلى القاهرة. . هو سفر طارئ أمْلته طوارئ الحرفة. . وأنت أعلم بطوارئ الحرفة. . وقلت أن أسألك إن كنت تريد شيئاً من هناك. . أنت و المدام. . وحتى الأولاد. . ».

أجبت دونما تردد:

«- كان بإمكانك أن تهاتفني من القاهرة في وضح النهار لو أنك تفكر في راحتي حقاً!. . ».

«- فكرت في راحتك الغالية يا عزيزي، لكني خفت أن أنسى وأنا هناك غارق في بحر البيع والشراء. تضاريس مخي ليست غريبةً عنك. . ».

انتزعني السؤال من بحر النوم اللذيذ بصورة تامة وطهرني من بقاياه. لكن السؤال رمى بي في نفس الوقت في دوامة من الحيرة. كيف لي أن أحسم فيما أريد خلال هذه الهنيهة الدقيقة؟. ما الذي يمكن أن أطلبه من عبد القادر؟. وكيف لي أن أسأل المدام السادرة جنبي في نوم ثقيل عما تريد من هناك؟. أما الأولاد فمن المؤكد أن الصديقَ الشيخَ رجلٌ غير مناسب لكي يحمّلوه طلباتهم. ثم قررت أن أحسم الحيرة لأعود من جديد إلى نومي:

«- لا يخطر لي الآن أي طلب. . يكفي أن تسلم لي على عايدة!. . ».

بيد أن عبد القادر عمد إلى أن يمعن في أرقي فسألني من جديد:

«- وماذا بعد؟. . ».

خفتُ من أن تغضب عايدة إن سلمت عليها وحدها دون سائر أهلها فأردفت:

«-لا تنسى كذلك أباها السيد شداد، وأمها المحترمة، وحتى أخاها حسين والصغيرة بدور. . ».

«-مبلَّغ إن شاء الله. وماذا بعد؟. . ».

«- اطلب من عايدة رقم محمولها. . قل لها إن التواصل معها عبر الهاتف الثابت أضحى في المدة الأخيرة غاية صعبة. أُكلمها في رقمها القديم وأسمع رنين الهاتف ولا أحد يجيب. أسمع الرنين المتتالي يتردد في فراغ قصر أبيها من دون أن يبادر أحد إلى الإمساك بالسماعة رغم وفرة الخدم. هل هو أمر من أبيها أم إن عايدة شاخت قبل الأوان وثقل سمعها؟. لست أدري. . المهم أن تحصل على رقمها الشخصي بأية وسيلة كانت. . ربما نفعت الرسائل الإلكترونية القصيرة بعد أن فشلت تجربة الرسائل المكتوبة باليد على الورق وبالمداد الأسود. . حتى البريد الجوي المضمون لم يعد ينفع، بل إنه السبب في افتضاح أمري مع المدام. . ».

كنت قد أفلحت بعد جهد جهيد في إقناع عشيرتي بأن عايدة مجرد امرأة مثقفة تهوى تبادل الأفكار بواسطة المراسلة مع عامة الناس وليس معي وحدي. وفكرت في إخبارها بحقيقة تعرفي إلى بنت القاهرة أول مرة، إلا أني تراجعت ليقيني بأنها لن تستطيع استيعاب ذلك، فعنّ لي آنذاك اختراع فكرة حصولي على عنوان عايدة من مجلة مصورة. ومع ذلك كم مرة رجعتْ رسائلي إليها مطبوعة بأختام شتى وقد كتب عليها "مجهول "فتتسلمها الزوجة باهتمام مرتاب. . وحينما تفتحها وتقرأُها تنتابها أكثر من علامة استفهام. ومن حسن الحظ أني لا أضمّن رسائلي كلمات الغرام الصبيانية كما في العهد القديم. فقد تولّى ذلك الزمن إلى الأبد، وإنما هي كلمات الشوق التي لا تشيخ أبداً، أضمخها بعبير سنوات ماقبل الألفية الثالثة. عبد القادر يفهمني بالطبع لأنه عجوز مثلي، معنيّ هو الآخر بنفس الشوق، أما المدام فلا تكاد تفهم الجمل السديمية التي أنحتها لعايدة من قبيل: "أنت المطلق الأصيل الذي لا تحده حدود"، و "أنت الصمت نفسه وقد عبَر المسافات الزمنية والمكانية حتى غدا صمتاً ناطقاً". تقرأ تلك الألغاز وتعيد قراءتها فتسألني بحسن نية عن دلالاتها. وحينما أشرح لها المقصود مستعيناً بنفس الكلمات الواردة في الرسالة لا تصل أبداً إلى مرحلة الإدراك التام.

وعاودتُ الطلب برغبة جامحة:

«-ألح عليك يا شريكي في المغامرة كي تحصل على رقم هاتفها المحمول لعله ينفع في تفادي موقفي الشائك! . .».

«- سأبذل قصارى جهدي وإن كنت لست متيقناً من النتيجة. أنت تعرف أن عائلة عايدة غيرت مقر سكناها في المدة الأخيرة حسب معلومات بعض المقربين منها ومن قصر آل شداد، ثم إن فروع العائلة الكبيرة تشتت في البلد، وحتى عايدة نفسها لا أدري إن كانت قادرة على مغالبة إغراءات فرنسا من أجل التردد على القاهرة خلال العطل . . وفوق هذا وذاك أنت على علم بكمٍّ البشر الذين تعج بهم القاهرة، وزحمة المواصلات، وتعقد الحياة الجديدة . . ومع ذلك سأحاول . .».

«- بل يجب أن تنسى كل شيء إلا الحصول على رقم المحمول. ثم إن القيمة العظيمة التي أضحت تمثلها عايدة بالنسبة إلى من هم في مثل سننا وظروفنا لا تخفى عنك يا عبد القادر . . قم بالواجب باسم صداقتنا المقدسة! . .».

«- اطمئن يا سيدي . . أنت أدرى بي كيف أتصرف في مواقف الحصار . .».

«- والآن دعني أنام الله يرحم الوالدين . . وسافر مع السلامة . .».

وحينما شكرني عبد القادر وقال لي إن سلامي مبَلَّغ بإذن الله تخيلته يقهقه عالياً وهو يضع السماعة . .

وأطفأت ضوء الأباجورة وأسلمت رأسي للوسادة. آنذاك تمكن مني الأرق. حضرتْ صورة عايدة وتسلطت على مخيلتي إلى أن بدا لي كأن الفجر بدأ يبزغ. تذكرت كيف رأيتها أول مرة مرأى العين وأنا بعد شاب يافع أيام اشتغالي مساعد كُتْبي في مكتبة منغرسة بين دروب تطوان العتيقة. وفي زمن اشتد فيه انصراف الناس إلى الآجرّ والإسمنت لاحظت بحسْرة كيف أن رواد المكتبة يتناقصون يوماً بعد يوم، وشهراً بعد شهر . . ومع تناقصهم تزايد خوفي من أن أطرد من عملي فأحرم بذلك من مصدر رزقنا الوحيد أنا والأم الأرملة وأختي اليتيمة. وكنت أزجّي لحظات الحسرة وانتظار الزبناء بتصفح الروايات ودواوين الشعراء المحيطة بي من كل جانب. وذات أمسية من أمسيات الخوف انبعثت من بطن الكتاب الذي بين يدي فتاة فاتنة الجمال، رشيقة وعصرية، كلها ضوء وبهجة. وقفتْ قبالتي ونورت ابتسامتها كل الدائرة المحيطة بها. قالت لي:

«– اسمي عايدة بنت آل شداد . . فتاة من القاهرة في عمر الزهور . . أنا السحر نفسه . . أنا الثراء والحياة الوديعة الناعمة . . أقرأ عليك السلام العطر وأهبك مفتاح السعادة الأبدية . . وكلما ضاقت بك السبل وشعرت بالتشتت تَذكَّرني وَتذكَّر عائلتي الصغيرة والكبيرة ومقر سكناي وهالة الضوء المحيطة بها دوماً! . . » .

ومند تلك اللحظات المضيئة انطبعت صورة عايدة في أعماقي إلى الأبد . وحدث بعد ذلك أن المكتبة بارت فأُقفلت ثم تحولت إلى متجر أحذية فحرمت من عملي . ومع ذلك لم أتقاعس وإنما شمرت على ساعد الجد وخضت عباب الحياة الجديدة مع الخائضين الجدد . مارست التجارة واشتريت العقارات فتحسنت أحوالي . ثم تزوجت و أنجبت . وفي لحظات الشدة كنت أتذكر ابتسامة عايدة وقد غدت مع توالي السنين بلسماً شافياً وحافزاً معيناً . وبعد أن شخت واستطبْتُ جلسات الراحة مع خلاّن العمر الفتي وأصحاب التجارة بحت لهم بالسر الدفين حتى عرف الجميع علاقتي بعايدة وألفوها . والطريف في الأمر أن وجه بنت القاهرة ظل دوماً فتياً ومثيراً رغم سمات الهرم التي توالت عليّ مع مرور الأيام، ومن المؤكد أنها توالت عليها كذلك . لذا لم يكن من الغريب في هذه الفرصة السانحة أن أطلب من عبد القادر قراءة سلامي على بنت الضوء وهو يعرّج على القاهرة، وأن يعمل كل ما في وسعه من أجل الحصول على رقم محمولها، إذ ربما تمكنتُ عن طريق هذا السبيل العصري من تجديد العهد الغالي، ربما . .

لوحة السعادة

عائشة موقيظ

كم إنني غبي!

كيف تقدمتُ إلى "بعاير" كي أذكّره بوجهي بعد طول الغياب؟! هل كنت أنتظر منه شيئا؟ أن يصافحني بحرارة مثلا وهو يقول (آ . . أجل أجل . . أنت صاحب لوحة السعادة!)؟

لم تنكرني عيناه المخبأتان خلف الشحوم، إذ ليس بإمكانه نسياني، ذلك أنني كنت أول من سخر منه كما قال، لكنني لم أكن أعرف يومها . . هو طلب مني رسم شيء عن السعادة، ففعلت. وقد عرضت عليه أن ألّمع حذاء الطفل الراقص قليلا، لكنه مد يديه معا، أدارني حتى التصق ظهري بصدره، ثم ركلني مثل جحش! لم يكن أنيقا حقا عندما فعل بي ذلك، ثم لم نتبادل بعدها أي حديث، ذلك لأنني كنت شاعرا بالإهانة، فقد أخرجني وصفق الباب دون أن يمدّني بقطعة نقد واحدة.

- هل تعرف؟ كنت قد بدأت بالتفكير مجددا في البحث عنك.

قالها بلا مبالاة، ثم أردف زائغ العينين:

- أرغب بأن تعيد صباغة اللوحة.

- أية لوحة سيدي؟ السعادة؟

- أجل . .

- لكنك لم تكن ترغب ببقاء الطفل الذي هناك . ألم تحرقها بنفسك كما توعّدت؟

فرمقني بنظرة باردة ، ثم قال :

- أنت مجنون . كيف أحرق لوحة أنتجها شخص محترم؟ كان الخدم قد أخفوها في مخزن المؤونة لا أقل . ولذلك تآكلت منها الألوان . أرغب حقا في تعليقها بقاعة المؤتمرات . ألم تسمع شيئا عن مسؤولياتي الآن؟

- أي مؤتمرات سيدي؟ إن الطفل الذي بداخلها رث للغاية وغير لائق ، وأنت من أخبرني بهذا أول الأمر كله . . .

- سوف أرسل بعض الأعوان ليستقدموك .

كنت قد فتحت فمي لأقول شيئا ، لكنه مرق بسيارته بعيدا . وبدأت أشعر أنني على وشك الجنون ؛ كيف إنها لم تعد لوحة مهينة لشخصه كما قال مند عشر سنين؟ ! فقد كان الطفل الراقص سعيدا بالفعل ، وأنا لم أنجح في نقل فلسفتي كاملة إلى رأس "بعاير" ، حتى بعد أن أخبرته أن الأقدام التي تنتعل حذاء مفتوحا على الريح قد تشعر فعلا ببعض الحرج ، لكن أن يرفع صاحب الحذاء وجهه إلى الأعلى ، ويفتح فمه بأعرض ابتسامة ثم يرقص مغمض العينين في حركة سريعة على نغم لا يخمنه أحد ، فإن تلك هي السعادة .

كان الطفل يرقص على الطاولة ، في غرفة مضاءة بالشمع ، وكان خلفه جدار مهترئ . يا إلاهي كم كان سعيدا بثيابه المهلهلة وحذائه المعرى! كم كانت حركة قدميه قوية على الطاولة! وكم كان يحلو لي أن ألمّ سنا ضحكته على ضوء ذلك الشمع! كنت أنسى أحيانا أننا نحن الاثنين ، في ورطة ، فكنت أحك ريشتي على أنفه قائلا في دعابة :

- هيه . . كيف؟ لمجرد أنك حصلت على مكان دافئ داخل هذا البيت ، ستصدّ بوجهك عن الأصدقاء القدامى؟

هيا . . اخفض رأسك قليلا ، ما كل هذا الكبرياء الآن؟!

. . . عندما خرجت من بيت "بعاير" مغضبا ، كنت قد ندمتُ لأنني تركت طفلي

هناك، ثم لم أعد أنام بالليل؛ كنت أغافل العسس وأطوف حول ذلك البيت كالمجنون: كيف جعلته يضيع مني في ذلك المكان كله؟!

طوال كل تلك السنين، كانت حرقة الطفل قد حفرت مني عميقا داخل الصدر.

عندما أدخلني أعوان "بعاير" هذه المرة، وجدته جالسا ينتظر. قال إن عليّ أن أكون ممتنا بسبب كل هذا الحظ، فلوحتي ستعلو على رؤوس الحكام القادمين من كل بلد. أبقيت على فمي مقفلا، ثم تبعته، إلى مخزن المؤونة.

في البداية، كان قد هالني ما رأيت؛ ذلك أنه لم يكن مخزنا حقا، بل كان أشبه بمدينة عامرة، كان يضم مؤونة تكفي نصف شعب، لكنني لم أكن قد أتيت من أجل ذلك.

أزاح "بعاير" بعض الأغراض بضربة قدم، ثم سلّ اللوحة من مكان جانبي. كانت قد غدت رمادية مستحيلة على الرؤية، لكن "بعاير" قال إنه يريدها جاهزة قبل أسبوع، ثم رفع عينيه فجأة وسألني:

– أما زالت معك تلك الريشة المعقودة بشرائط السكر؟

– أجل سيدي. .

– وعمّرت كل هذه السنين؟

كنت أعرفه جيدا، عندما يطرح إحدى أسئلته الساخرة، يغيب، قبل سماع الجواب. كان قد بلغ باب المخزن بخطوه، قبل أن يستدير آمرا:

– أعد خطوط اللوحة مثلما كانت من قبل!

كان طفلي متواريا خلف الغبار، ضوء الشمع وحده كان يبدو غائما من بعيد، وشعرت أنني أود أن أبصق في كل لحظة، الطفل لم تنمح ملامحه تماما، والحذاء أيضا. . أصل المشكلة! الطاولة هي الأخرى حافظت على ألوانها. لم يتآكل شيء كما ادّعى "بعاير"، والغرفة أيضا. . كم إنها عجيبة خلف ظهر الطفل! السترات القديمة التي هناك موضوعة بعصبية كما لو أنها رميت على المشجب في لحظة غضب، والوسادة البنية تدلت على حافة السرير، ولكن النافذة مازالت بنفس الخضرة كما لو أنها نُقلت من خربة مقدسة! والسيد "بعاير" لا يذكر شيئا عن كل هذا. لم يثر حفيظته سوى ذلكَ الحذاء قائلا إنني قد سخرتُ منه، ثم اندفع باحثا بين ثيابي عن الريشة، وعندما لم يجد شيئا، قرب فمه من أنفي وصرخ:

- أين هي؟ أنت قلت لي إنك رتبت شعيراتها من وبر الكلاب، وأنا كنت مأفونا عندما وثقت بك! وبر الكلاب؟

.. الآن ما تزال ريشي بجيبي، أحنو عليها كشخص عزيز. إنها هي التي رفعت هامتي عاليا في كبرياء، فأنا لم أذق طعم الجوع منذ سنين، كما أن شعيراتها لم تنحن، هي الأخرى، بفعل الزمن، ذلك لأن وبر الكلاب ليس من صوغ أحد، وهي التي سأمحو بها الآن كل هذه السعادة.

سألغي ضوء الشمع أولا، ثم أسل ملامح الطفل بهدوء كي أستعيده أولا بأول، سأعوض الشمع بترسانة

من المصابيح، ذلك لأن ضوء الشمع يجعل الأشياء أكثر دنوا؛ إن وضع أحدهم أذنه على اللوحة، فقد يسمع صوتا هامسا يناديه من الداخل. سأغير لون الحذاء ليصير أبيض براقا كالصدفة. وسأصل، قبل ذلك، بين مزقاته كما يفعل إسكافي حذق، ثم أضرب على جنبات الثوب المهلهل بلون أصفر واخفي الطاولة كي أجعل الطفل الذي هناك ينزل بقدميه إلى الأرض. سأجعله يتكئ بمرفقه، نكاية "ببعاير" على صوان أنيق كامرأة، ثم أدق ابتسامته قليلا من أجل أن لا يخدش شيئا داخل المؤتمر. وبعد ذلك، علي أن أهيئ قدر كوب من الطلاء الأسود، الأسود تماما وبلا شائبة، ثم أفرغه على رأس اللوحة وأدهن طويلا بوبر الكلاب . . . .

. . . .

السعادة كانت أن أستعيد طفلي من كل هذا المكان.

ألأنا أبله كي أتركهم يدقونه على جدار في المؤتمر؟

ملائكة يتساقطون من أشجار الحب

الزبير بن بوشتى

عاودت التجوال أمس بين أدغال الرميلات وسيدي مصمودي، مرفوقا بجاك كرواك وملائكته المشردين "Les anges Vagabonds". عدت إلى حفيف الغابة أناجي ملائكتها المتساقطين في اصفرار الخريف من أشجار الحب. تائه أنا يستنجد بفلسفة المشائين في هروبهم من تفاهة الواقع المفعم باللاحب. تراني تركت ورائي أيامي تقايض اصفرار الابتسامة الكاذبة بحفنة ضياء خجلى من إطلالة المساء؟ وها أنا ذا أحضن زرقة لا متناهية في قران البحر بالسماء.

تطالعني صرامة صخر يشرئب لمعانقة المدى، لتقبيل غابات العرعار والصفصاف وقد لملمت رياح الشرقي فوضاها وجهة الغرب. غربهم حلمنا وشرقنا ملكهم. ولجاك كرواك أيضا شرقه. سافر إليه ليحدث قراءه عنه من طنجة.

في فقرة من رفيق تجوالي "الملائكة المشردون" Les anges Vagabonds يتعاطف كرواك مع القطط المضطهدة من طرف الفقراء في طنجة إلى حد ذبحها وأكلها. ضحكت، ليس من أكلة القطط في طنجة، وإنما من سذاجة جاكي (هكذا كان يناديه صديق طفولته وليام بوروز) الذي يبدو أنه لم يتسلح بفضول عشاق الشعوب للاقتراب من مجتمع مدينة لم يستقر بها إلا ثلاثة أسابيع من فبراير 1957. لو فعل لكان له رأي آخر. ولاستنتج، مثلا، أن الناس في طنجة يصنفون القطط في مرتبة شبه مقدسة دينيا إلى درجة يعتقد معها العامة

أن الله منحها سبع أرواح . سرقني الأفق من حكي كرواك . استعطفت عن ملائكة جاكي المشردين بالتأمل والاسترخاء على صخرة متأهبة للإرتماء في البحر . أتأمل يأسي يداعب قصبة الوقت لاصطياد الأمل . على مرمى من موجة ، تسطع أمامي رمال شواطئ الأندلس . المشهد على ما يرام ، كما عهدته . على مشارف طريفة طواحين الهواء تصارع الرياح مقايضة ملحمة دون كيخوطي بمولدات الطاقة الهوائية . لاشك أن طارق ابن زياد كان يحلم ، وهو يقف على هضبة هذا الهباء ، بفتح أبواب الفردوس المفقود . على مبعدة مني في السفح عند الشاطئ نصبت خيام خضر يقطنها رجال بلباس العسكر . بعثوهم لحمايتنا من أحلامنا . رفعوا العلم خفاقا ، والصوت في أجهزة الإعلام . يحثوننا أن تريثوا فالتوقيت حسب كرينيتش غير مناسب ، و "طارق الذي لم يفتح الأندلس"(1) لم يأذن بعد لقوارب الأموات بالعبور إلى ضفة الأحياء .

"اعبروا المضيق آمنين!" صحت في اتجاه البحر . "حتى إذا سألوكم هناك : "من أين لكم بهذا الإرث من ثقافة الموت؟" أجيبوهم : "من شرقنا تستيقظ شمس صباحكم مبللة بعرق الآباء والأنبياء" . ازدادت حدة صراخي : أزيحوا عن جبينكم وصمة العار وارفعوا في وجه حرسهم المدني هذا الشعار :

"ضيق المضيق ووسع القلب" . Estrechar el estrecho y Ensanchar el corazón

رددوها مرات مرات وأنتم تسيرون إلى حتفكم ، أي إلى حتفي .

حتفكم حتفي ، إليه أمشي بدوري ، أسلك منعرجات الغابة البحرية ، تحت قدمي طريق الرومان يتوسل عابره أن خفف الوطأ ، فحجره رميم يتهدده الفناء . أبسبب عوامل التعرية وطوفان الأمطار وقساوة القيظ؟ أم بإهمال منا؟ يقظ أنا وإن لم أترجل منذ حول ونيف ها هنا . سأعبر وحيدا هذا النهر الجارف لمشاعري . أشجار تسامق انبجاس شمسي في ليل كياني . كومة صخر تذوب بين أصابيعي وها هي ذي الأنهار تجري رقراقة في عروقي . تسقيني روحا سلسبيلا وأحلاما لقيلولة بداية القرن . تذكرت أسلافي المتصوفة من الرحل : سيدي عبد الرحمان المجدوب ، سيدي بوعراقية ، سيدي أحمد بن عجيبة ، وقبل هؤلاء ابن بطوطة المبجل . . . وهل تشربوا مثلي هذا النعيم المفعم بالعزلة والاخضرار . لامعة هي أحزاني على صفحة الزرقة المطرزة بمراكب صيد تمخر أمواج العمر وعباب المصير . تلتقط للذاكرة غذاءها وللجسم شيئا من كائنات البحر . في هذا البحر فاكهة تحيا لتموت على شواطئ الندامى .

2

لم لا يكون تجوالي هروبا من تلك اللعنة؟ من ذلك الحب الموشوم باللاحب؟ وهباء في زحمة الأحاسيس؟ أم تراها أكاذيب ذكريات لتجار الحنين؟ أتذكر ذلك الشجن الذي تغنته كلماتي ذات صيف قائظ. يوم لسعتني الصدمة وكأنها أفعى بثت سمها في ترياق معسول والتوت حاضنة خصري تنهشه حبا. أحبة حنظل هي؟ أم تراني أبتلع حبها اللعين هذا جمرة تشتعل في قلب شمسي الطالعة إلى حتف غروبها. في ذلك المساء واسيتني بكلمات ادعت الشعر وما هي بشعر.

وما كنت بشاعر ولا ينبغي لي . . .
أهدتني ألمي
لم يزهر كلاما
بل عنف دمي
سكينها عزفت
سنفونية الغدر
على كمنجة ظهري
أزهر وردي
حجرا
يوم رتلت دمي
مع جوقة الكلمات
ألم يزهر حجرها
وردا
في مذبح اليمامات؟
ذبلت وردتي
في ريعان عطشها
كلماتي لا تعنيني

عطشها لا يرويني
دمي ،
ألمي
أزهر كلماتي
لست من يقرأ
تلك الكلمات .
سفود صمتها
يخيط مأساتي
حينما أعشقها
أنبذها فتنعشق
بعشق يصليني
فليحرق نيرون
قلاع قلبي
في معارك المؤامرات
تساءل شكسبير ذات مأساة :
" حينما يذوب الثلج
إلى أين يا ترى يذهب البياض؟ "

3

كانت كذلك أوهامي التي كلما تركتها ورائي كفوضى العقار في طنجة ، إلا وتقدمت خطوي وأنا أعبر أسير القلب ثقيل الذاكرة ، طريقا بسطه الرومان ودمره أناس من هذا الزمان . ها هي ذي ذاكرتي تتجاوز ظلي ، تسابق خطوي إلى اللامكان لتستلقي أمامي عارية إلا من بحر وأشجار فوق سرير غواية هذا الاخضرار .

من حيث ينساب النور تنساب الذكرى مفعمة باللاحب والآلام . أنا الذي شاء لها أن تكون على ما هي عليه الآن . طيف من أحلام يحضر بالغياب . غائب عني وإن كان أمامي

لحما ودما . لحكم من سراب ، حضور من غياب . قررت أن أمحيني من هذه اللعبة . أن أنسحب في نصف الجولة وأترك للحكم إعلان الفوز لصالح الغياب . ولينتحر الحب إن شاء ملقيا بنفسه من أعلى قمة جبل توبقال ، وليتلقفه إن شاء متصوفة العشق والترحال . أما أنا فقد عبرت نهر ميلادي من ضفته الأغسطسية متغنيا بزجل مختل الأوزان بعد أن استقالت القافية من سلك التفعيلة .

نصص النهار
وهرب من ساعتي
الوقت ،
ومعه إيامي
هربت .
لكبدا ف السما
عافيا زندت
ف جبين لما
مرايا دمعت
وأنا ف وهامي
حسبت
الدنيا حكاية
بلا تالي
تم طاحت
تم بقات
خماسي ف سداسي
ضربت
لقيت طران فاتني
ومشى علي لوقت

قالي مول لوقات
مللي شافني حزين
اسمع يا غشيم
أنا لفعة بلا رجلين
وإيامك ف سكاتي
زحفت
بين وراق ذابلة
من غصان حياتك
سقطت .

ها أنا ذا عابر في نهر ميلادي العابر على مرمى من شمس صبابتي وهي تحتفل بانتحار مساءاتي الأربعينية على خاصرة محيط عمري . شكوت آلامي لأيامي وهي تمتد أمامي بأماسيها الكاذبة وغدها المفتون بأسئلة تؤجج جحيم قلقي . كيف يشتعل ليلي وأنا على هضبة مرشان أتأمل الأقدام تتقاذف كرة؟ كيف لا أشمئز من صرخات المقهى وقد عكرت علي صفو التجوال في احتفائها بهدف سجله لاعب لاشك أن ثمنه سيرتفع صباح الإثنين في بورصة رق ماركتينغ القدم الذهبي .

4

ظننتك قمرا ترجل عن صهوة كبريائه ليمتح من تواضع التراب شيئا من عنفوان ضيائه . فإذا بك أنت ولا أحد غيرك بقادر على صنع خرابه . قمري لا ينساب ضياؤه وإن حضرت في غيابه . ضياء لم يعد مفتونا بنغمة جفائك . كيف بالله عليك تصنعين كل هذا الدمار بخدعة من كبريائك ؟ توسلت صوتي أن أعرض عن هذا السراب ، فالنار إن كانت للمعذبين جحيما ، فإن جنة هذا الحب لم تكن قط نعيما . ستعود رحلتي إلى ذاتي عبر هذا التطواف . سأغني لوعتي لعزلتي في هذا الانعطاف . سأعود إلى نفسي بعد هذه السفرة المخدرة . هيكل حب بعظام من أثير يقف شاخصا ليلقن دروس الحب لمن عاشوا الحرمان . بوذا علم عبدته أن لا إنسان بلا روح ، وأن الجسد عبء وجب التخلص من لعناته بمطلق التأمل/ هل قلت التعبد ؟

تركت لخطوي أن يسلك بي المشاعر ، يومي غروب ولا وقت للشمس حتى تحضن بأشعتها القانية آلامي . صرت أناشد طائرا فوق نخلة صبري عساه يعود إلى دفء عشه ويتركني وحيدا أتلظى لوعتي يوم غنيت لعينيها .

قلت :

عيناك ،
قاطعتني ساخرة :
جابو لهوا من شيشاوا
استرسلت :
ترحال
يأسر متاهي
مدام
لنشوة أيامي
حبك ،
عناقيد عنب
غازلت حباتها
يداي
قطفت اليانع منها ،
آهاتي
قضمت الناضج منها ،
شفتاي .
عساك في مداك
تصيرين
ربة للحب

تؤمنين
بإله أوحد
لخمر الوجد
وملاكا عساني
أطير
في ملكوت ديونيزوس.(2)
من عنب اللذة
أعتصر
لعينيك خمرة
أسقينا المعتقة منها
نبيذا للرغبة
في جرعة نشوى
بموت الآهة
في جسد الرعشة.
سكرتي أنت
وكبريت لوعتي.

ظننتك قمرا ترجل عن عرش ضيائه ليعتنق ملة الحب الذي نحن دينه. فإذا بالقمر لا يعرفك ولم يكن ليعرفك لولا اعتناقي لديانة الأوهام. آمنت برب الحب يوم عرفتك. ولو أن القمر لا يعرفك فقد أحببتك. أحببتك مرتين:

مرة وأنت عن صهوة فرحك الحزين تترجلين. وثانية وأنت من ضياء القمر تتجردين، لتقفي أمامي عارية على ضفاف الياسمين. آه كم كان هذا الحب شريدا. آه كم كان حاء حبك حرماني وباؤه بلائي. آه ثم آه من هذه التنهيدة العنيدة.

هوامش:

(1) عنوان قصة قصيرة للقاص المغربي مصطفى المسناوي.

(2) Dionysos إله الخمر عند اليونان. هو باخس الرومان. رافقت أعياده احتفالات سكر وخلاعة.

بائع الأحذية الجلدية

فؤاد العروي*

ترجمة : عبد المجيد نوسي

حكى إدريس الشرايبي، سابقا، حكاية بائع الأحذية الجلدية بفاس القديمة. كان الرجل يفتح دكانه صبيحة كل يوم ويشرع في عد حبات سبحته بكل هدوء. حين يتقدم زبون، يستقبله التاجر بأدب جم ويعرض أمامه كنوزه إلى أن ينتهي اللقاء بالتوافق بين الزبون والبائع بعد الأخذ والرد الذي يعد تقليديا في عملية البيع والشراء. فور الانتهاء من العملية، يغلق التاجر دكانه ويتوجه صوب بيته. وكان لا يعود إلى دكانه إلا بعد أن ينفق كل ما حصله من عملية البيع التي قام بها. وبما أنه كان يرضى باليسير، فإن الدكان كان في غالبية الوقت مغلقا.

مفتتنا بحكاية هذا الرجل الهادئ، اغتنمت فرصة مقام طارئ بفاس (قصة جواز السفر) لأكتشف المدينة القديمة على أمل اللقاء به.

الدكان الثالث كان الوجهة الصائبة. كان هناك. إني أحسه. لا يمكن أن يكون إلا هو. استندت بظهري إلى حائط وطفقت أتأمله. هذا إذن هو المنشق، الرجل الذي يرفض

---

* LAROUI, Fouad: "Le marchand de babouches", in *Le maboul* nouvelles, Ed. Julliard, Paris, 2001, p. 75.

زمنه . للأسف لم يكن لدي متسع من الوقت لأنتشي طويلا . في دقائق معدودة، أمام ناظري، استطاع أن يبيع زوجين من الأحذية، ومع ذلك ظل يراوح مكانه . لقد انكسر أفق الانتظار . منهكا بوهم خادع، توغلت في الأزقة الضيقة للمدينة .

كما هو معروف، أزقة فاس القديمة تكون متاهة، سأضيع فيها، سأعود أدراجي للتو، أدور في دائرة مغلقة . بعد انصرام نصف ساعة تقريبا، وجدت نفسي مرة أخرى أمام دكان تاجر الأحذية . دنوت منه لأطلب منه أن يدلني على الطريق . بطبيعة الحال، تجنب الرد عن سؤالي فورا . سألني إن لم أكن بالصدفة ابن القائد زيان، المحظوظ الذي تزوج البنت البكر للكتاني، استغرب لردي بالنفي ودعاني لتناول الشاي معه . طيلة مدة احتساء الشاي، كان يحكي لي حكاية الدار البيضاء، مدينة المتوحشين، وعلمني بعض الأمثال التي مازلت أستعملها . متسلحا بجرأة كبيرة، حكيت له حكاية بائع أحذية الجلد . صمت طويلا . كانت عيونه ممتلئة بالحزن . حينما تكلم كانت نبرة صوته خافتة .

– إني أملك دارا جميلة وظليلة، لا أتردد عليها إلا نادرا . غير أني لا أحب مع ذلك شيئا أكثر من احتساء الشاي داخل صحن الدار مع الأصدقاء الأوفياء . ولكن يجب أن تعتبر هذا : لي أبناء، بفضل الله تعالى . يلبسون مثل ما تلبس ويتكلمون لغة هؤلاء الفرنسيين الملاعين . يبصقون في وجهي – أنا، الذي يعد أبا لهم ! – حين لا يجدون الراديو، التلفاز وكل أنواع الآلات التي امتنعت عن فهم المعجزات التي تحققها . والآن قل لي : كم هو عدد أزواج الأحذية الذي يكفي لا قتناء جهاز تلفزيون؟

ودعته معتذرا، لأنه تبين لي جيدا أن نزواتي جعلته حزينا . غير أنه هز كتفيه استخفافا .

– لا بأس . ذكرني، ما هو اسم الرجل الذي روى لك هذه الأكاذيب؟

– الشرايبي .

– آه ! إنها عائلة كبيرة من فاس . . . غير أن صاحبك هذا يبدو لي أنه غريب الأطوار وخطير . ربما يتعين عليك الذهاب للعيش داخل رأس الشرايبي هذا . ستكون هناك أحسن من هنا .

المثقف العربي والتنوّع الثقافي
رؤية مستقبلية*

محمد مصطفى القباج

حين هلَّت العولمة في العقدين الأخيرين من القرن الماضي معزّزة بتكنولوجيات الإعلام والاتصال المتقدمة، وبنظام جديد في مجالات السياسة والاقتصاد، بزغت آمالٌ عريضة وبشائرُ واعدة في أن تدخل الإنسانية عهداً من الرخاء والسلام يعُمُّ دولَ المعمور، لا فرق بين غَنيِّها وفقيرها لقد عمَّ بالفعل شعورٌ بأن الحُلم الذي راود الكثير من المفكرين والفلاسفة بَانبثاق آلية كونية تُعجِّل بإقلاعة حضارية يستفيد من خيراتها الجميع، ويتحقق بها تقدُّم تَرفُل في ظلّه الشعوب قاطبة، هذا الحلم أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يتحوّل إلى واقع ملموس، لكن سَرْعان ما انتبهت البشرية إلى الوجه الخفيّ من العولمة وهي تُكرِّس هيمنة الرأسماليّة المتوحشة تحت أولوية الليبرالية الجديدة، وعلى يد الشركات الكبرى متعددة الجنسيات، العابرة للقارات بتحويل العالم إلى سوق تجارية كبرى تحكمها الحاجيات الاستهلاكية المُنمَّطة والموحَّدة فازدادت الدول الغَنيّة غِنى وازدادت الدول الفقيرة فقراً،

---

* نص البحث الذي شارك به الأستاذ محمد مصطفى القباج بانتداب من المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب في ندوة "الكاتب العربي وحورا الثقافات"، المواكبة لاجتماع المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، بمدينة العريش حاضرة صحراء سيناء بمصر من 2 إلى 4 يونيو 2007.

وأصبح كل ما يبدعه الإنسان سلعه مُعلّبة بما في ذلك منتجات الثقافة والفنون والإبداعات الأدبية . عمّق المأساة ظهورُ قطب هَيْمَني أُحادي تُمسك بخيط قيادته الولايات المتحدة الأمريكية ، وأمسَى يتحكم في مصائر الدَول والشعوبَ ، ويُجبرها على الاقتداء بنموذجه الاقتصادي والسياسي والثقافي على أنه الكفيل بولوج الديمقراطية والحداثة ، بل بات هذا القطب الأحادي يُعطي لنفسه الحق في معالجة القضايا الدولية بالمعايير التي يرتضيها دون غيره ، محتكرا مؤسسة القانون الدولي هيئة الأمم المتحدة ، يُملي عن طريقها السُلوكات ، ويَفُضّ المنازعات ، ويَفْرضُ العقوبات ويُشهر الحروب العلاجية والوقائية والمحصّلة كانت هي اتّساع نطاق بؤر التوتر وأجواء العنف والعنف المضاد ، أصبح الموت يصول ويجول في أرجاء المعمور والشّرخ يتعمّق بين الثراء الفاحش والعَوَز المُدْقع ، أصبح الفقر والإرهاب توأمين يشكّلان حربا غير تقليدية ، وُلدا من رحِم المظالم الدولية .

في خضمّ هذا المشهد الكوكبي المرتبك والمتفكّك تجبّرت السياسات البليدة ، وتنمّرت الطوائف الدينية المُخدّرة المُؤَفْيَنة ، إعلاناً عن فشل العولمة في ضبط العلاقات الدولية وكادت أن تُجهز على التراث القِيَمي والجمالي والفكري هذا الواقع الجديد كان هو الدّاعي الحقيقي لظهور التيار المتبني لحَماية التنوّع الثقافي للحدِّ من جبروت النظام العولمي القائم على التنميط البئيس .

فتح المثقف العربي عينيه ليُحدّق في معالم هذه الأزمة التي تعصف بالعالم وكان عليه من موقعه الحضاري أن يحاول فهم ما يجري لصياغة وتأطير علاقاته بجبهتين- جبهة داخلية وجهوية ، وجبهة خارجية كونية .

❑ ❑ ❑

على الجبهة الداخلية والجهوية اختار المثقف العربي أن لا يخوض في متاهات المقاربة الأنثروبولوجية للثقافة لأن ما يعنيه بالأساس هو الدّور المنوط بالثقافة العالمة في كل تجلياتها الفكرية والجمالية والمعرفية ، وبما هو مخزون في ذاكرته العقلية والوجدانية ، وجد هذا المثقف نفسه وفي راهنيته يعاني حالة من العطالة مشلول القوى لا يقدر على أي فعل حاسم . ولّى الزمان الذي كان يضطلع فيه بأدوار التحريض والإخصاب ، مُصغياً لنبضات المجتمع وتطلّعات الجماهير الواسعة ، يتأثر بالأحداث والوقائع ولا يؤثر فيها . لم يعد يملك أي يقين يُسعف في تحريك السواكن ، تنازل عن سلطه المعنوية ليستقيل ، وبسهولة مُدهشة ، من مسؤولياته في مواجهة سلطة السياسة والسياسيين ، وسلطة حُرّاس العقائد والمعابد ،

عوض مواقف النفي الشجاع المُحفِّز على التحدي إلى سكينة الحياد الذي يتيح المكاسب والمنافع.

المثقف العربي، في يوم الناس هذا، أصبح آلة لإنتاج خطاب تنميقي خَجول، ولم يعد له فعلٌ لإحداث التغيير، بل لم يعد يقدر حتى على استعارة المرجعيات التنويرية واستنبات بذور الحداثة وتجذير الاختيار الديموقراطي في الوعي العام، صار المثقف العربي يلوك خطاب الأشباه والنُّسخ المشوّهة، تسطّح فكره وتردّى منتوجه الإبداعي الفني والجمالي.

تعمّقت أزمة المثقف باحتداد أزمة اللغة، واختلالات الهُوية التي أصابتها عللُ الانغلاق والتكلّس، لم تعد لأناه مرآة يتحقّقُ بها من صورته وبطانته الوجدانيّة وخصوصياته، تنضاف إلى هذا معضلة القراءة ومحدودية الترجمة. وعلى العموم ساهم هذا الوضع المتأزم في تهميش السياسي لكل ما هو ثقافي، والنظر إلى الثقافة نظرة قدحية دونية تترجمها هزالة ما يُرْصَد لها في الميزانيات والاعتمادات.

❑ ❑ ❑

على الجبهة الخارجية الكونية لم يرْقَ المثقف العربي إلى رتبة المُنتج واكتفى بأن يكون عقلا مستهلكا ومخيالا مُقلّدا، يتسابق للإصطفاف وراء مواقف لا تدعّم كينونته وأخلاقياته، ينحرف نحو المشاعر العدائية بشكل مجاني فما الذي يفيد هذا المثقف، باحثا أو مبدعا، أن ينحاز لتيار حماية التنوع الثقافي كما تتبناه أوروبا ضدا على الهيمنة الأمريكية الأحادية؟ وحتى عندما ينجذب لدعاوى الحوار بين الثقافات والحضارات والأديان لا يعي الرهانات، ولا يتلمس النيات والخلفيات، الأخطر من ذلك أنه في زمن اللاّعدل واللاسلم على الصعيد الكوني هو مثقف من أدنى الدرجات، وحتى إن فكّر أو كتب بلغة الآخرين ومنظورهم فهو دخيل وهامشي ولو أُغدقت عليه المكْرُمات والتنويهات.

أكيد أن تيار حماية التنوع الثقافي قد ينفع ثقافتنا العربية، إن لم أقل ثقافات كل قطر من الأقطار العربية، ولربما يستوعبنا هذا التيار لتعزيز مصداقيته وصلاحيته، لأن فكرة التنوع الثقافي في المطلق هي بداهة وجودية وأخلاقية، وأكيد أن افتقاد أي مُركّب من مُركّبات ذلك التنوع مَدعاةٌ لاختلال توازن الأنساق الثقافية.

نقطة الضعف في تيار حماية التنوع الثقافي -كما صاغت تصريحه وميثاقه بيروقراطية المؤسسات الدولية، ومن وجهة نظر المثقف العربي- أنه مشروط بحق كل شعب في أن

تكون له ثقافة مميزة، وأن يسعى إلى تنميتها والمحافظة عليها وأن يفرض احترامها، ولكن لا يحق له أن يتحكم فيها بالتجديد أو التطوير لاعتبارها من الرصيد التراثي المشترك للإنسانية، ولا يحق لثقافة دول الجنوب بخاصة أن تخترق حدودها وأن تتطلع إلى التفاعل الإيجابي مع الثقافات الأخرى تأثرا وتأثيرا، وإذا حدث أن اخترقت حدودها فعليها أن تتنازل جزئيا عن خصوصياتها وقيمها لتنصهر أو تندمج في ثقافة الوسط الجديد الذي هاجرت إليه. بمعنى أن قيمها وسلوكاتها مرفوضة بدعاوَى مختلفة أذكر منها العلمانية على سبيل المثال لا الحصر. والصَّهر والدَّمج عمليتان للإجهاز على اللاشعور الجمعي للجنوبيين. من ثمَّة فإن ثقافات الجنوب بربرية وثقافات الشمال مُتحضِّرة بالمفهوم الأنثروبولوجي المدعَّم بالنزعة الغربية المُتمركزة. ثقافات الجنوب منغلقة على نفسها، متعصّبة لقيمها، متطرفة في مواقفها، لذلك تستَنتج طائفة من الباحثين في أوربا وأمريكا أن مواقف الجنوبيين عدائية صدامية. طبعا أستثني من هذه المواقف المنحازة اجتهادات علمية موضوعية في الغرب تستحق كل التقدير.

ثقافات الجنوب مُستهلكة لا مُنتجة، ليس عندها ما تفيد به ثقافات الشمال، إنها بضاعتهم ردّت إليهم، يتجاهلونها وبالأحرى يجهلونها بقصد، ولا يحجمون عن الحكم عليها بأحكام جائرة مجانبة للصواب، من العامة والخاصة، من القواعد والقيادات. يفرض الشمال على الجنوب، ونفرض على أنفسنا نحن أيضا، أن نعرف الشاذة والفاذة عن الغرب الأوربي والأمريكي فكرا وأدبا وفنا وقيما، وأن يكون لذلك حضور في أنساقنا التعليمية، ويرفضون أن يكون فكر وأدب وفن وقيم الجنوب متداولة في الشمال فبالأحرى حاضرة في الأنساق التعليمية.

لذلك فإن موقفنا كمثقفين عرب من تيار حماية التنوع الثقافي موقف إيجابي، ولكن هذا لا يحول دون أن نعبِّر عن تحفظاتنا من حيث إجرائيات تنفيذ هذه الحماية دون تمييز بين الجنوب والشمال لا يملك المثقف العربي إلا أن يحفز الدول العربية للانخراط في التَّصريح والميثاق، ولكن لا بد أن يُحذِّرها من إجرائيات التنفيذ في عالم منشطر إلى دول منتجة ودول مستهلكة، دول حرة ودول تابعة، دول متخلفة ودول متقدّمة، دول الخير ودول الشر، دول صديقة ودول عدوة.

وعليه فإن معركة المثقف العربي على الجبهتين، الداخلية والجهوية من ناحية والخارجية الكونية من ناحية أخرى معركة ضارية من جرّاء النظام العالمي المختل وغير

المتوازن، نظام اللاعدالة واللاسلم، فهل للمثقف العربي تصور لما ينبغي أن يكون؟ هل يمتلك رؤية مستقبلية استشرافية لعالم الغد؟

❑ ❑ ❑

بالنسبة للجبهة الداخلية والجهوية هناك مؤشِّرات يمكن أن نستخلص منها انطباعا بأن أزمة المجتمعات العربية ستَحْتَدُّ أكثر مما هي عليه اليوم، إلا أن اشتداد الأزمات كما يُعلِّمنا التاريخ، يعني أن هناك مخاضا ستُسفر عنه تحولاتٌ جذرية تُغيِّر الأوضاع. والذي يتجلى من ما جريات الأحداث أن الذي سيكون بيده مفتاح تجاوز الأزمة ليس المجتمع السياسي، وليست الإدارة ولا الاقتصاد، ولكن نخبة مدنية ستعيد الاعتبار للثقافة وللمثقف كفاعلَيْن أساسييْن في اضرام ثورة ذهنية تُصَحِّح المسار الديموقراطي المتعثر، وذلك بتكوين مواطنة ديموقراطية، إذ لا ديموقراطية بدون ديموقراطيين. في إطار هذه القَوْمَة المدنية سيعود المثقف إلى أداء أدواره النقدية والتحريضية لتذليل الصعاب التي تقف في وجه التحوُّل الديموقراطي المُؤَمَّل، والذي هو مفتاح فك الألغاز ووضع اليد على الأسباب الحقيقية التي تقف حجر عثرة أمام البناء الديموقراطي سيعود المثقف العربي إلى القيام بمهمته في التنوير والتحديث ورفع وتيرة الإبداعات الفكرية والجمالية المحرِّكة للسواكن. ليس في هذه الرؤية ميل إلى تبني الأطروحة الأفلاطونية بتتويج الفلاسفة الحكماء منزلة السلطة الحاكمة في المدينة، وليس فيها توجُّه نحو هيمنة السلطة الثقافية على السلطة السياسية، ولكن ترشيد السلطة السياسية بما يتيح لها صياغة الرؤى والأهداف والغايات التي تؤطر الفعل السياسي فيتخذ مسارا مضبوطا يُوثِّق الخطوات نحو مدارج التقدم والرقي ويمتلك المثقفون العرب اليوم حوامل ووسائط تكنولوجية ستُسهِّل عليهم هذه المهام التغييرية بكل الفعالية المطلوبة.

ومن الواضح أن ترسيخَ الاختيار الديموقراطي يؤدي منطقيا إلى حماية التنوع الثقافي وما يرتبط به من قيم الاعتراف بالآخر والتعايش والتسامح والحوار، والانتقال بالهويات من حالة التكلُّس إلى حالة الانفتاح والتجدد إنها سيرورة تاريخية تنبثق من التحول الديموقراطي الداخلي الذي لا يمكن أن يفرضه أحد من الخارج بإملاء شروطه ونموذجه، لأن المثقف الحق لا يُقلِّد النماذج ولكن يُبدِعها مما يتوافق مع معطيات وخصوصيات واقعه المعيش.

❑ ❑ ❑

بالنسبة للجبهة الخارجية الكونية أصبح المثقفون العرب يعون أن اشتغال العقل الدولي منذ ستينات القرن الماضي بقضية التنوع الثقافي ووجوب حمايته يشكل منطلقا

لإعادة التفكير في الأفق الاستراتيجي بمنهجية تجمع بين معرفة وفهم الذات ومعرفة وفهم الآخر، وبتوجه إرادي لنبذ الفكر الدوغمائي ممّا يقوي طاقة الإبداع في جميع مجالات الإنتاج المادي والمعنوي، وقبول بداهة التطور المتصاعد والتجدد المستمر لذلك يعتبر المثقف أن التدبير هو الطريق السالكة إلى إضفاء سمة الإنسانية على العولمة الكاسحة، فيصبح المثقف الكوني داعية سلام لا خبير رعب.

ستكتسي هذه المقاربات الكونية مُسحةً أخلاقيةً وعمقا وجوديا يحولان دون استعمال النسبية الثقافية- على حد تعبير شيرين عبادي- كذريعة لانتهاك حقوق الرجال والنساء، والتركيز على فضيلة الابتعاد عمّا يُفرِّق بين الثقافات والاهتمام بما يجمع بينها من قواسم مشتركة متمثلة في القيم والمثل العليا وخاصة قيمة العدل وقيمة السلم. ولعل ما سيفيد الإنسانية ليس التحالف الذي يطلُب عونَ السياسة، ولكن التوافق بين الشعوب وحكمائها لإبداع سُلّم قيم كونية تحظى بالاحترام عقليا ووجدانيا، دون النزوع إلى توحيد قسري أو صهر أو دمج. تأسيسا على هذه التوجهات ترى شريحة من المثقفين العرب أن الحوار الذي نهلّل له ونُكبِّر لا قيمة له إذا لم يكن مبنياً على أخلاقيات ومواثيق شرف ووعي معرفي من المستوى الرفيع، لمقاومة موت الثقافات واللغات، وإبادة الأعراق.

ذلكم ما يقصده زميلنا روجي بول دروا Roger-Pol Droit بالقيمة الإيجابية للتنوع الثقافي، فما يريده المثقف العربي هو أن يتفاعل ليستوعب فتكون المُحصِّلة ثراء فكرياً وعقلياً ووجدانياً ينتج الإضافات التي تَنِمُّ عن عُمق الانتماء وجلاء الخصوصية. يستوجب هذا كله النظر إلى التنوع كدينامية توسِّعَ خيارات الناس وليس كنصوص تولد ميتة؛ توضع في أدراج القوانين الدولية، التي لا تُفعل إلا عندما تخترق، ولا تفيد إلا حين تحدث المأساة. هذا هو الأفق الكوني الذي ينبغي أن تسير نحوه الإنسانية وضمن منظور تواصلي، يُعلنُ المثقف العربي انخراطه فيه بصدد هذا المنظور بالذات أحيل على طروحات كارل بوبر Karl Popper وحنا أرندت Hannah Arendt ويوركن هابرماس Jürgen Habermas، طروحات وُفِّق هذا الأخير في عرضها بكل وضوح وتركيز في نص أساسي اختار له كعنوان: "أخلاقية المناقشة وقضية الحقيقة" (L'éthique de la discussion et la question de vérité) وبمفهوم مُسمَّاه العقل التواصلي الذي يستدرج الشخص لبذل مجهود تأويلي عقلاني لتحقيق إنجازات ميدانية حسب الاختصاص المعرفي أو المهنة أو أية مستهدفات كيفما كانت طبيعتها. وبالتالي فإنه بحكم هذا العقل التواصلي الحواري يمتلك الشخصُ

قدرات ومهارات تُكسبه مَلَكةً تُمكّنه من تحقيق مُستهدفاته بواسطة ما يحصل عليه من معطياتٍ عبر التواصلَ مع أعيان حقيقية أو مفترضة مستخدما في ذلك أساليب حجاجية. في كثير من الأحيان يُلجأ لهذه الأساليب لإبراز التوافقات أو اكتشاف القواسم المشتركة بين حضارات أو ثقافات أو معتقدات داخل الدولة الواحدة أو بين دول متعددة.

يُطلق على هذه القدرات والمهارات التواصلية مُصطلح "القوة التفاوضية" وما يقترن بها من عمليات الضغط وطرق الإقناع باللجوء إلى عمليات استدلالية أو برهانية للدفاع عَن موقف ما أو تبريره، والقبول أحيانا بتنازلات لتمكين الطرف الثاني من التفاوض أو التحاور من أجل أن يحقق هو أيضا بعض أهدافه ومصالحه لتعم المنفعة جَميع الأطراف. طبعا هذا الاستعمال الاستدلالي أو البرهاني، واللجوء للتنازلات يَتمظْهرَ في اللغة عبر مختلف وسائط الاتصال.

مما ينبغي التنبيه إليه أن العقل التواصلي الحواري يستوجب أن يكون المتواصل المتحاور حَذرا في اختيار الأشخاص أو الجهات التي تفرضُها اهتماماتُه وأهدافه مع انتهاَج كل قواَعد الاحتراس، ومن بينها الإقرار بأن أولئك الأشخاص أو الجهات تمتلك نفس القدرات والمهارات التواصلية، بل والنظر إليها كسلطة معرفية لاتخاذ مواقف أو اكتساب مصالح. يتجَلَّى من هذه الحرية التواصلية - بحسب تحليلات يوركن هابرماس - أن غاية كل طرف هي الوصول إلى اتفاقات مُبرهن عليها أو اكتشاف قواسم مشتركة تتحقق بها مصالح الجميع أو تساعد على التعايش في إطار حياة ثقافية أو اقتصادية أو سياسية أو عقدية بذلك وفي حالة المنازعات المسلحة أو المضاربات الاقتصادية أو المواجهات الحضارية والثقافية والعقدية تنتقي الأطراف وباتفاق مسبق حلولاً مقبولةً لأنها معقولة.

يندرج في إطار هذه الفلسفة التواصلية الحديث عن الحوار مع الآخر المختلف، وطبعا فإن الكلام عن الحوار ليس هو الحوار نفسه، الكلام عن الحوار يعني بالأساس التنظير الفلسفي من جهة أولى، وتوصيفَ شروطه وقواعده من جهة ثانية، وصياغةَ سُلّم من القيم التي تؤطرها أخلاقية مَا من جهة ثالثة. حتى الكلام عن الأخلاقية (Ethique) لا يعني حَصر القيم التي تخضع لها السلوكات والممارسات وهو المقصود بالأخلاق الفردية أو الجماعية (Morale) لا بأس هنا من الإشارة إلى التمييز الذي أقامه بول ريكور وهو مُحقٌ في ذلك بين الأخلاقية والأخلاق، فمن وجهة نظره "الأخلاقية هي المقاصد المُثلى التي تَتطلع إليها حياة مكتملة، في حين تعني الأخلاق التَّمفصُل الذي تتجلى به المقاصد المُثلى من قيم

ومعايير تتميز في نفس الآن بأنها ماثلة أمام إدراك الشخص، وتتسم بمفعول الأمر الإكراهي.

إن التواصل الحواري فعل ممكن داخل الدولة الواحدة لتَعايش أعراق وثقافات متعددة داخلها، أو بين أطر ثقافية أو عقدية تتجاوز الدولة الواحدة، كالحوار بين الثقافة العربية الإسلامية، وثقافات الغرب الأوروبي أو الأمريكي، أو بين ثقافات الغرب والثقافات الأسيوية، أو بين ثقافات الغرب والثقافات الإفريقية الخ. هكذا فإن الحوار يكون بين ذوات وآخرين مُختلفين، بمعنى أن الذاتية والاختلاف هما منطلقا أية علاقة تواصلية حوارية، يترتب على هذا المنطلق أن العلاقة الحوارية علاقة إبستمية وأنها تعتمد المعرفة النسبية وتنبني على المسؤولية الشخصية. ومن أخص خصائص العلاقة الإبستيمية أنها تندرج ضمن تعددية معرفية وثقافية لابد من الإقرار بها لإنجاز أي فعل تواصلي حواري. بعبارة أخرى فإن هذه التعددية تتيح منظورات تأويلية مختلفة تدفع أطراف الحوار إلى "تحقيق لا تمركز مُتدرِّج للانتقال من الذات أو الأنا إلى معرفة الغير أو الآخر المختلف .

هذه مجموعة أولى من الاستعدادات الخلقية الضرورية للفعل التواصلي الحواري.

هناك مجموعة ثانية تتعلق بمضمون هذا الفعل، ذلك أن أطراف الحوار تتبادل الأفكار لا الوقائع المعيشة، لأنه ليس المشروط في أي طرف أن يكون مشاركا للآخر في واقعه العيني، كلٌ طرف يترجم بواسطة اللغة واقعه للطرف الآخر، أي يتحوّل الأمر إلى توصيفات نظرية وإلى أفكار، من ثمة يكون على كل طرف أن يثق في مقولات ومنطوقات الطرف الآخر من حيث أنه ينقل واقعه بصدقية تعكس الحقيقة كاملة وهنا يشار إلى الجهود التحليلية التي قام بها (يوركن هابرماس) لمفاهيم المصداقية والحقيقة والمعقولية في العملية التواصلية. نستنتج من هذه التحليلات أن على أطراف الحوار أن تقبل وتثق في الخطابات التي تصيغ باللغة التجارب والخبرات المستمدّة من الواقع المعيش، وإلا فما الفائدة من الحوار؟ وليكون هذا الاستعداد واضحا في الأذهان نمثل على ذلك بالحوار الممكن بين مسلم وهندوسي، المسلم لا يمتلك تجربة أو خبرة بالواقع الهندوسي المعيش والمُدرك، والعكس بالعكس بالنسبة للهندوسي، فالمفروض فيهما وهما يتحاوران أن يثق أحدهما بمقولات ومنطوقات الآخر الواصفة لمضامين معتقدات وسلوكات وممارسات كل طرف.

مجموعة ثالثة من الاستعدادات الخُلقية تشكّل الفعل التواصلي الحواري تنطلق من

بديهية ناصعة وهي أن "الحوار في حدّ ذاته استعداد أخلاقي تتميز به المجتمعات الحداثية". بمجرد أن ينخرط أي طرف في حوار مع طرف ثان فإن ذلك يعني الخروج من دائرة الانغلاق على الذات. ومما يمكن استنباطه من هذه البديهية أن على كل طرف من أطراف الفعل التواصلي الحواري أن يلتزم بالحياد الوجداني، بعيداً عن أي تعاطف أو تنافر لمعرفة الآخر دون الحكم عليه، وبحياد وجداني يسعف في تحقيق التوافق وتجلية القواسم المشتركة لتعايش ممكن دون صراعات أو مواجهات.

انطلاقا من الاستعدادات المذكورة يبدو أنَّ الفعل التواصلي الحواري في الأنساق الفلسفية التي تناولته بالدراسة والتحليل وفي ظل ما جريات العصر هو الطريق السالكة إلى أمْـثلة (Idéalisation) العلاقات بين أطراف الحوار في صيغة ما تتطلّع إليه جميع الدول والشعوب ألا وهو استتباب سلم عالمي بالمبدأين الأخلاقيين السماحة والتعايش، إن أطراف الحوار مدعوة إلى التوافق على مُثل كونية شمولية بشكل معقول ومُبرهَن على صحته، حتى يكون تَبنّي تلك المثل بالاقتناع لا بالرياء.

وبعد، آمل أن أكون قد وفقت في أني عَرَضْتُ أمامكم بوضوح هواجس المثقف العربي، وأنّي عرَّفتكم، بتركيز شديد، على نظرته إلى التنوع الثقافي وحمايته وموقفه من الحوار بين الثقافات. هذا المثقف لا يعتبر التنوع والحوار هدفين في حد ذاتهما بل أداتان لغاية أسمى هي إرساء أمن ثقافي كوني يتأسس على الاعتراف المتبادل والتفاعل الإيجابي بين الحضارات، وهي الشروط المعرفية والوجدانية الضرورية لتحقيق تنمية بشرية مستديمة ومتوازية يستفيد منها جميع البشر في مشارق الأرض ومغاربها، شمالها وجنوبها تعزيزا لكرامة الشخص كيفما كان لونه أو عرقه أو دينه أو مذهبه أو ثقافته، تنمية تلبي احتياجات الحاضر دون المخاطرة بقدرة الأجيال القادمة على احتياجاتها وذلك بالمحافظة على الرأسمال الثقافي والرأسمال الطبيعي.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhr.com

شعرية القلق في مسرح محمد تيمد

مصطفى رمضاني

حين نتحدث عن المسرح المغربي بصفة الإطلاق، إنما نتحدث ضمنيا عن الوحدة في إطار التعدد. وهي مسألة طبيعية نظرا إلى تنوع التجارب واختلاف الحساسيات الفكرية والجمالية. وإذا كان من الصعوبة بمكان ضبط كل العوامل التي تساهم في ذلك التعدد كلها، فإننا لن نختلف في استحضار بعض العوامل الجوهرية، كالتكوين الثقافي، والمحيط السوسيواقتصادي، والعامل السيكولوجي، دون إغفال العامل البيئي، إذ يسهل على المتتبع الذكي الانتباه إلى بعض الخصوصيات التي يقتضيها السياق المحلي للإبداع كيفما كان نوعه أو جنسه.

وفي إطار تلك الوحدة، يمكن تسجيل توجه التجارب المسرحية المغربية في عمومها نحو التجريب. وتتأكد هذه الملاحظة بشكل خاص حين نستحضر مسيرة مسرح الهواة، والريبرتوار الغني والمتنوع الذي خلفه، سواء في شقه العملي أم النظري، على المستويات الفكرية والجمالية والمعرفية. وقد امتد هذا الغنى وذلك التنوع إلى كثير من التجارب ذات الطابع الاحترافي.

بيد أنه إذا كان التجريب سمة تطبع أغلب أعمال المسرحيين المغاربة، وإذا كانت صفة عدم الاستقرار عند منهج أو تيار معين هي التي تغلب على المسرح المغربي كذلك، مع

استثناءات قليلة طبعا، لاسيما مع المبدعين الذين تبنوا تيارات أو مواقف، ودعوا لها في تنظيرات صريحة أو كتابات تحمل بشكل خفي ما يشبه التنظير، فإن محمد تيمد يكاد يشكل حالة خاصة في خريطة مسيرة المسرح المغربي. ويبدو لي أن مرد تلك الخصوصية إلى سببين رئيسيين: الأول مرتبط بالجانب الفكري والثاني يرتبط بالجانب الجمالي. وهما معا يشكلان ما أسميه بشعرية الخطاب المسرحي عند محمد تيميد. وقبل أن أتحدث عن هذين الجانبين، لا بأس أن أحدد ما أقصده بشعرية الخطاب المسرحي. بإيجاز أقول إنها العلاقة التي تربط المكونات السينوغرافية داخل سياق معين بالتركيب الأدبي والدرامي للنص المسرحي، ليتكون عبر هذه العلاقة سياق بنائي محكم. وهذا السياق في حد ذاته هو الكفيل وحده بإعطاء الجمالية المتميزة للعرض المسرحي: أي هو الذي يتحكم في الفرجة. والجمالية هنا لا تلغي الموقف الفكري طبعا للنص، ولا لتلك الأدوات المؤسسة للعرض المسرحي.

لذا فإن شعرية الخطاب في مسرح محمد تيمد تتحدد انطلاقا من الفرجة كما يصوغها هذا المبدع. وأرى أن البحث في هذه الشعرية هو بحث في ذات الفنان تيمد نفسه، لأنها حصيلة تكوين الفنان وتجربته الطويلة مع الركح: كتابة وإخراجا وتشخيصا وإدارة.

أما فيما يخص الجانب الأول المتحكم في هذه الشعرية، فنؤكد أن تيمد ظل وفيا لتيماته الثابتة في أغلب أعماله. ورغم تعدد هذه التيمات يمكن أن نختزلها في تيمة واحدة، هي قلق الإنسان وبحثه عن الاستقرار، أو بحث الإنسان عن هويته المفقودة في ظل الاستلاب الاجتماعي. وحتى تتضح هذه الفكرة أكثر، سأعرج على مختلف الأعمال التي قدمها هذا الفنان منذ بداية رحلته الدرامية ولكن بشكل موجز. فباستثناء المسرحية الأولى التي بدأ بها مسيرته المسرحية - وهي مسرحية "النكران" -كما يؤكد ذلك هو نفسه، نلمس تيمة القلق تتضح شيئا فشيئا في أعماله التالية. ومن المؤكد أن فكرة القلق في حد ذاتها تحيلنا مرجعيا على الفكر الوجودي، وعلى التيار العبثي واللامعقول في الأدب والفن. ولكن هل يمكن أن نتحدث عن فكر العبث أو عن اللامعقول في مجتمع ما زال يبحث عن الخبز والماء وقليل من الكرامة؟ ففلسفة العبث وأدب اللامعقول نتيجة لظروف تاريخية عاشها الغرب خاصة بعد الحرب العالمية الثانية. فقد أحس الإنسان بالتشيؤ، وبأن ذاته أصبحت امتدادا للآلة والتكنولوجيا. لذلك كفر بالعلم والآلة والدين والأخلاق، وصار يؤمن بالذات الوجودية. من هنا كان موضوع القلق والحرية والعبث من الركائز الثابتة في تلك

الفلسفة . وكان إنتاج كامو وسارتر وسيمون دي بوفوار في الفكر والأدب نتيجة لتلك الفلسفة . وكان إنتاج يونسكو وبيكت وأداموف في الإنتاج المسرحي نتيجة لها كذلك . ولكن إذا كان إنتاج هؤلاء المبدعين الغربيين شرعيا وطبيعيا ، لأنه يعبر عن انتمائه الحضاري والفلسفي ضمن سياق فكري معين ، فما موقع تيمد ضمن هذه الفلسفة؟ وما مدى قوة شرعيتها أو معقوليتها وهو الذي ينتمي إلى بلد ما زال فيه البطن هو المرجع الأول والأخير للإنسان البسيط ؟

يجب التأكيد أولا أن موضوع القلق في مسرح محمد تيمد قبل مرحلة " حبال خيوط شعر " لم يكن ذا صبغة وجودية ، إنما كان يستمد فعاليته الفكرية من التناقضات السائدة في المجتمع . لهذا كان القلق عنده يبدو في كثير من الأحيان عبارة عن سخط وإدانة لمجتمع يطحن الفرد طبقيا ويصادره فكريا وإيديولوجيا . وتظهر هذه السمة في مسرحية " الساعة " التي حصلت على الجائزة الأولى في المهرجان الوطني التاسع لمسرح الهواة . فالقلق في هذه المسرحية هو قلق الإنسان الكادح الذي يناضل من أجل أن يحقق انتماء اجتماعيا ، يؤهله ليكون إنسانا بالفعل وليس إنسانا بالقوة .

إلا أن تيمد بدأ يتعمق أكثر في تيمة القلق ليصل إلى القلق الوجودي دون التخلي عن القلق الواقعي - الاجتماعي والاقتصادي - . ولا شك أن هذا التطور سيتضح أكثر في مسرحيته "كان يا ما كان" ، وهي مسرحية تعالج موضوع القلق من زاوية إنسانية تنطلق من حكاية أشخاص وهميين يعيشون في سجن وهمي ، ولم يجدوا وسيلة للخلاص من وضعهم القاسي غير الأحلام واللاشعور والكوابيس . وكان القلق يشكل سلطة الحوار رغم أن الحوار نفسه يجسد فكرة القلق ، لأنه حوار صامت غير ملفوظ : أي هو حوار الحركة والملل والحلم ، إلخ . . مما سيجعل المتفرج قلقا ومضطرا إلى مشاركة الممثلين قلقهم أو سخطهم . . .

وفي سياق معالجة المواقف الوجودية التي تنطلق من فكرة البحث عن الذات الإنسانية ، يطرح تيمد في مسرحيته " ما قال لك حد عينيك زورق " مسألة القلق الوجودي : كيف يعيش الإنسان؟ وما موقف الشعوب المستضعفة من هيمنة الشعوب المتقدمة وتسلطها عليهم اقتصاديا وسياسيا وثقافيا؟ وفيها يقدم موضوع القلق في شكل صراع بين ساحر وعالم حول كيفية إنزال القمر إلى الأرض . وبالرغم من الطابع الخيالي التجريدي الذي يوحي به الموضوع ، فإن تيمد قدمه بصورة فنتازية عجيبة ترغم المتلقي على الاستفزاز

والقلق، نظرا لالتقاء الوهم بالسخرية، والعلم بالسحر، إلخ. . مما يجعل السؤال هو سيد الكلمة عند الجمهور. والسؤال كما نعلم بداية البحث عن الحقيقة.

أما وضوح فكرة القلق الوجودي، فتمثله مسرحية "حبال خيوط الشعر". وهي تعالج كثيراً من الآفات الاجتماعية والإنسانية، كالبطالة والصراع الطبقي والحروب والدمار، وغير ذلك من الأمور التي تسبب المآسي الإنسانية. وتلتقي هذه المسرحية مع مسرحية أخرى في كثير من الجوانب الفكرية والجمالية. وهي مسرحية "رحلة في خيال جدتي"، وإن كان القلق الواقعي في هذه المسرحية أكثر طغيانا ووضوحا، إذ يطرح قضية الديمقراطية والملكية الجماعية من خلال تمثال جسد امرأة شارك في إعداده جماعة من الناس كل بطريقته الخاصة، فيحاول كل منهم أن يلح على أحقيته به. ولكن إذا كان طابع التساؤل والاستفزاز هو الذي يطغى في الجانب الفكري، فإن طغيان لغة الميم يجعل من هذا العمل امتدادا جماليا لمسرحية "حبال خيوط شعر"، ويمهد لأوج القلق بمختلف طبقاته في مسرحية "الزغننة": قلق سيكولوجي، وقلق اجتماعي، وقلق وجودي. فهي بحث عن الذات، وعن المجتمع وعن العلاقات الإنسانية، وبحث عن الوجود. لكن تظل سلطة الضياع حاضرة نظرا لانعدام صفاء العلاقات الإنسانية كما يؤكد بطل المسرحية نفسه: "لكني فقدت ثقتي ولست مسؤولاً على ذلك، هم دفعوا بي إلى فقدان الثقة"(1).

وقوله: الأرض هذه الكرة التي نلتصق بها كالحشرات، أما آن لها أن تلتحق بالشمس في اصطدام يذهب بهؤلاء القوم الذين يتآمرون على سلامتها"(2).

فالقلق جزء من الرفض والإدانة لمجتمع تذوب فيه إنسانية الإنسان. لذلك نلاحظ أنه قلق لا يقف عند حدود التعبير الطبقي عن الانتماء الاجتماعي المهترئ، بل يتعداه إلى محاكمة الإنسانية نفسها. فهي التي - في نظره - تخلق الحواجز والدمار من أجل تشييء الوجود الإنساني، وتعويضه بالوجود الآلي.

إن تيمة القلق في مسرح تيمد تبرز بمظاهر مختلفة. فتارة يشكلها الجانب السيكولوجي، وتارة أخرى يشكلها الجانب الاجتماعي والاقتصادي. ولكن في كل مرة نلمس طابع التشاؤم والرفض والسخط ونحو ذلك هو المحور الذي تدور عليه أعمال تيمد. ويبقى القلق سمة ثابتة هو المحور وعليه المدار.

من هنا إذن يتضح هذا الجانب التيماتي. وهو الذي سميناه بالجانب الفكري، لأن المبدع محمد تيمد ظل وفيا له، يكرر باستمرار، ولكن في كل مرة بأسلوب مغاير؛ وهو

الأمر الذي يجعلنا نقول بأن هناك نسقية في الموقف الفكري، ورؤية موحدة لما نسميه بالإبداع الشامل. بمعنى أننا حين نشاهد أعمال محمد تيمد نلمس وحدة الرؤيا. وهي التي تشكل في نهاية الأمر الرؤيا للعالم عنده. فالرجل يبدع إذن بوعي نقدي ممكن كما يسميه البنيويون التكوينيون، لأنه لا يقف عند ملامسة التناقضات الاجتماعية والطبقية للمجتمع، وإنما ينظر عمليا للوعي الممكن عبر معالجة قضايا ذات طابع إنساني و حيوي. ويظل الإنسان المقهور هو البطل الرئيسي الذي يصارع مجتمعا أو وجودا، أو ذاتا، أو غيرها من السلط التي تملك زمام الأمور، ليصير الإنسان ضائعا ومتشائما وساخطا. . . أي قلقا باستمرار. ووحدة الموقف، أو الوفاء للتيمة سيؤثر بدون شك على انسجام الموقف الفكري في سلسلة الأعمال المسرحية التي قدمها تيمد. وهذا الانسجام يكوّن في نهاية الأمر نسقا بنائيا متكاملا وموحدا داخل إبداعه المسرحي الشامل.

إن هذا الجانب الذي تحدثنا عنه يمثل الطرف الأول والأساسي فيما سميناه بشعرية الخطاب المسرحي عند تيمد. فماذا عن الجانب الثاني ؟

إن الجانب الثاني في هذه الثنائية هو الجانب الجمالي المحض والمرتبط بمكونات العرض المسرحي. وهي كل المكونات السينوغرافية والركحية التي تقدم بشكل غير لغوي فوق الركح. وأشير منذ البداية إلى أن هذه المكونات ينبغي أن تقرأ في سياقها الخاص داخل العرض المسرحي. وهي مكونات تلح كلها على تيمة القلق أيضا، مما يؤهل العرض المسرحي عند تيمد دائما ليكون عرضا مستفزا. فهو مستفز بالتيمات التي يعالجها. وغالبا ما تصب في المحرمات والممنوع كالجنس والصراع الطبقي أو ما يسمى أحيانا بالسياسة، وما إلى ذلك مما يلتقي عند مصب واحد هو القلق. ولكنه مستفز أكثر من خلال تشكيل العرض المسرحي بآليات تقنية مستفزة تلح على فكرة القلق، نحو الصراخ، والألوان الفاقعة والمثيرة، والتمويج الموسيقي الصخب، الإضاءة القوية بالألوان الحارة، أوالظلام المطلق، أوالتركيز عليهما بالتناوب وبشكل مقلق يثير إحساس المتفرج إلى درجة الغضب أحيانا، كما في المشهد الأول مثلا من مسرحية "رجل ورجل" حيث يبدأ الفصل الأول على النحو التالي :

. . . . يدخل شخصان أحدهما يحمل صندوقا كبيرا، يعبران المسرح بعياء، بعد خروجهما. ظلام.

تشعل الإنارة على نفس المنظر ولكن الصخرة جهة اليمين هذه المرة.

يمر الشخصان مرة أخرى .

ظلام .

إنارة ، شجرة تنبت قرب الصخرة .

يمر الشخصان ، ولكن الثاني هو الذي يحمل الصندوق .

ظلام .

إنارة على عقبة في اليمين ارتفاعا في الشمال .

يمر الشخصان ، الثاني يحمل الصندوق دائما فوق العقبة .

ظلام .

إنارة العقبة مقبولة .

يمر الشخصان ، الأول يحمل الصندوق .

ظلام .

إنارة على قنطرة مكسورة مهدمة . . . [3] .

والتركيز على الإنارة في أغلب أعمال تيمد له ما يبرر جماليا ، ذلك بأنه يلح على تكسير حتمية سلطة النص ، لأن النص المسرحي ما هو إلا مكون من مكونات العرض ، ولا ينبغي أن يشكل سلطة الأب كما كان الأمر في المسرح الكلاسيكي . وهو ما يذكرنا بمسرح القسوة عند أرتو . ففي "الزغننة" مثلا تصبح الإنارة شيئا أساسيا إلى جانب الديكور والإكسسوارات وآلة التسجيل ، رغم أن المسرحية فردية يقدم فيها الممثل الفرد كل الأدوار ؛ وهو ما يضطره إلى الإكثار من المونولوجات الطويلة لتصبح لغة الأدب هي الطاغية . ولكن مع ذلك يلح تيمد على خلق وشائج جمالية وفكرية بين المفردات الأدبية والمكونات السينوغرافية كما في هذا المشهد الاستهلالي الذي يبدأ بصراخ الممثل :

ـ لست حشرة ، أنا لست حشرة ، أنا شحنة من الأفكار والعواطف .

فبعد انتهاء الحوار تشتعل الإنارة على الحبل الذي يلتصق به الممثل المحدق في الأعلى ليقول :

ـ لقد أحسست الجوع

أكاد أموت من الجوع(4) .

فالتقاء الحوار الأدبي ولغة الديكور والإكسسوار والإماءة، يقدم صورة تشكيلية فوق الركح تعطي الأبعاد الفكرية للحوار الدرامي .

وهذا القلق الذي يقدمه الجانب السينوغرافي يبدو مبررا في أغلب أعمال تيمد . لهذا نحس بالصخب في تعامل الفنان مع الإنارة تجاه الجمهور . فهو يربط أحيانا بين فعل الإنارة وفعل الموسيقى الصاخبة أو الحوارات التي تأتي عن طريق الميكروفون أو آلة التسجيل . وهو أمر يقصد به تيمد جعل الملتقي يقظا قلقا مستفزا كما في هذا المشهد من نفس العمل المسرحي :

تنطفئ الإنارة ويسمع في الميكروفون الحوار التالي :

- لقد بحثنا عن الممثل فلم نجده، العفو لقد عثر عليه أحد الناس عندما كان يحاول الخروج، وهو الآن رهن الاعتقال، والرجاء منكم أن تأخذوا أماكنكم حتى نحاكمه على هذه الفعلة الشنعاء(5) .

والتركيز على آلة التسجيل وعلى لغة الإنارة يظل أمرا مألوفا عند تيمد، ذلك بأن الرجل يريد أن يلغي دور الكلمة كما قلنا . هذا من جهة، ومن جهة أخرى يريد أن يؤكد الجانب الفنتازي في العمل المسرحي . وهو مقصود جماليا لتوفير أسباب الفرجة، مادام الفنتازي عامة يثير الإحساس والعقل والإدراك . وكلما أثيرت هذه الملكات أكثر، ظل الإنسان يقظا أكثر، وقلقا أكثر، ومتسائلا أكثر . فتيمد وفاء منه لموقفه الفكري، يقدم نسيجا من العلامات المسرحية التقنية تصب كلها فيما هو غير معقول : أي فيما يعطي الفنتازي والغرائبي . فالإنارة المثيرة أو الظلام التام، والموسيقى الصاخبة وتعدد الألوان، والإكثار من الحبال واستخدام الكوابيس عن طريق آلة التسجيل، أو الألوان والدمى وخيال الظل، وتقنية السينما والآهات والحشرجات . . . كل ذلك يثير إحساس وعقل المتفرج . وما يطعم هذه الفنتازيا أكثر، لجوؤه إلى تيمات محرمة كما ذكرنا، وإلى لغة الخرافة أو الحكاية، كأن يركز على الحكي كما في ألف ليلة وليلة، فيقدم صورا من الخيال كحديثه الفنطزي عن خوارق علاء الدين ومصباحه السحري، و أفعال الجن والسحرة، وحكايات شهرزاد لشهريار وبلاد العجائب، ليتحول هذا الوهم إلى حقيقة حين ينزل شهريار إلى الجمهور وهو حامل الخنجر الذي طعنته به شهرزاد ويردد وسطهم :

- لقد طعنتني اللعينة، أقبضوا على شهرزاد أيها الحراس (6).

وينتهي الحوار بخطاب يأتي عن طريق آلة التسجيل يحكي عن صراع الشيخ مع العفاريت في أرض السنديان، حتى يخرج الجمهور قلقا حائرا بسبب الإكثار من صراع الوهم والحقيقة. وبهذا يمتد التساؤل إلى الشارع وإلى البيت وإلى كل مكان.

وإذا كان الإكثار من هذه المكونات يعطي لمسرح تيمد طابعا خاصا قد لا نجده عند غيره - باستثناء بعض أعمال محمد الكغاط -، فإن لتيمد ما يبرره فكريا مادام الفكري والجمالي ينطلقان من ذات واحدة، هي ذات الفنان المشروط بانتمائه لمسرح الهواة الذي هو مسرح تجريبي وطليعي في عمومه.

وأول هذه المبررات التكوين النفسي للمبدع، لأنه تكوين ناتج عن وضعه الاجتماعي الميال إلى الطبقة الصغرى، أكثر من ميلها إلى الطبقة المتوسطة كما تقتضي مهنته الرسمية. وهذا ما يشكل المبرر الثاني. فمحمد تيمد من قدماء المسرحيين المغاربة الذين ناضلوا من أجل خلق تقليد مسرحي أولا، ومن أجل إثبات الذات اجتماعيا ثانيا، ومن أجل تحرير الجمهور فكريا وجماليا ثالثا. إلا أن شيئا من هذه الغايات الثلاث لم يتم. وهو أيضا موظف بسيط في وزارة التربية الوطنية، وموقعه الاجتماعي لا يؤهله ليعيش كما ينبغي أن يكون رجل التعليم المربي المثقف والمبدع. وهذا الانتماء جعله يتضامن مع المسحوقين والمضطهدين طبقيا. لهذا كان طبيعيا أن يلجأ إلى تلك المكونات الجمالية التي تستفيد بدون شك من مسرح القسوة "لأرتو"، بتركيزه على لغة الإضاءة والموسيقى والأحلام والكوابيس، والاشعور، والجانب السيكولوجي عامة، وعلى المحرمات وما يثير قلق المتلقي من حيث التيمات والجماليات على حد سواء.

ولعل أهم شيء يتميز به مسرح تيمد إلى جانب تلك الأمور التي ذكرناها، كونه صاحب فرجة مسرحية، أو عرض مسرحي. صحيح أنه مؤلف ومخرج معا. ولكن غالبا ما ننتبه إلى تيمد المخرج ونغفل تيمد المؤلف. لذا لا نستغرب إن رأيناه يلغي النص المسرحي كليا أو جزئيا في بعض عروضه كما في "حبال خيوط شعر" و"رحلة في خيال جدتي". وهذا الأمر يشكل تراجيديا النص المسرحي. وهو إعلان عن موت المؤلف؛ ذلك بأن المسرح خطاب سمعي بصري وحركي، والمتلقي هو الإنسان غير المشروط بشروط مسبقة. فهل من الضروري أن يكون المتلقي قارئا أو غير أصم أو غير أعمى لنقدم له عملا مسرحيا؟ طبعا لا! لأن جمهور المسرح هو الإنسان وكفى، عكس الأجناس الأدبية

الأخرى التي تفترض قارئا يقرأ أو يسمع بالضرورة. لهذا ألغى تيمد النص أكثر من مرة وأظهر سلطة الأدوات السينوغرافية، ليصبح العمل المسرحي عنده قابلا لأن يقدم في كل مكان وفي كل زمان ولكل إنسان.

وقد أثارت مسرحية "حبال خيوط شعر" ردود فعل متعددة ومختلفة. فهناك من اعتبرها سابقة فنية جريئة. وهناك من اعتبرها ثورة. وهناك من رأى أنها بداية عهد العرض المسرحي وفتح لسلطة المخرج. ولكن إلى جانب ذلك نجد من اعتبرها تجربة عبثية لا جدوى منها، لأنها تفتقر في نظره إلى أهم عنصر هو النص الأدبي. غير أن جل النقاد اعتبروا التجربة حدثا فنيا متميزا في حد ذاته. وفي هذا الصدد يرى محمد أديب السلاوي: "أن يونسكو كشف القناع عن خواء الألفاظ، وعبث المسميات، ومحمد تيمد قبض على لغة الصمت وتخلص من النص المكتوب"(7)، ذلك "بأن التطلع إلى التجربة الإنسانية ومعانقة ما هو إنساني في مسرح تيمد كان لابد أن يرتقي بالجو المسرحي إلى أبعاد ما قبل اللغة وما بعدها" (8).

إن الخواء الذي يعبر عنه الممثل في مسرح تيمد يجعل من اللغة المنطوقة غير قادرة على التعبير الصحيح. لذا تحضر العلامات فوق الركح لتعوضها وتكون بديلا لها. فالصمت لغة، ولكنه لغة لها نكهتها الخاصة. وتحمل فلسفة داخل نسق معين، هو نسق فكر العبث. لذلك فلا يصح أن نصف مسرحيات تيمد الصامتة بأنها بدون نص أو بدون لغة، أو لا تملك شاعرية اللغة. فالشاعرية ليست حكرا على اللغة المكتوبة، وإنما تتعداها إلى اللغة التواصلية العامة، بما في ذلك فعل الممثل، والتقني، والركح، والديكور، والإكسسوارات، والملابس، والموسيقى، والإضاءة، وغيرها مما يساهم في خلق فعل التواصل المقلق. وهذا ما سميناه من قبل بشعرية القلق. فالصمت المعبر يساهم بشكل كبير وأساسي في هذه الشعرية، لأن الفقر المادي في مكونات العمل المسرحي يحفز الفنان المخرج والتقني والممثل على إبداع النص الغائب، أو تعويضه بشكل يدعو المتلقي ليكون طرفا معنيا في العملية الإبداعية؛ أو على الأقل يستفزه عبر لغة القلق التي تحضر بكثافة من خلال مستويات تعبيرية فرجوية متنوعة: فكرية، وفنية، وتقنية وطقوسية فوق الركح.

إن تيمد لا يلجأ إلى الوسائل التقليدية والمألوفة عند أغلب المسرحيين، ليطبق بعض الإجراءات الملحمية كالتغريب وتكسير الجدار الرابع والتباعد وما إلى ذلك. فهو يلجأ بشكل ضمني إلى هذه الأدوات والوسائل ليقلق الجمهور ويجعله مسؤولاً ومعنيا

بالعرض، حتى وإن لم ينزل الممثل إلى الصالة أو يستعن بالراوية ونحو ذلك مما هو متداول في الساحة المسرحية تحت غطاء التجريب.

فالشعرية إذن تنبع من تلاحم هذه الأدوات الموظفة بشكل هرموني في أعمال تيمد. وهو ما يخلق الإحساس بالمشاركة الوجدانية والعقلية، رغم ما يبدو من غموض وفوضى أحياناً في بعض الأعمال، نظرا للتكثيف المقصود لبعض الأدوات السينوغرافية. ونعتقد أن لهذا التكثيف ما يبرره أيضاً إذا ما اعتبرنا أنه وسيلة لخلق فعل القلق والسخط عند الجمهور قصد إشغال ملكة الذهن عنده. وهو ما يجعلنا نتحدث عن شعرية القلق في مسرح محمد تيمد.

ومن هنا يتضح أن الجانب الجمالي في أعمال تيمد امتداد للجانب الفكري عنده. وهما معاً يشكلان الوحدة البنائية للعرض المسرحي الذي تلتحم فيه لغة الصمت والأحلام والسخط والإثارة ونحو ذلك. . . لتؤسس ما سميناه بشعرية القلق:

قلق الإنسان في المجتمع نفسياً واجتماعياً وحضارياً ووجودياً، ثم قلق المتلقي وهو في خضم المشاهدة. ولا شك أن هذا التلاحم هو لحمة الإبداع ما دام تشكيلا مقصوداً ومربوطا بالوعي الممكن انطلاقا من الوعي الكائن. فالشعرية إذن هي ما يحقق الفرجة الشاملة في أعمال تيمد مع استثناءات قليلة، كما حدث مثلاً في مسرحية "أزمنة الأمطار المتحجرة" التي قدمها في المهرجان الوطني الرابع والعشرين لمسرح الهواة، إذ عاد إلى أسلوب الواقعية وتخلى عن أسلوبه الفنتازي بقساوته وتركيزه على السيكولوجي والمحرم والوجودي، فكان أن بدا ذلك العرض غريبا في مسيرة تيمد المسرحية. إلا أنه سرعان ما عاد إلى البحث في الذات وهمومها النفسية والسياسية والوجودية، فكان أن أبدع مسرحية "عرس الذئب"، وكان بالفعل عرساً شاعرياً كان فيه تيمد هو العريس، والركح هي العروس، والجمهور عدولا شاهدين على ما يحدث.

ARCHIVE

وعليه فإن مسرح تيمد رغم ما يكتنفه من غموض وقلق أحياناً - كما يبدو للمتفرج العادي - ويعطيه طابع مسرح نخبة، فهو في جوهره مسرح يعانق الهموم الأساسية للإنسان الضائع نفسيا وطبقيا وحضارياً. أما مسألة النخبوية، فمرجعها إلى المجتمع نفسه الذي كان ولا يزال عائقا دون خلق تقاليد مسرحية شعبية دائمة. وقد حاول تيمد أن يكسر هذا الحاجز، فلجأ إلى وسيلة عملية بالفعل حين قدم عمله المسرحي "الضفادع" في المدينة الأثرية بوليلي أمام جمهور من المهتمين، وكان يسعى من وراء ذلك إلى إخراج المسرح من

الجدران إلى الشارع والساحات. وكانت وليلي هي الفضاء المناسب والامتداد العملي لمسرح "الحبول" في مكناس، حيث كانت تقام المهرجانات والعروض المسرحية لفترة غير وجيزة. إلا أن حاجز المجتمع أقوى، فكان على تيمد أن يمارس صخبه الصامت بأدوات تؤهله ليكون بالفعل خالق الفرجة المسرحية المنبعثة من شعرية الخطاب المسرحي عنده، بدءا بفاس، مرورا بمكناس، وصولا إلى طنجة، وكل الأفضية التي بصمها تيمد بشاعريته التي هي ميسم مسرحه التجريبي.

هوامش :

(1) عن عبد الرحمان بن زيدان: من قضايا المسرح المغربي، صوت مكناس، 1978، ص. 40.
(2) نفسه، ص. 39.
(3) محمد تيمد: مسرحية رجل ورجل- ص. 1 (مرقونة).
(4) تيمد: الزغننة، الثقافة الجديدة (المغربية) ع 8، س 2. خريف 1978، ص. 122.
(5) محمد تيمد: نفسه، ص. 129.
(6) محمد تيمد: ألف ليلة و ليلة، (مرقونة).
(7) محمد أديب السلاوي: المسرح المغربي من أين وإلى أين، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، سوريا، 1975- ص. 44.
(8) نفسه، ص. 46-47

دومينيك دوفيلبان
في الثناء على سارقي النار

تقديم وترجمة : بنعيسى بوحمالة

ما من عدو لدود للشعر أكثر من السياسة وبراغماتيتها وتلونها ومنطقها الانتهازي السافر، ومع ذلك لم يخطئ دومينيك دوفيلبان، الموظف السامي السابق في قصر الإليزي، وهو يصمم على ركوب المخاطرة بقبوله تقلّد حقيبة وزارة الخارجية في حكومة بّيير رافاران اليمينية ذاهبا، هكذا، برهان المزاوجة بين الجنون الشعري والوقار السياسي إلى حدوده القصوى. لقد كان في مكنته أن يقتفي أثر سابقة شقيقه في الدم الرمزي، يفغيني يفتشنكو، لّما لم يتحرج في رفض تسلّم حقيبة وزارة الثقافة في روسيا الاتحادية التي اقترحها عليه الرئيس بوريس يلتسين كيما لا يفرط في عزلته الكيانية والروحية في زهد تلك القرية الضئيلة المندسة في صقيع سيبيريا الجهنمي، لكنه سيختار، على العكس، الاستهداء بمثال شقيق آخر، هو إرنستو كاردينال، لم يخسر البتة ولو مقدار درة من ألقه الشعري وهو ينضم إلى التشكيلة الحكومية التي توّج بها دحرَ الثورة الساندينية، بزعامة دانييل أورتيغا، لنظام سوموزا المتعفن، الرّيعي، في نيكاراغوا، بل الاستهداء بمثال، أقرب إليه من حبل الوريد، يقدمه له، جاهزا، الكاتب والروائي أندري مالرو، أحد أسلافه الديغوليين، هو من انفطم على أسطورة فرنسا الديغولية الممتدة من بسالة جان دارك إلى تشامخ برج إيفل مرورا بإعجاز عصر الأنوار، الذي كان قد بصم، وقت توليه منصب وزير الثقافة في عهد الرئيس

شارل دوغول، الشأن الثقافي الفرنسي بغير قليل من الابتكار والشاعرية، وإذ ركب هذا الرهان الصعب لم يتراخ ولاؤه للشعر، شاغله الأصلي، بقدر ما ازداد سماكة واطرادا، مانحا، فضلا عن هذا، بمعية رفيقه الفيلسوف لوك فيري وزير التربية الوطنية الحالي، هذه التشكيلة الحكومية نكهة مثقفية ما أشد الحاجة إليها في زمن طغت فيه العقيدة التقنوقراطية الباردة على التشكيلات الحكومية ودوائر القرار في العالم بأسره.

لكن ما بالنا نشتط، قريبا لا بعيدا، في المماثلة بينما هناك أكثر من داع لمضاهاته، في حدبه الحساس على المنزعين الشعري والسياسي في سيرته، بلسان الدين بن الخطيب، ذلك الرمز الأندلسي الفذ الذي نال، وعن استحقاق، لقب ذي الوزارتين، وزارة السيف ووزارة القلم. أو لم يبزغ نور حياة دومينيك دوفيلبان في مدينة الرباط ولم يمض شطرا من طفولته في العالم العربي يتزود، هو المنذور للشعر، من أضوائه وألوانه، من مفردات معيشه وتقاليده، ومن حكاياته وأخيلته.. أو لا تخبر محاضراته ومؤلفاته، ومنها المؤلف قيد التقديم، عن امتنانه للإبداع والثقافة العربيين اللذين كانا لهما دور مؤثر في تربيته وحساسيته واحتفائه بالعديد من الأسماء والتجارب الشعرية العربية.. وأخيرا، وليس آخرا، أو لم تكن المأساة العراقية هي ما استقطب لصالح لسانه الشعري المسيّس ملايين المعجبين والمتعاطفين في أركان المعمورة الأربعة عشية الهجمة الأمريكية - البريطانية على أرض غلغامش وعشتار.. نبوخذ نصر وهارون الرشيد.. ودوى باسمه وسمعته في الآفاق؟ إن الخطبة التي ألقاها في مجلس الأمن، في غمرة التربص العسكري المستهتر ببلد عربي ظل يشكل شوكة في حلق الحليفين، لترقى، من فرط مجازيتها الباذخة، إلى مرتبة قصيدة شعرية، فالرجل كان يصدر، في العمق، عن مخيلته أكثر من صدوره عن الأوفاق والمسكوكات الديبلوماسية، عن وفاء مكين لنعمة الحلم أكثر من الرضوخ لإغواءات الاستراتيجيات والمصالح، عن مطاوعة، بالتالي، لجوهر الشعر وليس عن إعمال للعقل السياسي الضيق والماكر، ومن ثم وهب الأمم المتحدة، تلك القلعة الكوسموبوليتية الموقوفة على الإنشاء السياسي المجوج، برهة انتشاء استثنائية ستبقى مؤرخة في الحوليات الديبلوماسية. لكأنما يقبس من قريحة دموستين، ذلك الخطيب العتيق النابه، وهو يجادل باول، سترو، وبّالاثيو، وزراء خارجية الولايات المتحدة وبريطانيا وإسبانيا، مطلقي صفارات الدمار، أو يرد على دونالد رامسفيلد، وزير الدفاع الأمريكي، الذي لم يتورع، في صفاقة سياسية لا تجارى، عن قذف الأوروبيين، والفرنسيين بخاصة، بسبّة العتاقة

والانحباس في عالم قديم لا تتوانى آلة العولمة المتجبرة عن دك أسسه وقواعده، لا لشيء سوى لأنهم تقاعسوا برأيه عن الهرولة لإنقاذ شعب أعزل من طاغيته الخرافي والبشرية من أسلحة دمار شامل، منقلبا بالسبّة إياها إلى مكرمة تفيد تناغم فرنسا، ومعها قارتها العجوز، مع ذاكرتها وإرثها المستنيرين وتعفّفها عن الانحدار إلى درك ليس له من نعت من غير نعت العته أو الغطرسة.

فلا مخملية قصر الكي دورسيه، مقر وزارة الخارجية الفرنسية، أمكنها أن تقطع حبل الصرة بينه وبين شظف إقامته الرمزية، هناك في أقصى تخوم البيداء الشعرية المخشوشنة والضارية، ولا زحمة اتخاذ القرارات وتدبير الأزمات اقتدرت على أن تصادر منه فسحة التخييل والتفكير الشعريين، وهكذا، وبالموازاة من دواوينه الشعرية المتوالية، سينكبّ دومينيك دوفيلبان، كلما استشعر قصور القصيدة عن الإيفاء بما يختلج في دخيلته من اختلاجات واحتدامات، على تأليف كتب يتغيا منها الإفراج عن آرائه في الشعر والكتابة، في اللغة الشعرية والموضوع الشعري، في الرؤيا والاستبصار، في خبرات شعرية بعينها استأثرت بخاطره الشعري..

في هذا المضمار إذن يأتي مصنفه الضخم "في الثناء على سارقي النار" (الصادر عن دار غاليمار عام 2003 – 823 صفحة –) الذي يأوي بين دفتيه جملة من التأملات في الشعر، من الوقفات عند تجارب أصدقاء الطريق من ذوي المهج المتيقظة والضمائر الشقية إلى حيث مثوى النار المقدسة التي يوفق بروميثيوس إلى تحويل شعلتها من وضاءة الأولمب إلى جهومة الحياة الإنسانية، التأملات العاشقة والوقفات الحميمة التي تؤول إلى جرح شخصي يستنهض في الشاعر ذكرى أخيه البكر الذي اختطفته يد المنون وهو لمّا يزل في عز الفتوة ومعها مسؤوليته كأخ أصغر أقل ما يستطيع الإتيان به، من موقع مسؤوليته هاته، هو إيناس روح الأخ الأكبر، في وحشة جدثها، بهذه الإضمامة من الشعر، مقولا كشواهد ونماذج تمثيلية ومقولا عنه توسلا بلغة عاشقة وحميمة.. ذلك "أن هذا الثناء سيظل يلح عليّ إلحاحا منذ فترة بعيدة. كنت حينها في ربيعي السادس عشر في حين كان أخي قد طوى ثمانية عشر عاما من عمره، كنا ندرع شوارع نيويورك والشمس الآفلة تصر على تلطيخ الأبراج بحمرتها. كنت تتملى الوجوه الباهتة مع حلول الساعة السادسة، تحدق في الدخان الطالع من كل الأنحاء وتغشى العتمات غير آبه بها أو مرتجف منها. من ساعتها أدركت بأن ما يحتاج إليه، في خضم ذلك اليومي الأعمى، الأصمّ، ليس الكلمات المقدودة على هيئة

كرات مصطخبة الألوان كيما ينجح المرء في اختراق شغاف القلب وإنما كلمات أولئك المجانين الذين لم يحجموا عن ارتياد غور الخيبة واليأس تطلبا لوميض قد يشق الطريق، لعاطفة مؤهلة لتحطيم رتاجات أبواب اللغة.

وإذ ارتحلت أنت بقيت أنا مطوقا بواجب البكورية، بأن أقول شيئا في ما بعد الكارثة وأدجّن الكلام وأسلس قياده لفائدة أطفال الألم والمعاناة. نعم، الشعر من أجل مزيد من الحياة، ضدا على غرق الذاكرة وانطماسها ودفعا للقوى اللامجدية بما هو معترك ماجد. دعنا نتقاسم كلمات رامبو، آرطو أو دوبّري، وكلّ سارقي النار الذين لا يتوانون عن إيقاد جمرة الروح إن شئنا بناء إمبراطورية أخرى داخل الذات لا خارج نطاقها" كما يقول في تصدير الكتاب. ولأن سلالة سارقي النار من تتوطن مختلف الجغرافيات الثقافية والمتخيلات الشعرية فإن هذا الثناء ليأخذ إهاب محفل رمزي أو بانثيون مستهام لسائر الشعراء المكتوين بنارهم المسروقة تلك والذين بهم مسّ من سؤال الإنسان ومصيره" من غير ما التصاق بمدرسة ما أو شاعر بمفرده، بحقبة ما أو بمنتدى مخصوص لكون هذا الثناء يريد نفسه لكل المغامرات، يتطلع إلى مخر عباب السبل المتعددة القائمة في ذروة الشمس القرمزية وفي التجاويف اللامرئية للعتمة".

لذا لا غرابة في يضع دومينيك دوفيلبان جنبا إلى جنب أسماء تختلف انتماء لكنها تتوحد في اعتناقها البروميثيوسي الإيثاري وصونها، تخييليا ورؤياويا، ونهلها من مشهد البطل الميثولوجي الإغريقي، الذي ساءه أن يتأبد مصير البشر يرسفون في أصفاد النقص والوضاعة والجهالة والخنوع بينما يستحوذ أرباب الأولمب على النار السماوية المقدسة التي هي مصدر ما ينعمون فيه من كمال ومجد وسداد وسطوة، مكبلا بالحديد تنهش كبده طيور كاسرة، أسماء كأدونيس، غيوم أبّولينير، لويس أراغون، أنطونان آرطو، ثيودور أغريبّا أوبينيي، ماري كلير بانكار، شارل بودلير، كريستيان بوبان، إيف بونفوا، خورخي لويس بورخيس، جووي بوسكي، أندري بروتون، بول سيلان، بليز ساندراس، إيمي سيزير، روني شار، أندري شديد، عمر أبي ريشة، محمود درويش، محمد بنيس، بول كلوديل، جان كوكتو، صامويل تايلور كولدرج، أليغيري دانتي، ميشيل دوغي، روبير ديسنوس، جان - بّيير دوبّري، توماس ستيرن إليوت، فديريكو غارسيا لوركا، ثيوفيل غوتييه، فولفغانغ غوته، فريدريش هولدرلين، أوجين غلليفيك، ناظم حكمت، فيكتور هيغو، فيليب جاكوتي، ماكس جاكوب، جون كيتس، جان - بّيير جوف، فينوس

خوري، جول لافورغ، بابلو نيرودا، جيرار دي نرفال، فرناندو بيسوا، هنري ميشو، جورج تراكل، ليوبولد سيدار سنغور، فيكتور سيغالين، أندري فيلتر، كينيث وايت، راينر ماريا ريلكه، سيلفيا بلاث، فرانسيس بّونج، بّيير ريفاردي، جورج سيريس، تريستان تزارا، ويليام بتلر ييتس، مارينا تسفيتاييفا.. أسماء أبدعت قصيدة عابرة للمحليات، متأصلة في حقيقة واحدة لا غير هي حقيقة الجدارة الإنسانية والامتلاء الروحي والأخلاقي غير القابل للاستنفاد..

هذه القصيدة هي ما يضع الكتاب موضع معاينة وإنصات ومحاورة ومساءلة ساعيا بهذا إلى سبر أغوار الحقيقة الشعرية المحلوم بها كبديل للحقيقة الأرضية المتعينة، إلى التقاط الدلالات المستعصية للكينونة، الكتابة، الصمت، الوحدة، الجسد، الحرية، المصير، المخاطرة، السقوط، الموت، المجهول.. راكبا لغة نقدية عاشقة وحميمة، كما قلنا، لا يحرجها في شيء أن تتدبر، بأثر من فائض تقويلها للنصوص الشعرية محل المقاربة، شأن إبداعيتها الخالصة، استعارية وسيولة واستبطانا وحلمية، مستعيدة، هكذا، لغات نقدية من نفس المعدن باشرها فريدريش نيتشه ومارتن هايدغر وميغيل دي أونامونو وجيل دولوز وجورج باطاي ورولان بارت وميكل دوفرين وصلاح ستيتيه.. في مقترباتهم الشائقة للكتابة الشعرية، على هذه الوجهة لا تعفي بالمرة على أخلاقية صارمة يقتضيها وازع التوثيق والإسناد والإحالة الذي لا مندوحة عنه في أيما كتابة نقدية مسؤولة، وهو ما تبرهن عليه غزارة المرجعيات والإثباتات في الكتاب، التي تؤشر، من جهة، على سعة اطلاع صاحبه ومن جهة أخرى على ارتفاع منسوب التصادي والتفاعل التناصيين في متنه، ولعل هذه المواصفات تمثل، كما ذهب إلى ذلك الملحق الأدبي لصحيفة "دي زيت" الألمانية، نقطة القوة والجذب الأساسية في هذا الكتاب.

لنقل بأن الأمر يتعلق في هذا المقام بقراءة شاعر لزمرة من قصائد إخوته في الدم الرمزي قراءة ملؤها المحبة والشغف والانفتاح والافتتان، بله التمجيد، أو، بالحريّ، مناداة للانضواء إلى الطقس المأساوي لذلك الجرح الأونطولوجي - الشعري، الأليم - المبهج الذي يترك صاحب الكتاب، في عرض التصدير، لفديريكو غارسيا لوركا شأن الإبلاغ عن فداحته:

يا ما ضللت الطريق
وأنا أتحرى عن ذلك الجرح الذي يبقي الأشياء متيقظة.

لقد كان أول تماسّ إبداعي ونقدي للوسط الشعري والثقافي العربي مع دومينيك دوفيلبان، بحسب ما نعلم، عبر المحاضرة الموسومة ب "استعجال الشعر" - كان قد ألقاها أصلا في مقر "بيت الشعر في المغرب" منذ ما يربو على الثلاث سنوات - التي نشرها له "بيت الشعر في المغرب" مرفقة بمختارات شعرية من دواوينه ترجمها الشاعر محمد بنيس عام 2003، وهو ما يتنافى مع عراقة صلته بالنص الشعري العربي ومعرفته القديمة بالثقافة العربية، وإذن هذه محاولة لتعميق هذا التماس وترسيخه بما يخدم إدناء الصورة الأصيلة لسياسي فرنسي لم تكن صورته الأخرى التي طرزتها له الشبكات التلفزية العالمية في غضون اللجاج الأممي حول شرعية الحرب على العراق من عدم شرعيتها وثبتتها في وجدان الشعوب كما الأفراد سوى صورة عرضية، طارئة، في مشوار شاعر حقيقي مثله، مختارين، لهذه الغاية، الاجتزاء من الكتاب ببعض المقالات والمباحث الكفيلة بإعطاء فكرة، ولو مختصرة، عن مادته المغتنية.

❑ ❑ ❑

رياح الدواخل

بفضل سارق النار تغدو الفجوة منفسحة، تصير إلى مصدر للتعالي، لكن أيضا نافذة مشرعة على الهناك، وحيث لا يكلّ عن موالاة استكشافه في كنف عزلته جدّ المستحكمة. من مغارة إلى أخرى نلفيه يرمي، كدأبه، شباكه من أجل أن ينعش طلعات وجوه واستذكارات مندثرة دون أن ينسى اختطاط سبل، أمام ناظر الآلهة، تفضي إلى استكناه العالم من جديد. في أيّما مكان، في عناده لإمبراطورية السقوط والاندحار نلفاه يستجمع الكلمات واحدة واحدة كما لو كانت أحجارا مبعثرة لديار عتيقة، يوطّن نفسه على النفي والفرار إلى الأمام ممجّدا لألاء الشمس في الأراضي البكر التي لا يكفّ فيها كلامه عن التصدية والرنين من فرط حرقة صوته الخالص وفداحته:

في البدء أستمسك بالخط
بالمتراس، بالأفق، بالتحديق الصائب في المكان الصائب
المكان المنزه عن التدحرج لا نحو الفوق ولا جهة التحت
مكان صائب، إمبراطورية منحطة
رتق تخومي لسماء معرّاة

لأرض تنوء ثقلا
لربّما يكفي مجرد خيط
وقد تكفي حجرة
حتى أقع في لجة ذلك الأريج الكثيف، المتضوّع
هناك على قنن سلسلة جبال الأنديز
حيث تطنّ الحشرات
حتى لا أتقدم أكثر
ما عدا في سبل معان دون غيرها
فمي يبصر بينما عيني مغمضة لا تتملى المغارات
هناك حيث لا شيء ينولد
سوى من تلقاء ذاته . (1)

وهو ينقب عن بلسم شاف للجسد أو الروح لا يتورع الشاعر عن الإقامة في رحاب المنفى باعتباره مسكن حريته والإيناس إلى تلاوينه عسى أن ينبجس وميض ما . " أثثت الصمت بالأسامي "(2) هذا ما يؤكده الشاعر، هو من نذر نفسه لمتعاظم الحيوية لا يعزّ عليه تحويل النار اللاهبة إلى نار تتملك، حالما يستأصل قلب الإنسان دعارته، رأس الأفعوان الخرافي ذي السبع رؤوس، تدمر أجنحة الضحك ومعها اللانهايات المتراضى عليها . فعدن الحقيقية ليست قط معتقلة داخل سياج حديقة متنائية محلوم بها وإنما منتزعة انتزاعا من ماهية السقوط ويجري اقتحامها في غضون الاصطراع المرير والشرس مع ما هو ملائكي . كذا يقوى، في نهاية المطاف، على تفجير بهاء ألوف التشابهات التي لا تني تنفتح على خيمياءات مستعصية، على احتلال العالم وتغييره، على مباشرة الحياة " التي يواريها القبر "(3)، لكن الإنسانية في جوهرها بما لا يدع مجالا للتنغيص على حلم قادم من الماوراء .

إن المنفى يلوح هنا ليس بوصفه موئلا للقنوط والندامة والنسيان وإنما بحسبانه حقلا لانكتاب حياة مستجدة تعمّرها الآبار والنّصب التذكارية وتعبرها الأنفاس المهتزة التي تتعرّج بين ضفتي ما هو سري، بين الأصل والخاتمة، وحيث يتوقّح وجه البشر على مرآة الآلهة فيعيث فيها تعكيرا وإعتاما، أي المنفى الذي يزداد تعاظما ما إن يؤشر على نهاية

سقوط متواطأ عليه، على معنى التيه في غمرة عالم شديد التنوع والانسلال إلى عجاجه المطبق :

إلى أيّما ضفة مهداة، إلى أيّما صفحة موكول إليها الطعم الصافي
لذلك النشيد ...
آخرون سيفقهون في المعابد قرن الهياكل المصطبغ
سؤددي أنا يعتلي الرمال، مجدي أنا يعتلي رمال ذاك الذي
لم يمسسه تيه بعد، آه أيها المرتحل الجوّال
كيما يشتهي الهواء الموغل في عرائه، كيما يرسي فوق رمال ساحل المنفى
قصيدة عظيمة تبزغ من لا شيء، مصنوعة من لا شيء ...
بنات هسيس، آه يا مراجيم عالم، اشرعن في الغناء، آه يا صدفات تعترش المياه
أنا من بنى على الهاوية، في قلب الرذاذ والدخان الطالع من الرمل
سأنام في الصهاريج والمراكب المقعرة
في أيّما مكان لا طائل من ورائه، في أيّما مكان لا لذاذة فيه، في المكان الذي ترقد فيه العظمة

... ...

كلاّ ليس المنفى ما كان البارحة ! كلاّ ليس المنفى ما كان البارحة ! آه أيتها الضلالات
يا تهاليل
يلهج الغريب وسط الرمال، " لا شيء بجديد في
العالم . . " ! وبزوغ فجر نشيده ليس أقل
غرابة. (4)

على هذا الطراز يتبدى كلّ شيء ممكنا على الغرار من منصرم الأيام، وبغتة ينبثق العالم وقد تنصل من سديميته وضوضائه، من ضراوة لطماته وطلاءاته المخادعة، يطفح بنور

ساطع، حيّا، مسنّنا، كما لو كان في نزعه الأخير، في طريقه إلى حتفه. لا يعود الأمر من قبيل وحدة الأصل بقدر ما يمسي فسيفساء من الاستذكارات والارتحالات، ملحمة هائلة من مسرات، أتراح، نداءات، وأحلام يغشاها العماء. إن الهنا ليتشظى إلى ألوف المقاطع مستحثا، هكذا، تعدديته وكثاريته، فائض ثراء خفاياه، وملقيا في بال الإنسان واقع كونه، في سائر الأحوال، محض "هناك": "بلى، إن المنفى لهو كذلك. إنه ما به يتواشج الهنا والهناك، ذلك الانتساب إلى أرض متعيّنة وإلى العالم دفعة واحدة ممّا يغدو معه البيت الأول مفتوحا على الرياح الأربع، مؤهلا للنهوض بالكتابة عن ارتحال البشر والأشياء، تدوينه على صفحة حيطانه، مسكونا ب "بالمغادرات ذات الأبّهة"، ومدمنا استنصات الأوبات الغائمة لأصوات الآخرين لكن أيضا للصوت الفريد والباطني. فمن أجل أن ينقطع المنفى عن أن يكون صخرة شاطئية للألم لن أحجم عن تخيّل أوديسة هوميروسية يصير فيها سعيدا كل من اقتدر، مثل عوليس، على تجشم عناء سفر جميل"(5).

فهاهم البشر وقد جرى الوعي بهم في صميم توضّعهم، لا هم ولا جماع الأشياء المقدودة على التغاير، وإذن ما من حاجة، أصلا، إلى معالم طريق مثلما لا حاجة، قطعا، إلى جملة خطابات قد يتعكّز عليها وإنما هناك حاجة إلى ضوء المصبّات النهرية الأبيض الذي يحوز عليه الشاعر. إن المنفى ينتصب انتصابا في عالم المابعد، المتنائي دوما عن الوعي، وإذ يعكف هو، أي الشاعر، على تشييد وجوده يأخذ العالم بأسباب ارتجاعه إلى غرابته البدئية متخليا عن سند الاعتياد والمألوفية. فلا الروائح ولا العطور، الكلمات والحركات، كلها تصبح مستعصية على المعرفة، بل ويغدو كلّ شيء بمثابة جرح في شغاف الروح التي سرعان ما تستكشف، في هذا المقام، انغداقها العضال:

بعد اشتعال أكوام القش على واجهات تتصبّب عرقا
إثر انصقاع الصمت في الحدائق
في أعقاب قشعريرة الاحتضار في أمكنة يغزر حصاها
بعد العويل والصراخ
في السجون والقصور
وقصف الرعد وهو يتردد على الجبال البعيدة
الآن قد مات من كان حيّا

ونحن الذين كنا أحياء نموت الآن
في تباطؤ قصير الأجل .
حيث الصخور بلا ماء
نعم ، الصخرة جافة والطريق مليئة بالرمال
فهي طريق ملتوية عبر الجبال
والجبال صخرية بلا ماء
لو وجدنا الماء لتوقفنا عن المسير وأطفأنا غلّتنا
لكنه من العسير علينا أن نتوقف أو نفكر بين الصخور
حيث العرق جاف والأقدام في الرمال
آه لو وجدنا الماء بين هذه الصخور ،
جبال ميتة ، هذه أسنان جمجمة متآكلة لا تستطيع البصق
هنا لا يمكنك الوقوف أو الاسترخاء أو الجلوس
والسكون أيضا قد فارق الجبال
وحل محلّه الرعد بجفافه وقحطه إذ كان خاليا من الأمطار
والوحدة قد غابت أيضا عن الجبال
وظهرت مكانها الوجوه العابسة التي تتهكم وتزمجر
عند عتبة أبواب الأكواخ الطينية بجدرانها المشقّقة . (6)

والسقوط يبلغ تخومه القصية لا يتورع المنفى عن ركوب مجازفة القحط واليباس أو يتخذ متخذ "بئر مجتفة" (7) من جنس تلك البئر التي يحتفرها جيلبير لولي ، لا متخذ اليناعة الفردوسية لواحات سان جون بيرس ، عن أن يكون تربة لجرعة دمع ناشفة شبيه منفى أوفيد في الأصقاع اللامضيافة أو معبدا لدوخة جنون أصمّ ، لاعتمال عته بلا جدوى . فعلى مبعدة من موطنه يستطيع سارق النار أن ينوجد ملغيا من مدار ذاته كلما أمعنت المفردات في تبديد نكهتها ونبرتها :

بعيدا عن أميري تراني أكتب عن القصر

في الجهة الغربية تلفيني أكتب عن فرنسا
وأثري يفتقد هنا تجدني أكتب عن العفة
عندما المكائد تحاصرني أكتب عن الصداقة
عندما لا أعثر عليها قط أكتب عن الفضيلة
بين أتباع الكنيسة أكتب عن المعرفة . (8)

في كلّ منفى داخلي غالبا ما ينذر سقوط العقل، هو الآخر، باستراق المغارة الوافرة ألقا وسطوعا، ذلك أن كلّ شيء يصبح منذورا للتفجّر، لا المكان ولا الديكور الذي يؤثثه بأثر من عنفوان أرض قيد الانخصاب، تربة آخذة في التواري، ونظام منهدم، في سبيل أن تسطو النار الكامنة تحت الرماد على الإنسان، أن تستدرجه، في النهاية، محروما من هدأته، ويرضخ تماما لديكتاتورية المكان وجها لوجه أمام تلك "الرقصة الشمسية"(9). بمنأى عن التناغمات العمودية تصر عين باطاي الزائغة على اقتيادنا صوب الجهة الأكثر خلاء من تخوم المجدي، غلّ العقيم الوفي لأفقيته وحيث محبس القردة الكبيرة. فأن ينغرز، شأنه شأن عبّاد الشمس، قبالة الوهج الشمسي المزوبع أو، بالأولى، أن يتقوس على بدنه مطأطأ الرأس في أثناء الليل، عند منجرف الحافّات السحيقة وحيث تستعجله تضحيات القصيدة ومباذلها لا يني الإنسان، في تدحرجه إلى عنان السماء ابتغاء إطلاق سراح كينونته، يعرّض نفسه لعالم منجرح متفصدة عروقه، ولأنه لا أمل في خلاص ممكن فما من مخرج للشاعر سوى الإقامة، من غير ما كلل أو تبرّم، في لبّ الغياب، سوى معاودة الكلمات والخفقان عبر دوخات من الصمت :

إلى من يرتحلون عسى أن ينسوا ذكرى منزلهم
والجدار الأليف عند الظلال
سأصدح ملء عقيرتي بالأرض المنبسطة ومياه من صدأ
بالكتاب المقدس للأحجار

فهم لا يعرفون شيئا
خلا الحديد وياسمين الأشكال

الليلة الجذلانة لتسفير العوالم
طعم العمر أوان الراحة مثل نسغ

لا نشيد من أجلهم
بل نداوة البحر الجارحة
كآبة الينابيع السرمدية . (10)

في نفس المضمار لا عجب في أن نجد ميشو ، التائه في منفى المغارات والحبوب المخدرة ، غير متقاعس عن ارتياد ذلك " المهبط نحو الأعلى [...] نحو ما يستديم متعاليا أبد الدهر [...] متوسلا في هذا كافة سبل الهلوسة والهذيان والتخيّل ، نحو ، ببساطة ، ذلك المرتقى الفاتن " (11) ، هناك ، حيث ينفتح الإنسان ، طافحا بمنتهى خفته ، على العلياء . إنه ، بهذا ، ينزع النقاب عن غموض سقوط ذي وجه مركب ، سقوط تم تعميده في المدى الفاصل " بين الموت والولادة " (12) يسنح بحرية الخفقان بمقدار ما يعنّف فعل الاستيقاظ . ففي " الدراية في حضرة المغارات " لا تتصل المسألة بفردوس مستهام يصطنعه الحشّاشون أو المخدرون توسلا ب " عطور ، ترنحات ، ومفاسد لا تخلو إثارتها من فظاظة " (13) تستقصيه وتطارده ، بل يتعلق الأمر بالمعرفة ، بحقيقة " المفرد " ، " البسيط " ، معافى من تماميات الكوكب الأرضي " (14) المغلوطة عن الآخر ، مثلها مثل بدلة المهرج المزركشة ، من " التعددية " (15) ، التي يغنمها " مرتاد لا يتعب ولا يكلّ " (16) .

كذا تستدرج المغارة ، حين تنصلها من عمودية السقوط ، دوخات مستجدة ، ليس فقط ما كان من تلامح الرّب طاعنا في تنائيه ولكن كذلك تحطّم المرجعيات المتقادمة ، معادلة العلو والسفول ، ثنائية المتنائي والدّاني . إن سارق النار لا يسقط ، بل لعله يتذرّر ويتبعثر ، ينتثر إلى أجزاء ، يتصدع ويتفكك ، محروما من الدعم المرجح للمعنى ، وذلك بسبب من غلبة عنصر العبث . فهو ، أي الشاعر ، يفتح وعيه ، محموما بالرغبة في المعرفة ، على كافة الضفاف ويمسح ، في رمقة روحية واحدة ، سائر العوالم المبتذلة القائمة على مدى المسافة الفاصلة بين الموت والولادة واضعا نصب عينيه مدّ المخاطرة ، دونما توقف ، بدم طري وإعادة ابتكار السبل والمماشي .

إن المنفى يلذّ له أن يقضم حواشي بئر العتمة، حفرة انفرادنا وعزلتنا، ولأنه يطيب له ذلك فإن الشاعر لا يتورع، من جانبه، عن تمطيط تخوم الوعي والمعرفة وتخويل ذاته قواعد وأطواقا متطلعا، في هذا المنحى، إلى ترسيخها في ما هو أكثر بعدا أو، بالأصح، توطيدها قدّام العالم لا خلفه :

بعيدا
بعيدا تماما، سيف من حديد قاطع، مشحوذ، يرنّ في المدى
جائز أن يكون مسّه طفل يتسلّى
طفل حالم بالكاد يميّز ما يصدر عنه من ضجيج
استرعى مسمعي أنا لوحدي
ياله من مذهل ذاك الضجيج
فذ
منذور للأعماق
يستدخل نكهة
يتعهدها بالنماء
ينضّد نكهة
قصيّا
قصيّا
قصيّا. (17)

أبدا بعيدا جدا، هناك، حيث تؤسس الأرض ميثولوجيا بكرا، وحيث المنفى يطوي أشرعته ويخفيها، إذ على الضد من غياب الهنا يعمد الشاعر إلى تسويد الهناك بهوامش تفصله مسافة ناجزة عن قوانين الطبيعة. وعليه فلا قلق ولا هباء بعد الآن، في ثنايا هذا العالم الجديد الذي يتموقع فيه كل شيء على مرمى كاف لفك تلغزه. بفضل المنفى إذن يغدو في مكنته فقه احتقان ما يعاش هناك وإدراك توتره، الانفتاح على ذاته كما انفتاحه على المشهديات الجوانية التي تحول العادة دون استبصارها لأنه لا وجود لجغرافيا ممكنة،

لمتخيل رائق ومبهج، سوى في الانجثات ثم الانضواء إلى قارات مجهولة والخطو الشعري في سبل ترتسم من الفور كيما يتأتى احتفار المناجم التي قد تتيح في المستقبل إثمار الملح من أديم الأرض :

ثم روى ذو الكفل فقال :
أحيا في بلد لم تفوض له صرخاتي المبرحة حق الكلام
في بلد لا تروق لي مناظره
مع هذا ليست في حوزتي لغة من غير هذه التي اكتسبت فأتقنتها هنا
منفاي من معدن المنفى المضمر للرّب
منفاي هو ما سيأخذ بيدي، حرفا حرفا، صوب الرّب المتخم نفيا
من بين الكلمات لأحدس في رحابه وحدانية بابل
سيكلمنا الرّب عبر اللغة التي درجنا عليها .
فما كان من ريب بيضا إلاّ أن قاطعه بهذه الكلمات :
معتوه من تسول له نفسه تقويض الكلام بالكلمات وهدم السفر بالأسفار
ما من كلام يبزّ كلام الرّب
وما من سفر بعد السفر الأحد . (18)

رغما من الزّج به في الحدود القصوى لاكتماله فإن عامل التقادم يكتسب، تقريبا، في هذا المقام طعم الاستنكاف والممالاة تعبيرا عن قلق موصول يتجدد باستمرار، ومن ثم يتوجب على الشاعر، النازح دوما جهة الهناك، اطرادا مع إيغال القصيدة الرمزي في أصقاع الصفحة، أن يواجه هذه البداهة : وهم /أمل إرساء كينونته في مهاد البعيد المستهام، في ذلك المكان وقد انفلت من بين يديه بعد أن أصبح في قبضتهما . فالمكان سيان كان مسقط الرأس أو نقطة مبارحة يمثل، جوهريا، الشيء الممعن في تفلّته وازوراره عن الإنسان :

كلامي
أداتي في حفر مغارة

كلامي يشبه رفشا
وما إن يحفر حتى تنشقّ هذه المغارة
قبالتي. (19)

على هذه الشاكلة يغذي النقصان الرغبة في مبارحة العالم واستبداله بآخر، في إنضاج رؤيات مغايرة وأحلام غير مطروقة. فالشاعر يبقى مورطا في سقوط متواتر نحو اللاقرار ويحمل وزر الانهواء إلى محلّ بلا قعر، نظير "لينز" غيورغ بوخنر في ارتعابه من أن تمسه لوثة جنون فكان أن أدمن النزول بالحبال، ليل نهار، بحثا عن موسيقى يتعذر عليه الوصول إلى مكان انبعاثها، وعليه فمحال أن يهنأ بهنيهة استراحة وهو يسير، بلا هوادة، في اتجاه منتهى لايقين العالم، منتهى هجنة الموجودات واختلاطها، ودائما وأبدا سينصب هذا المسعى في مصب الانعتاق من أسر الهيئة الفوضوية لجمال مبتذل أصلا، لحب يائس وكلام لا يفارق طبيعته التقريبية. الفرار حدّ إغراق اللغة في اصطخاب اللجة وعتوّها، حدّ العيّ وانحباس اللسان، لهو من جنس الإقلاعات الكبرى والمغادرات العظيمة، الفرار نحو نقطة لا يعتدّ فيها سوى بالمسافات المطوية في عرض اليباب، بنداءات يطلقها فم أعجم، الفرار، بالتالي، من مدار الميتة، المكتظة بما لا يحصى من الشوائب، وفي هذا المضمار سوف يبتاع رامبو كلاما باطلا ويخضعه لعملية تبييض في التحت من طقم الواقع(20). فما من خيار له غير خيار اقتفاء أثر المجهول والتقاط زمجرته المدوية كما لو أنه وحش مسعور، غير موالاة الطريق بلا أدنى توقف أو تراجع، والانقياد السلس إلى خط وصول قصيدة معرّاة، عزلاء، أي إلى مأوى فادح السقوط أملا في معانقة غاية تتمنع عن الانصياع :

... أتقدم في غمرة شفوف
ضياعي
مودعا
قصيدة
فوق هذا المكسر

مثلما ضوء مفتوح

على أقاصي
جميع الأراضي

وحده
من كانت التخومية خصلته
له الحق في استنشاق الهواء
... في السموق عاليا
على كتف القصيدة، فوق بساطة الحياة. (21)

فالمحلق يعلن عن نفسه هكذا دون التواء، وبالنسبة لمالارمي الذي يا ما انزعج من فكرة ربّ السماء اللازوردية، المترصد الصلب للجمال، بوصفه الماهية المفارقة للفرار، خارج محيط لغة ركيكة ومخلوطة وبعيدا عن أيّما تنافر أو نشازية، ولأن المصادفة وحدها ستغدق على كلمة "ليل" تنغيمات مشبعة وبارزة وعلى كلمة "نهار" نبرة صمّاء، فإنه سيلزم نفسه، نكاية في متطلب الاستعمال اللائق للغة، على تدبّر عنصر التناقض اللغوي جاعلا من حقه تنقية اللغة وتنخيلها بغية إعادتها، فيما يرى، إلى جادة الصواب وتمكينها، الشيء الذي يؤكده مشواره الشعري الطويل، من منسوب انفجار مضبوط، بلا زيادة أو نقصان، يلائمها بل ويليق بها "الطهرانية هي ما يعمّر، هي الأجمل في يومنا هذا" (22). وإن نحن أعملنا النظر في الخلقة التي يتمظهر وفقا لها هذا البيت فسنقف على كلام لا يتردد في التصالح مع ذاته، كلام مفرط في جمال يقبس من الأصول، ويلمع إلى ارتسام ولادة جديدة في الصميم من الموت، إلى أن الذي يديم ارتحال العالم هو ارتحال الكلمات ولا شيء غير الكلمات.

مشتهى، أو على سبيل الإكراه، يستقيم فرار سارق النار بمثابة غواية تخفرها قوة الكلام وبأسه، وإذ لا يتأفّف من الرفقة فهو يسلك، مع ذلك، سبلا متعرجة ثانيا العنان لذاته المتجهة نحو آفاق لا يخالجها أدنى ظنّ بها، آفاق تطمئن إليها تمام الاطمئنان، تاركا للكلمات أن تلهمها وتختط لها مماشي وممرات في أمداء الوعي ومفوّضا لها، في آن معا، أن تملي ما فيه سداد سعي ذات شاعر مطلوب منه مجرد الإصغاء النابه إلى ذبذبة حياتها، حركتها، عنفها ولونها :

أدوّن الكلمات استهداء بحركتها
التي لا تضاهيها ولا حركتي أنا
أدوّنها على ما هي عليه من مطاولة لقمة ميلادها
بمقدار ما ترتعد فرائصها جراء الحرارة

من فرط البرد القارس أو لّما تستشيط حيوية في وجه هبّاته اللاسعة
عند انتشارها ضدا عليه
أدوّنها على ما هي عليه من انتشار في كنف الحرارة أو العاصفة أو المطر
فحيثما ارتهنت بشيء إلاّ وأوغلت في عمق أعماقها

أدوّنها بفوضاي ما في ذلك ريب
لكن أيضا بنزواتها هي
غايتي أن يقدر كل مكتوب سابق
على الحركة ثانية داخل عيونكم.(23)

فمن ذا الذي يقوى على المجازفة بالسير وراء الكلمات حتى تخوم سقوطها ويلبي أوامرها الصارمة وإملاءاتها الجازمة إن لم يكن سلالة سارقي النار؟ لا يهم إن كانت السبل مغايرة لتلك التي يجتازها، عادة، لغة البشر.. كما لا يهم إن كان الفرار سيفضي بالكلام إلى أينما اتفق، الكلام الجاري مجرى استحثاث على إنجاز انعطاف حدودي انتهاء إلى الرمق الأخير في الضلال، إلى ثمالة الغواية.

فضلا عن هذا من يدري إن كان هذا الضلال وتلك الغواية لا يتقاطعان ضلال الروح وانغوائها داخل نزيف الكلمات الذي لا يتباطأ عن الانضمام إلى نزيف الوعي؟ ذلك أن جماعا من الاستذكارات الطفولية، المشاعر الهاربة، الظلمات السرية، والأمداء اللانهائية لتنبعث، من حيث لا يعلم الشاعر، مرفقة بألوانها المائزة، بروائحها، وبأصواتها كذلك. وإذا ما نحّينا جانبا جملة المقايسات والمشابهات البودليرية من قبيل "الدوخة المرتخية

لهارمونية المساء "(24) الواضح أن شعر مطالع القرن العشرين، شعر أبّولينير تدقيقا، يتبدى سائرا بهمة وثبات إلى الأمام، مفضلا أن يجوهر انتظارات المستقبل في القعر من آبار الذكريات، بحيث لم يشأ الاستناد على الأسطورة أو الارتهان إلى السراب بينما العالم الحديث كان يعجّ وقتها بما لا يحصى من الأعاجيب :

يا دهاليز الوعي
غدا سوف نرتاد أرجاءك
لعل مخلوقات ما فتئت حية
يكتب لها أن تنتشل من تلك الهاويات

كذا يتسامى أنبياء
مثل تلال مزرقّة تلوح من بعيد. (25)

لغز الشاعر

كيف للشاعر أن يقنع سوى بكسرة خبزه اليومي؟ ففي تحرّيه عن المقدس لا يخشى المشي على أنقاض نظام متقادم، قدسي أو طبيعي، متربصا بالوجود أو بما يدخل في عداد المنحجب أو المنطمس بغاية تمكينه من لغة خالصة. والظاهر أنه في هذا المضمار بالذات لابد وأن تتغاير مساعي كلّ من العلم والشعر، كلاهما يتطلعان إلى معرفة العالم ويصممان على هتك حرمة المجهول، لكن حالما يتوقف أحدهما عند حدود الصيغة، حدود المنطق الذي لا يخلو من تفنيد لدواليب الواقع وإوالياته يشرئب الآخر إلى اعتناق فكرة نظام أكثر براعة وأوفى حذقا بمستطاعه الانفلات من قبضة القواعد والحسابات.

من أفضال الشعر إذن أنه مزود بما يكفي من نفس للركض بعيدا جدا عن يقينيات العلم. إن سفره لا يتوقف إلاّ من أجل استراحات قصيرة يعاود بعدها الانطلاق، مخمّنا دائما توافر مكان ما، لا سقف لتعاليه ينتظر من يعبأ بتشييده على هيئة ضريح. فالشعر لمّا يقوم فيه السحر مقام صفة مستوجبة لا غنى عنها، إنه من عيار التآليف المشوقة أبدا، قوته في نقصه المداوم، يوائم باستمرار بين الإفصاح وبين الإعتام، إذ "ينصب حدوده أبعد ما

يكون عن حدود العلم وبالداخل من تراحب منطقته، تراحب قوس قزح، يمكننا الإنصات إلى جلبة "رهط صيادي الشاعر وهم يركضون من جديد". (26)

بالنسبة للشاعر هناك على الدوام شيء ما يتعدى حدود الإدراك المباشر لماهية الكون، ليس من الضرورة أن يكون مكانا معجزا، فردوسا مستترا يمكنه الانجلاء، بغتة، أمام ناظرنا، بل واقعا متخما بالحيوية يلبس لبوس إجابة عن تساؤلنا وهو ما ينقل إلى وضح النهار حضورا كان إلى حين منكتما في ردهة ما يسيّجنا من غشاوات وحده الشاعر من يقوى على امتصاص سماكتها. بأثر من القداسة يظل للكون وجهه السحري الذي هو بمثابة مرآة لالتزامنا الخالص تعكس جاهزيتنا التي لا مراء فيها للتحديق في الكون كما لو كان سرّا مصونا:

غالبا ما أتخيل فوقي
محيّا قدسيا أشعته
تشبه حقلا محروث التربة
تنفرج أسارير شفاهه وعيونه عن بسمة
جبينه مضجر، تبعث منه ضوضاء بحر مقطّبة لجته وصمّاء
ما إن أخاطبه: لتكن ذخيرة قواي حتى يتأجج بريقه
كل مطلع شمس تعود له السطوة في بلد تمزقه الحرب
وينقاد له نهر تسكّن تعرجات طريقه روع
أرض يسربلها الينوع. (27)

فالمقدس، في هذا النطاق، لا يستمر حاجزا يفصلنا عمّا هو إلهي بقدر ما يصير إلى حاجز يفصلنا عن أنفسنا، والشاعر وهو ينذر ذاته لإصلاح ما لا يعد أو يحصى من ذات البين يلجأ رأسا إلى استقطاع الجزء الأوفى حميمية من كيان كلّ واحد منا وإعطائه شكلا ومعنى. إنه يزحزح، متوسلا بالكلمات، جماع المعيقات المتكدسة في مجرى الزمن ولا يتراخى، قيد أنملة، عن مداناة ذلك الهيكل القدسي الثاوي في الدواخل الخبيئة والذي إن لم يفاقم توتر تعالقنا مع العالم يعمل في اتجاه تبلور مدار قدسي جديد، هناك فيما وراء الحدود. هكذا يتوهج النور ويسطع ويتزيا جسد الأرض بنضارة تعفي على تشقق قشرتها

واجتفاف مسامها، تعفي على مرارتها الفاتكة، لكن بما يشبه، بالكاد، وعدا رهن التبرعم أو التخمين ما دامت الوقائع لا تنكشف على نحو هيّن وإنما محفورة في قعر مشاعر يتولى الإفضاء بها صوت وحيد نصغي إليه في ذلك المهوى الذي يفصل بين قصيدة وأخرى، في الفجوة المتلامحة بين مفردتين، أي في مستقر نوع من البياض أو الغياب يستقيم، بصفته هذه، وكأنه من قبيل إقرار أبكم لا يخلو من وميض بل سرعان ما تنبت له أجنحة فيحلق كطائر صوب الشمس التي يعميه نورها الدافق. إن استشارة روني شار لموت روجي برنار٢٨، صديقه ورفيقه في المقاومة الذي أعدمه الألمان يوم 22 يوينو 1944، لا تتورع عن إرخاء ضياء هائل لألم مريع لا سبيل إلى التخفيف من برحائه: "كانت قامته ممدّدة، في منتهى استقامتها. . كان خفيفا إلى حد كبير يدثره صمت عنيد"(29)، فما من شيء يمكنه استيفاء الشهادة على إيثاره غير "شجرة التوت العتيقة"(30) تلك. . لون دمه كان أخرس وكيف لا ووحشية البشر بلغت ذلك الدرك من الانحطاط، وغير بعيد عنه كانت تجثو "محطة قطار مندكة دكّا"(31)، علامة على حياة مهشمة.

وكما نلاحظ فإن الموت لا يفصح عنه بقدر ما يصبح أداة ثقب في الفجوة المتلامحة بين المفردات، في الانفساح الرفيع للأصوات، في البياض المنفرش بين الصور، في الانقطاعات الناشئة من لبّ إيقاع لا يتواني عن التشويق، تدليلا من الشاعر على استمرار البحث والاستكشاف، فهو يحط الرحال، في رحاب القصيدة، في القلب ممّا ندعوه "أنت"(32) توكيدا، ملغّزا ما في ذلك ريب، منه على عنصر القدسية:

روجي برنار: يا ما كان الأفق الذي تسكنه الغيلان قريبا جدا من أرضه
دعك من البحث عن جبل، لا، فعلى مبعدة كيلومترات
من هنا، في فجاج أوبّديت، ستلقون صاعقة لها وجه
طفل ممدرس، اذهبوا نحوها، آه، سيروا إليها ولتبتسموا لها لأنها
جائعة، جائعة للصداقة.(33)

نادرون هم البشر المؤهلون لمتابعة الطريق، حتى النهاية، التي يمكنها إسلاسهم إلى حيث يعرون عما خفي من أسرار، وبالنسبة لكثير من الشعراء المعاصرين فما من لغز يتعذر فك طلسميته إلاّ وهو يعتاش على ضرب من الاستفهام الخالص، ومهما بلغ شأو حضور ما فهو لا يستطيع أن يفعم الغياب الذي يتنسل من رحم اللغة، ومن هنا لا يفضل في ملكية

سارق النار من مسارات سوى مسار المجاوزة، مسار الإفراط، ولبس الكلمات والمعاني في خضم ذلك السديم الذي يتخذ هيئة انعكاس للروح(34). وإذا كان الأمر كذلك فما من داع إلى التوجس خيفة من المقدس، هذا الأخير الذي لا يكف عن المناداة بالإبانة عنه فيما وراء اللغة وحيث لا وجود لشيء غير اللاتناغم الذي يرشح به الصمت أو بياض ينتزع انتزاعا من صلب مناداته.

بعد لوتريامون وآرطو اللذين امتلكا مهابة شق تلك الثغرة لكن خانهما زعيقهما المحتد في وجه ألوان الابتذال والضحالة وإلحاحهما القوي على التمثل الشعري للعالم سيميل آخرون إلى امتطاء طريق الخواء معربين، هكذا، عن إخفاقهم، إن شئنا، في التنازل أمام الاندثار الفادح لأي أفق مرجح وإن كانوا قد استمسكوا بمناعتهم ضد أيّ استيهام كان ما دام الأمل لا يمكنه أن يبزغ في قلب معنى قائم فيما وراء مظهر الموجودات هذا عدا كونه محض خدعة :

اثنتان
سلطتا خسّ أفعوانيتان مفعمتان رواء تدشن سيقانهما العارية
الحماس الشهم والترنح الجميل لمثلج في هيئة عكاز من
ذا الذي يدّعي لنفسه سعادة أوفر من سعادتي وأنا أدرع امتداد الرصيف و
أسير في همدة حيواتهم والآن
أألنت يا حصيرا قصبيا من عهد الرومان، يا خادم المعبد المترهل، يا معنى باطلا !(35)

بعيدا إذن عن أن يكون محض تربص للسري وارد أن يصطبغ الشعر بصبغة لغز قائم الذات، يقرفص على بساط الصمت لا على حصير الكلام، بمعنى أنه قد لا يكتفي بالاقتران بالإيقاع الذي يقتحم أغوار ما هو سري وإنما قد يوفق إلى تأسيسه تأسيسا وإحداث ثورة حقيقية من داخل منقلب كهذا تضع مشترطنا، كأناس حديثين، في بؤرة الضوء، وبعبارة رديفة كأناس منذورين لمباشرة وجودنا انطلاقا مما هو ناقص، مما هو مثلوم، للسير قدما على أرضية الغياب بالنظر إلى ألاّ شيء بمتصالب قد يشكل موطئا لأقدامنا، و، بالتالي، لإرساء فعل لا غنى له عن الحدوث بفضله يصح للمعنى أن يتفتح ويزهر. بهذا لن تعزف الغرفة الخرساء عن أن تمسي مكانا لنا أمّا الصمت، مأوى كثافة اللغة

في تلغّزها، فلن يمثل بعد هذا في الواقع، ولنرجع في شأنه إلى مالارمي، نقطة انتهاء تخومية للنشيد أو نقطة اكتماله، لقد كان، إلى حين، لا هو ولا الحلم، بمثابة تهديد يزهو بين أشرعة الكلمات، لكن والكلام يقترف جريرة القتل فما من مانع قد يقف حجر عثرة(36) في وجه نهوض موسيقى الفعل متحررة من رهبة ذلك الانضباط الخطي الذي يستحكم في دفقان مفرداتها، في وجه اندلاق السراب من الفوهة المستدقة لقلم الكتابة.

إن الصمت لمّا لا استطاعة لنا على تخمينه اليوم ما دام يجثم على فم الشاعر ويخدش طلاقته كما لو كان كتلة من صقيع ومنتهى ما يسديه إليه هو تمييزه عن آخر يريحه، مثلا، أن يسخر اللغة مثل أداة محشوة بالريح هذا لكون اللغة المرسّمة، على تعذّرها، ليست وحدها ما يخون صوت المبدع ويمكر به فتنتزع لصالحه، بطريقة غير مباشرة، ذلك التقدير الذي يرفل في نعمائه. إن الكلمات هي، أولا وأخيرا، محط الاستغلاق الذي يقلق ويذهل سواء بسواء، هي ما يضرم نار فضول الشاعر وتهبه، مع انبلاج وضح الصباحات، شكلها ومن ثم لا يبقى أمامه غير الاستحواذ عليه للعبث تحطيما وتكسيرا في ليل الصفحة البكر:

كلمات
أمامي
نصاعة المجهول
وحيثما
وضعتها
فما من محل يفضل آخر تودّدا. (37)

إنه مضياف هذا البياض الذي تنزل كلمة طرية مقتطفة تحفز أثر الصمت مثلها مثل شعلة لامرئية، وأيضا هو مضياف هذا الكلام الذي يستوجب إبقاءه على مسافة من الذات، الكلام المقول رغما من كلّ شيء. فمن شيم سارق النار كونه لا يرتدع عن استدعاء الغياب وأكثر من هذا عن التحرش به بهدف أن يدون على أديمه الراجف أحرف أحجية لا يملك مفتاحها:

الصمت الذي لا يضاهي نفحة

يعاود سقوطه على الأوراق كندف من ثلج
بينما الليل يأخذ بزمام بزوغه
ها أنذا أكتب بعيدا ما أمكن
عن ذاتي . (38)

صمت أصيل من هذا العيار لا يتبرم، فضلا عن كل شيء، من الذهاب أبعد ما يكون على العكس من تراجع الكلام وارتكاسه وذلك بسبب من اللاّيقين الذي يغلّ الكلمات ويرهق كاهل الشاعر هو الآخر . إن الصمت له موهبة فتح المغارات والإدلاء كذلك، عند استحكام الشاعر في قياد نشيده ثانية، بشهادته في حق الخواء الذي يظل مهيمنا رغم كلّ شيء، وحتى وهو يخفق في الانفلات من قبضة الكلام لا يتورع عن إنتاج حالة من المعكوسية تصل، من هشاشتها، حد انحفار الخواء، الذي يتوهم سارق النار مقدرته على التملص من إرغامه، واتشاحه بفصاحة لا عهد له بها :

رصيف كل شيء وطراوته
المتكتمة
النتوء القدير الذي تتعهد ثباته
البثر الصلصالية المردومة التي يا ما تدحرجنا إليها انتهاء إلى ضفاف
لا وجود لها البتة
وضاءة تنبعث منها، متلوية، حرارة منقوصة
نحن وحيدون، وكثر، هنا، نشهد
على هزال اللغة . (39)

إنها الغاية المتوخاة من فهم الشعر واستيضاح مكنونه، أقصد معاينة ما يتلفظ به من غياب ومدى اتقائه لدوخة الصمت التي تضمر في حناياها مطلق التلغّز وحيث يسائل خواء اللغة خواء الوجود المنهوك إلى حدّ البلى وذلك أملا، جنونيا ما في ذلك شك، في انبثاق ألق لانهائي من تلاطم طرفي خواء مثنى .

ARCHIVE

على مدى سفرته المستديمة يغالب سارق النار انسداد اللغة توسطا بأحرف وكلمات يتلفظها لسانه متمفصلة رجاء أن ينبلج فجر العالم. إن كلّ واحدة من كلماته إلاّ وتشحذ، بلا انقطاع، ذلك الانفتاح المستعاد الذي يبرره داعي إماطة اللثام عن الأشياء واستبطانها بكيفية لا تخلو من افتتان، انغداق الأفئدة واستزراع الأخيلة. إن إحدى شيم الشاعر، إن لم تكن أبرزها، أن يرخي العنان لذاته في المنطقة الفاصلة بين حدّي الصمت والكلام، المخبوء والجليّ في حين يصدر عالمه من صميم ما يبادر إليه من صنيع، من حركة يده الممتدة، من رعشة فمه الموحية بشكل هذا العالم الذي ينهض داخل مصهرة تمتزج فيها معادن جديدة أو، بالأصح، داخل مغارة تسمح بتملّي وجوه مغايرة للبشر.

وسيان اعتبرناه مؤتمنا على عمارة العالم أو نبيّا، مسكونا بمسّ شيطاني أو مستبشرا بالألوهية، فما من مفر له أمام برهة التردد السابقة على ولادة الكلمة إذ تعوّد على هذا التردد الذي يتمخض عنه معنى قيد الولادة:

ما نعتبره بداية هو الخاتمة في أغلب الأحيان
والقدوم إلى النهاية هو نفسه نقطة البداية
فالخاتمة هي حيث تبتدئ. (40)

فطوال مدة لا يستهان بها أمكن للأساطير أن تشكل سندا ودعامة لخيال البشر، أمكنها هذا في وقت لم يكن فيه أحد ممّن كانوا يقيمون في الحاضرة بقادر على تملّك الوعي بأن العالم قد يكون شيئا آخر غير كونه مجالا يتراصّ فيه الناسوت واللاهوت، أي مجالا لحياة متخذة لذاتها وأخرى تقطنها صور متنائية، وبتعبير آخر تتناضد فيه ألفة الأرض ورهبة السماء. لقد كان الإله المستنزل إلى سافلة العالم مرتديا خلقة آدمية، لفترة مديدة، يستحكم في سلوك سائر المؤمنين ويحرس سداد عقلهم، أمّا اليوم فلا أحد أصبح، في ظل ما يخيم من تبلبل، مهيئا لأيما رضوخ أعمى، خصوصا في أرض مهجورة ومتروكة لشأنها تدوّي في جنباتها ريح قارسة وتسود فيها أفكار مجتفة أو أساطير متلاشية:

[...] لا شيء عدا الطالع المرتعش
في وجوه كظيمة أنهكها الدهر
لاهية حتى عن السلوان من فرط ذهولها

مترعة بصور شبحية، فارغة من أيّ معنى
إحساس متورم يعوزه التركيز
بشر ومزق ورق في دوامة ريح باردة
تولول من قبل أن يكون الزمن ومن بعده. [41]

وعليه فحتى الكلمات حصل أن أضاعت، في عالم حديث مصادر منه سلوانه[42] ومحروم من طمأنينته، قوتها وتلاوين الكلام لم يعد في حوزتها تبيّن الطريق المفضية إلى الأفئدة والأخيلة، فهي تبدو، جراء انشدادها إلى يقينها المرير والجازم، مخادعة في معظم الأحايين، مضللة، ولا تفقه شيئا من غير فهم الأشياء وإشهارها:

[...] تتمطط الكلمات
تقضقض ومرات تتحطم من عنت ما يثقل كاهلها
بضغط من احتقانها، ترترنح، تنزلق، تتلف
تتعفّن من فرط استبهامها، تتعنت في المكوث بمكانها
لا تشاء أن تخلد إلى الراحة. [43]

بمقدار ما هي متعاظمة مهمة الشاعر يتبدى المسكين مرغما على مواجهة عالم يؤممه يأس تام، وإذ يعثر على كثافة الكلمات يصير من حقه معاودة تنوير الأرواح، تنضيد صور متجاسرة، مآلات منداحة، والتماعات اللغات والبشارات. إن إحدى مهامه تتمثل في ضبط أناقة اللحظة ونعمائها، اللحظة التي لا يعقل أن تندلق دون أن ترصع نظرته المفتتنة، في جعلها قطعة من لوحة الأبدية، ذلك ألاّ أحد غيره يتمتع بجبلّة تشذير حياة ذائبة، لا تستنكف عن الجريان، جزّ رؤوس الدقائق التي تكدر أمزجتنا كما لو أنها حيوانات ذبيحة:

بغتة وشعاع شمس يأتلق
في كلوحة غبار يتموج
تنهض ضحكة مستترة
لأطفال بين أوراق الشجر
في عجلة، هنا، الآن، ودائما ...

كم يثير من سخرية هذا الزمن الكئيب والعبثي
الذي لا يكفّ عن التمطط ، لا من قبل ولا من بعد . (44)

فإليه يؤول أمر اقتراح ميثولوجيا بديلة(45)، استمالة وجوه هي عرضة للنسيان، ورسم خطاطة لزمن تنتعش فيه الإشراقات المعتقة المنتشلة من الدفقان المتوحش للدقائق، من انتظام التوقيت الموسيقي الذي يجب أن يأخذ به استعمال الزمن، إليه يعود شأن استخلاص أضأل أثر ممكن لأكثر الموسيقات اتضاعا وحقارة من جوف لحظات ثمينة :

منضدة إسكافي
عند بقس التخوم الجنائنية
وحيدة
في إهاب علامة . (46)

أما وقد توارت أزمنة العظمة والمغالاة فإن هذا لا يمكنه، مع ذلك، أن يعفي على أخلاقيتي الافتتان والاستكناه، وحيال حجب ما لا يحصى من المرزبانات والأنبياء الواقعين ثانية على رؤوس الأنام، حيال ما لا يعد من الأقنعة المندثرة من واجب سارق النار توطين مخيلته على استشراف الغد وافتحاص اللانهائي، وإذا ما كانت لا كلية الوجود ولا وحدته ولا أيّ نسق كان بقادرة، من الآن فصاعدا، على اختزال الطبيعة الإنسانية وتحجيمها ففي المقابل ما من أحد سواه، أي الشاعر، بمقدوره نحت الكلام من أجل الرفع من كرامة الإنسان وتمجيد مروءته، هو وحده من يملك موهبة تطريز كلمات رهيفة، موهبة لا مراء في غلظتها وقسوتها :

أسبل لمسمعي طريق الإنصات إلى وجه بينما القمر ينضوي
إلى أول أطواره . (47)

بهذه الكيفية يستطيع الإنسان مداناة تلك النفحة أكثر محمولا على ريح الكلام ومقودا بالشعلة اللاهبة التي تزدهي، غير متلكئة، في بؤبؤ الرحابات العارية، مجردا من يقينياته وتاركا للشاعر، لسارق النار، مأمورية اقتراح، لا تقرير، لمسات، مقاطع، وائتلاقات يشد بعضها برقاب البعض الآخر وحتى لو وقع في حيرة من أمره فليس من شيمته أن يتراجع عن حدس النجوم هناك في الطرف القصي لحلبة السباق :

كعقاب هزت إلى الأفق الرحب / جناحي عزيمة ومضاء
حلقت . . والرعود تجأر والسحب / تهاوى، منثورة الأشلاء
وتسامت، طورا تضم جناحيها / وطورا ترخيها بازدراء . (48)

بل حتى وهو شفاف في حيرته لا يتنازل أبدا عن ملحاحية مسعاه فيقوم بدعوة القارئ إلى اقتفاء أثره، خطوة خطوة، عدم تنازله عن قواعد الوحدة، وبمنأى عن الحمّى الرومنتيكية التي تشرد بصاحبها ليلا ينزع هو إلى فرش نثارات العالم لنهار عظيم. إنه يسنح للورقة بالبروز، يجعل من النقطة لؤلؤة المنبع، ويمسخ بخار السحاب إلى عطر فوّاح، وبهذا يشاد، قطعة قطعة، وجه مغاير لهذه الحياة بوصفها حياتنا نحن وحيث الإنسانية توالي تنازلها عن اللانهائي. إن الشاعر ليتقدم مسلحا بتواضعه :

تصّاعد اليد
مبتلة وسوداء
وحشائشها مقطعة الأوصال .

اليد تجسّ نبض العتمة .
إنها مبتورة، فما الذي يضمره هذا ؟

لقد عثرت على شيء
يجهله النظر .

ارتياد داكن لغور السرير
بينما هم يزيّفون بذورا
تحرس السرّ . (49)

وفي أثناء تقدمه ذاك يصبح سيّد الرغائب ويزداد تصميمه على المصالحة بين الخوف والحماسة وردم الهوة بين الرّيبة والاقتناع، يغدو مهموما أكثر بسكينة الصمت حتى يتأتى له

أن يلتقط الصدى على وجه أمثل (50) كما يشتد إصراره على المساواة بين الامتلاء والخواء، بين نكهة العالم وغواية المنفى، وذلك ضمن حركية مستديمة لا تعرف الكلل أو الفتور :

لتحرص على انتقاء ملاذ. لا تحسن الظن في فضيلة تدّعيها فضيلة
متأبدة : اقطع دابرها بحفنة بهارات مستعر مذاقها، توخز، تلسع، وتضفي
على السخافة نفسها طعما. (51)

وبينما هو يتقدم إلى الأمام تكون وصيته للإنسان، الذي لا فكاك له من اقتفاء أثر خطاه في مسار بحثه المضني، أن يتسلح بدوره بأمل ما في الارتواء تحت ضياء النجوم حتى يمكنه أن يتقاسم مع الآخرين نظراتهم، بدل الاقتصار على نظرة واحدة، أن يغنم حقيقة من الفيض والغزارة، ويفوز، بالتالي، بنهار لا يتخذ متخذ شقاوة تكابد بقدر ما يكون نعمة تستأهل المعانقة والاحتضان، نهار مستوعب بما فيه الكفاية يستجلب المحبة لا البغضاء :

كذا، دون توقف أو كبوة وفي غنى عن أيّ زمام وأيّما إسطبل
من غير ما مزايا، بلا آلام، بحوزتك أن تبلغ، ولو لم تكن مؤهلا،
أيها الصديق، مستنقعات المسرات التي لا تفنى،

لكن في دوامة النهر الكبير، المصطخبة حتى الثمالة
في انجلاءاته العديدة. (52)

النـار

خلال إقاماتهم الحارقة، وهم يتفتّتون في عرض السماء أو يضيعون في ردهات الروح يعمل سارقو النار على فتح فجوة تدعونا إلى ارتياد الطريق النيّرة والعنيفة التي اختاروها بمشيئتهم، طريق من معدن تلك التي شقها رامبو والتي ما برحت تقترن بصورة مشعّتة، دائمة الحيوية، لشاعر نذر نفسه لكتلة الأرواح المتوحدة، للجموع المغتاظة ممّا تبتلعه من تفل الهوان وما يحيق بها من ازدراء في وقفتها العزلاء على مرمى أسلحة فصائل اغتيال البشر ومحوهم، أي نذر كلماته وجعل منها صدرا حنونا يحضن الجميع، في الصميم من غياب العالم وتواريه، دافعا بها إلى أقصى حدود التمرد والعصيان :

نار ! نار تطبق عليّ ! هنا !(53)

لكنه وهو يعمل هذا سرعان ما يحث رفاق طريقه على الانقلاب عليه والإمساك بقطع الحديد وشظاياه الصانعة لتلك اللحظة الكثيفة التي تجسد منتهى إيثاره وتضحيته. فإذ يجد كمال نقصه في سحر ما يثقّبه من كلمات يستعجل موته الذي هو ثمن حياة اللغة وكلفة بقائها، إنه لمتمرّس بألوان من الميتات تمرّسه بما يضارعها من انبعاثات ومصدر غمّه هو فقط تلك الحقيقة التي لا تحجم أبدا عن إنهاك قواه وتخييب سعيه، عن تصدية سطوتها في زخات طلقات الرصاص :

نار !

هنا !

في تضاعيف المواجهة القاسية التي يستدرجها ملء جوارحه إلى فضاء تلك الحلبة القاتلة وحيث يتحدى الملك آرثور، غير مكترث، مخلوقاته برمتها، آلهة وشياطين، في حلبة - مزار تخومي من اختياره وذلك في انتظار أن يركن إلى الصمت. إنه يرى الأمل يفرّ إلى أعمق أعماقه، أمل الحديث مجددا في الغداة متوسلا بصوت أحد غيره، صوت أحد "الشّغالين الرهيبين" مثلا. فلا شاعر بمقدوره مداراة مواجهة من هذا القبيل أو الالتفاف عليها لكونها محكّا حقيقيا للثورة التي يلزم أن ينهض بها أيّ شعر أصيل لا يتردد في الصدح قائلا : إنها تشتعل، تنفجر، ناعتا الرماد والطمى، قرينة الموت والدعب في آن معا، وبهذا الاشتعال والانفجار لا يتمالك العالم نفسه فإذا هو يتزعزع ويرتج تواقتا مع تعانق الحياة والبشر الذين التهمهم "حريق المظاهر"(54) داخل مشهدية ترسمها كلمات القصيدة وتلونها.

هنا، حيث يتكلم الشاعر تشرع نار في الانبجاس ويأخذ لمعان في الائتلاق، حيث يتكلم يأخذ عالم في التّقوض وآخر في التبلور، ذلك أن كلامه يحمل مغزى التدشين والبدء لأن كل كلمة تمزق، إثر سطوعها الخاطف، حجبا ترخي بسدول ظلمتها على العيون وتمنعها من استكشاف مكان ما مجهول - هنا - يند عن أيّة مواقعية جائزة. فهو، أي كلامه، يقتادنا إلى ذاك الهناك الذي يستطيع فيه أيّ منا حدس نوع من إقلاع جديد، استشفاف "بداية لا تبقي ولا تذر"(55)، وقطف ثمرة انفجار يهدم بقدر ما يحرر. إن مناداة فرلين، ساعة تلقيه خبر نعي رامبو، لهي، في الجوهر، مناداة على كل ما هو ملعون وترجيع لصداه :

تأخذ بأسباب موتك، موتك ! لكن مت على الأقل مثلما يلذّ لمزاجك
مت خلاسيا، متوحشا حدّ الأبهة
متمدّنا، ممدّنا، غير متهاون،
آه، لست بميت وإنما أنت حيّ في دخيلتي تحفظك ألف نار. (56)

إلى أين ممشى الشاعر، إذن، إن لم يكن إلى غير شغاف الأشياء ؟ إلى أين هبوب نفحاته إن لم يكن صوب أيامنا المنتظمة عن الآخر التي ما أحوجها إلى التزحزح والارتباك لكي تمسي الأرض ملائمة لإقامتنا ؟ لهذا نجده ينفخ أشرعته الرسولية، في تكتم فائق، كلما ارتفع منسوب الشك والألم واللاأدرية، ماخرا عباب يمّ فإذا بالجدران ترتجف، بسبب من اندفاعه المقدام، والأعمدة تتراخى، والتربة تتصدع محدثة زمجرة لا تعادلها أية زمجرة، والأرض تميد، والسماء تخور قواها. . بينما عالم بديل في طور الانبثاق يتنسل من بين أيدي " القتلة " (57) وإنسان مغاير كذلك.

باعتباره نجما متوحشا يضرب في أرجاء العلياء، فائض ماء متجمدا، يعد الشعر جزءا لا يتجزأ من زمن خالص، قطعة منتزعة من سيولة الموجودات، وحينما يستلم الشاعر الكلمة يبادر إلى اختطاط طريقه ثانية مهشما الماضي الذي يلازمه ومستعجلا المستقبل. فهو يضع موضع ملاءمة ذلك النداء البدئي العميق رافضا، بالموازاة من هذا، تخويل الصورة، ما دامت الجهة التي يتقبل أن تملي عليه ما تمليه هي روحه، حق تكييف الكلمات، المفصلة على مقاس خياله، بما يوافق مزاجها، إن روحه هي ما يسعفه على ابتكار سند جديد لخطوات الإنسان المجنح به في اندفاع اللغة واتقاد حماسها :

تنفجرين، تنفجرين، تنفجرين في صدري وذاكرتي
وأقفز من شظاياك الطليقة، وردة، ورصاصة
أولى، وعصفورا على الأفق المجاور. (58)

على هذا الوجه تتلفظ الكلمات بأسها وما يصاحب ثورة رهن التبلور من مشاعر وانفعالات وبهذا لا تتوقف الحرقة، بما هي مأوى الشعر ومقامه، عن جلد رغبة الآخر جلدا حتى ينخرط في تجديد الحضور، استثمار الصمت، الوحدة، اليباس، وسائر الأقاليم الطارئة للغياب، كلّ ذبذبة إن هي إلاّ مناداة، تعطش للحياة، واشتهاء للحرية بالنسبة لأولئك البشر الملتئمين حول كلمة تترقب معناها، وعليه فمن ذا الذي يستطيع تزكية شعر

محتضر قد يحل في رحاب مكان أصلي ؟ كيف السبيل إلى خنق صوت يبدع الرعود والبروق ؟

عن طريق انفجار أصلي كهذا يمنحنا الشعر نفسه من غير ما حاجة إلى واسطة ما، يمنحنا الكلمة التي يصنعها وازع الحياة في قلب الشاعر لا تحاشيها أو الزوغان عنها، جوهرها المكنون لا قماشها أو مظهرها الخادع. إن قوة الكلام الشعري، بما هي طاقة لا تستنفد أبدا، تتمظهر، هكذا، على حين غرة لأن معنى في حاجة إلى الانشحاذ ينتظرها ولكون عادات راسخة في حاجة، هي الأخرى، إلى الزوال تنتظرها، ففي البدء ينبجس الشعر صنفا من كلام مستغرب، خارق، لكنه وحده القادر على إضاءة ما يمت إلى الخفاء بصلة وتبديد قوقعة اللامبالاة ثم اختراق السماء القائمة خارج ذواتنا.

هوامش :

(1) كريستيان دوترومون : "مستنقعات جبلية" 2، 1958، ضمن "الآثار الشعرية الكاملة"، دار ميركور دوفرانس، 1988، ص 229 – 330.

(2) جويسيبي أونغاريتي : "الرأفة"، 1928، ترجمة : فيليب جاكوتي، ضمن "أنطولوجيا الشعر الإيطالي المزدوجة اللغة"، دار غاليمار، سلسلة "لابّلياد"، ص 1329.

(3) على هذه الشاكلة سيحدد شارل بودلير حياة إدغار بو، أنظر "إدغار بّو، حياته وآثاره"، ضمن "الأعمال الكاملة"، طبعة مذكورة، المجلد الثاني، ص 296 – 318.

(4) سان جون بيرس : "منفى" 2، ضمن "الأعمال الكاملة"، طبعة مذكورة، ص 124 – 125.

(5) الطاهر بكري : "آداب تونس والمغرب العربي"، يليه "أفكار وآراء حول الشعر والأدب"، دار لارماتان، 1994، ص179.

(6) توماس ستيرن إليوت : "الأرض اليباب" 5، "ما قاله الرعد"، ترجمة : بّيير ليريس، دار سوي، 1947، ص 83.

[اعتمدنا في ترجمة هذا المقطع، مع تصرف طفيف في بعض الأبيات، الترجمة التي أنجزها للقصيدة الدكتور فائق متى والواردة ضمن كتابه "إليوت"، سلسلة "نوابغ الفكر الغربي"، ع 17، دار المعارف، القاهرة 1966 (المترجم)].

(7) جيلبير لولي : "وهم مثنى"، ضمن "الأشعار الكاملة"، دار ميركور دوفرانس، المجلد الأول، 1990، ص 79.

(8) جواشيم دي بيلي : "الحسرات" 31، ضمن "الحسرات" المصدرة ب "عتاقات روما"،

سلسلة "شعر"، دار غاليمار، 1967، طبعة تالية، ص 121.

(9) وذلك على التجربة التي اختبرها جورج باطاي.

(10)جورج شحاذة : "أشعار" 2 و3، ضمن "الأشعار"، بمقدمة غايتون بيّكون، سلسلة "شعر"، دار غاليمار، 1969، ص 59.

(11) هنري ميشو : "سلام من داخل الحطام"، دار فلينيكر، 1959، طبعة تالية، ضمن "الأعمال الكاملة"، دار غاليمار، سلسلة "لابّلياد"، المجلد الثاني، 2001، ص 1010.

(12) لوران جيني : "التعميد بالبسيط"، ضمن "تجربة السقوط"، المنشورات الجامعية الفرنسية، 1997، ص 204.

(13) هنري ميشو : "علاقة أ"، جلسة حميمة، 3، "طورا يقود زمامه القنّب الهندي وطورا آخر أستلم قياده فآخذه بصحبتي"، المستعاد في "الدراية في حضرة المغارات"، سلسلة "شعر"، دار غاليمار، 1988، ص 144.

(14) هنري ميشو : "صورة شخصية ل أ"، 1930، ضمن "ريشة"، دار غاليمار، سلسلة "لابّلياد"، المجلد الأول، 1998، 608.

(15) إنها الفكرة التي سيطورها هنري ميشو في نصه المذيّل ل "ريشة"، نفسه، ص 662.

(16) لوران جيني : مرجع مذكور، ص 207، "ممزّقا إربا إربا، مبدّدا، أدفع عن نفسي البليّة".

(17) هنري ميشو : "مسكّر الميسكالين والموسيقى" 3، ضمن "الدراية في حضرة المغارات"، سلسلة "شعر"، دار غاليمار، 1988، ص 74.

(18) إدمون غابس : "كتاب ذي الكفل"، دار غاليمار، 1964، ص 92 – 93، المستعاد ضمن المؤلف الجماعي "الآداب الفرانكوفونية منذ عام 1945" لكلّ من : ج.ل. جوبير، ج. لوكارم، إ. تابون، ب. فيرسيي، دار بورداس، 1986، ص 251.

(19) أندري دي بوشي : "مفكرات"، 1952 – 1956، دار بلّون، 1990م ص40.

(20) آرثور رامبو : "وداعا"، ضمن "فصل في الجحيم"، طبعة مذكورة، ص 441، "إن الواقع أكثر خشونة من أن يلطّف".

(21) أندري دي بوشي : "مفكرات"، 1952 – 1956، طبعة مذكورة، ص 56.

(22) ستيفان مالارمي : "سونيتات عدة" 2، ضمن "أشعار"، المستعاد ضمن "الأعمال الكاملة"، دار غاليمار، سلسلة "لابّلياد"، ص 67. أنظر كذلك "مأزق البيت الشعري"، ص 364 : ياله من إحباط مبعثه الانحلال الذي يضفي، على آناء الليل والنهار، وبكيفية متناقضة، أجراسا مدلهمة هنا ومشتهاة هناك".

(23) كريستيان دوترومون : "تدوين الكلمات على ما هي عليه من حركة"، 1971، ضمن "الأعمال الشعرية الكاملة"، طبعة مذكورة، ص 462. إنه يتعقب مسير الكلمات مثله مثل رسّامي حركة كوبرا وهم يقتفون خطاطة رسمهم. فالحركة تدع لنفسها كلّ مرة أن تأتمر بحرية

المادة التي تشتغل عليها، ومؤدى هذا أن جانبا من حقيقة العمل الفني يوجد مستضمرا مقدّما في أحشاء السند الذي يوظفه.

(24) أزهار الشر"، ضمن "الأعمال الكاملة"، طبعة مذكورة، ص 47.

(25) غيوم أبولينير: "التلال"، ضمن "قصائد مزوقة"، المستعاد ضمن "الأعمال الشعرية"، دار غاليمار، سلسلة "لابْلياد"، ص 172.

(26) سان جون بيرس: "خطاب ستوكهولم"، ضمن "الأعمال الكاملة"، دار غاليمار، سلسلة "لابْلياد"، 1982، ص 444. "إن المقدس، في هيئته الكونية، ليعتبر من الهواجس العظمى لدى سان جون بيرس وشعره يمكن توصيفه بكونه ابتعاثا للمقدس في رحاب العالم الحديث. فأن يستثير البحر أو الريح، الحجر أو انفضاء السماء، لا يكف عن إبصار علامات مغرقة في القدم رهن الارتسام، أدلة من زمن العتاقة، آثار نظام مندثر. في الخلاصة إن هذا المقدس يستقيم كأداة توكيد على قدرة تجديد الحياة". ولعل الشاعر أودن يردد نفس الشيء عند قوله: "ما يتغنى به الشاعر ليس على سبيل مناوءة الشر أو رفض معيش الإنسان الكلف بنبالته وإنما هو من باب مد الحياة باقتدارها المتأصل الذي لا ينضب والذي يسعفها على التجدد والانتصار على كل الكوارث، سيان كوارث الطبيعة أو الكوارث الإنسانية. إن ما يبحث عنه الشاعر، ما يستجمع قواه لكي يعبر عنه في قصائده، واحدة واحدة، هو السمة القدسية لما هو موجود".
– كتاب منتخبات نيويورك تايمز، 27 يوليوز 1958، طبعة مذكورة، ص 1132.

(27) إيف بونفوا: "حوار القلق والرغبة"، ضمن "حجرة مكتوبة"، طبعة مذكورة، ص 241.

(28) لطالما استعاد الشاعر موت روجي برنار الذي أعدمته إحدى الفرق السرية النازية. فبينما كان القبطان ألكساندر ورجاله صامدين في مرتفعات سيريست مدركين استحالة أن يبادروا إلى فعل شيء ما، مخافة انفضاح مركز مقاومتهم، كانت "عينان تتضرعان، كانتا ساهمتين في سائر الأنحاء، تترجيان إشارة إطلاق النار، فما كان مني إلا أن أومأت برأسي لا. كانت شمس يونيو تمرّر بردا قطبيا إلى عظامي في حين خرّ هو صريعا غير آبه بأولئك الذين أزهقوا روحه أمّا أنا فقد بدا لي بأن أقل هبّة ريح يمكنها حمله من على الأرض. لم أعط أية إشارة وكنت مدركا لجسامة صيانة أرواح ساكنة تلك القرية مهما كان الثمن، ما الذي تعنيه قرية؟ أو لا تفرق قرية عن أخرى؟ أفلا يكون قد شيء من هذا في غمار تلك البرهة الحدودية؟ ("أوراق هيبْنوس"، 138، دار غاليمار، سلسلة "لابْلياد"، ص 208).

(29) روني شار: مقالة منشورة في "المجلة الخالدة"، أبريل 1945، هي نفسها المقدمة التي قدم بها الشاعر لمجموعة روجي برنار الشعرية، "جوعي أسود أصلا"، التي صدرت بعد مماته، عن منشورات دفاتر الفن، دجنبر 1945، وفي طبعة أخرى ضمن "بحثا عن القاعدة والقمة"، دار غاليمار، سلسلة "لابْلياد"، ص 646. وبالمناسبة فما يهيمن على غالبية كتابات شار هو استحالة قول شيء في ظل فقدان جسد الرفيق الذي انهدّ وانحسرت معه فورة حماسه

الشعري، مع خسران صداقته خصوصا لمن رآه يموت مؤمنا بضرورة التضحية من أجل قرية، باسم قضية.

(30) روني شار : "طرس النّوام"، 146، ص 210، ومصدر الصورة من "مسوخات" أوفيد (بّيرام وتيسبي)، الكتاب الرابع، البيتان 158 - 166، ترجمة وطبع جورج لافاي، الآداب البديعة، 1928، الإصدار الخامس، 1969، المجلد الأول، ص 101.

(31) روني شار : "روجي برنار"، ضمن "بحثا عن القاعدة والقمة"، دار غاليمار، سلسلة "لابّلياد"، ص 646.

(32) "أنت" تستدعي استيعابها، في هذا المقام، وفقا للمعنى الذي ينادي به ديريدا : "ما لم يتم قوله إراديا ويؤشر على الغير ينصبان، سوية، في : أنت. إن الموت لهو دوما، كما الشأن في تجربة الآخر، لامقول الآخر، إنه أنت Tu الآيلة إلى أنت Toi".

(33) روني شار : "أهوال، صعقة، صمت"، ضمن "القصيدة المدمّرة، شنآن وسحر"، دار غاليمار، سلسلة "لابّلياد"، ص 258.

(34) سينكب فيليب سوليرس على تمحيص نوابض شعرية المجاوزة والإفراط هذه وذلك بموضعة لغة الشفوف التي تضع نصب عينيها التقاط شيء ما في العالم في مقابل لغة اللامعقول التي تنفض يدها من الفهم وتحرص على التعبير. فقوة هذا الأخير تتغذى أصلا من الوعي الممزق الذي يلازم اللامعقول، ذلك أن هناك "من جهة، نوعا من التبذير، حظوة يقظة رهن الانكتاب، ثم الانغراز يرافقه تخرّم مفتوح للحظة. إن الأنا التي تطول الجسد وهو في حالة تنابذ مع جسده القح، مع الآخر، مع اجتياح التاريخ، ومع أيّ تمفصل جدلي للشفوف، لهي الحد المضارع للامعقول يصير، بهذه الكيفية، إلى لحظة لتواتر مفاهيم متضادة، واحدا إثر الآخر، لحظة عنيدة تصمم على البقاء داخل وضعية اعتراض. ومن جهة ثانية هناك تلك المسافة التي يمتلك، على امتدادها، كل شيء نفس المعنى ممّا يرفع أيّ خصاص كان وحيث قوة المضمون تأسر ألبابنا وتحيطنا علما بموتنا مسلمة إيانا إلى تمام عرائه، سوى أن كتابته، أي اللامعقول، تتم باستحضار كامل عناصره الجزئية وتوسلا بنبرة تصل حد نفيه من الأصل وتنبيهنا، بالتالي، إلى أننا لا نفعل شيئا من غير التسلية بلعبة موتنا الخاص، بلعبة لا تني تجزئ جسد العالم وتشذره، وكوننا نعدّ، كذلك، من الناحية المادية صنفا من انبساط، من تمزّق، وكشف حساب لتلاشينا الخاص" (ضمن "الكتابة وتجربة الحدود"، دار سوي، 1968، ص 134).

(35) دونيس روش : "في تفنيد التزمت الروحي"، دار سوي، 1972، ص 100. وللإشارة فإن القطيعة التي يؤسسها روش لمن الجذرية بمكان، إذ يتصل الأمر بانتشال الشعر من إسار الشعرية، بإبعاده عن أيّ نزوع إلى التسامي، وبرفض شديد لتمتع الشاعر بوضع اعتباري محتمل، مستحيل ما في ذلك شك، يضفي عليه خصلة بطولية أو رسولية، لكنه، وهو يمنح اللغة الخام مكانتها المستحقة، لا يبلغ حدّ الإقفال على المساءلة العميقة، التي تتجوهر في

الصميم من كلّ شعر شعر، بل يبسطها ويجسم لها صورا محسوسة، وتمس عصب أيّما صنيع شعري متخفف من إرباك جسده المعيق وهو ما يحكم على تلغّز اللغة بالانكشاف. وفي هذا الباب حريّ بنا أن ننوه إلى أهلية شعر كلّ من دونيس روش وإيف بونفوا، رغما من تباين مساريهما، للتموضع، بكيفية متوازية، كعتبتين جائزتين إلى مكمن ما هو سري.

(36) لعل الحلم بقصيدة تأخذ شكل امتداد للموسيقى أو تكون صدى لقصيدة صامتة يعد واحدا من الهواجس الضاغطة لدى مالارمي، فالموسيقى تبقى النقطة المرجعية التخومية التي تتخطى بكثير الكلمات بوصفها تتكلم دونما حاجة إلى الكشف عن نفسها، تقول من غير أن تصدر عنها مقصدية دلالية. لقد كان بودلير من أوائل من وضعوا أفضلية الموسيقى و"سحرها المثير" موضع صدارة متبوعا بفرلين، وإن بطريقة مختلفة، إذ ارتأى ضرورة أن تندغم الموسيقى في جسد البيت الشعري لا أن تخفر تلفظ الكلمات. ومعروف أن مالارمي سيجنّح قصيا في هذا المنحى معتبرا أن الموسيقى مخوّل لها أن تشكل كلام قصيدة قد ترتكن إلى الصمت، وفي واحدة من رسائله إلى بول فاليري نلفيه لا يتردد في تبليغ هذا الرأي بما يكفي من الوضوح "بلى شاعري العزيز، يلزمنا كيما ندرك الأدب، وحتى يكون له موجب يسوّغه، الارتفاع إلى مرقى تلك "السمفونية المتسامية" التي ربما لن ينجزها أحد وإن كانت تطرق بال حتى أكثر اللاّمبالين وقسماتها الأساسية، الدارجة أو البارعة، تبدو منطبعة، أشد الانطباع، في صفحة كل أثر مكتوب. إن الموسيقى، بالمعنى الصميم لها، قد تقتل، هي موسيقانا المخصوصة، عند محوها لتلك الأخرى المتحلة وتغدو، بأثر من عدم كفايتها، مبعث قصيدة كهاته" (رسالة إلى بول فاليري، 5 ماي 1891، ضمن "مراسلات"، دار غاليمار، 1995، ص 611). وممّا يلاحظ هنا أن عبارة "السمفونية المتسامية" مصدرها رسالة فاليري التي كان قد أعطاه فيها رأيه حول قصائده الأخيرة المدونة على هيئة أجزاء منفصلة وبياضات أشبه ما تكون بعمليات تنفس في المجرى القرائي للقصيدة علاوة على وقفات إيقاعية - بصرية متوخاة من فاعلية القراءة، ولربما كان أفضل تمظهر لهذه الجمالية هو تلك الهاوية المفتوحة في بداية قصيدة "ضربة نرد"، المؤرخة بعام 1، والتي يصورها قوله "أبدا لن تنزاح المصادفة".

(37) أندري دي بوشي: "قصائد ونثريات"، دار ميركور دوفرانس، 1995، ص 71.

(38) نفسه، ص 18. ولاشك في أن الكلمات الموضعة على مسافة من الشاعر، في المقدمة من الصفحة البيضاء التي تسلم له نفسها بكامل الأريحية، تتجسد لدى دي بوشي في المكانة الجوهرية التي يستأثر بها محدد الفضاء، فضاء القصيدة داخل الصفحة، فضاء المعنى الذي يتمظهر تراحبه في العدد الوفير من الإحالات الفضائية. إن عين الشاعر غالبا ما تكون مصوّبة "جهة" انجلاء ما، أي أنها لا توجد إلاّ بمقدار انخراطها في جهتها هاته، وإذا كان علينا أن نردف شيئا في هذا المضمار حسبنا أن نتساءل: ألا تعد هذه "الجهة" التي نتجه إليها إحدى القرائن الخالصة والضاربة للغز؟ ذلك أننا لا نوجد "في" اللغز بل دائما "أمامه" شبيه أوديب

وهو أمام السؤال الذي يجسده أبو الهول ككائن خرافي ملغّز.

(39) جاك دوبّان : " البدن البصير " ، طبعة مذكورة ، ص 211 .

(40) ت . س . إليوت : "غيدينغ الصغيرة" 5 ، ضمن "شعر" ، ترجمة : بّيير ليريس ، دار سوي ، 1969 ، ص 219 . من الواضح أن شعر إليوت شديد الاحتفاء بعناصر الغبار ، الرمل ، الردم أو بقايا الحجارة ، ولذلك فهو لا يندرج في خانة الشعر الذي يتخذ المعادن موضوعا له ، على شاكلة ما نلقاه ، مثلا ، لدى سان جورج بيرس . فالغبار ، بالنسبة لهذا الأخير ، لا يمكنه أن يضاهي الحجر الذي هو موئل للحياة ، علامة على العظمة والتاريخ ، بل وملجأ تدوين آثار ما لم يعد له وجود بالمرة.

[اعتمدنا في ترجمة هذا المقطع ترجمة الدكتور فائق متى الملمع إليها آنفا (المترجم)].

(41) ت . س . إليوت : " نورتن المحترقة " ، 3 ، ضمن "رباعيات غنائية" ، 1936 – 1942 ، "شعر" ، طبعة مذكورة .

(42) لا ينسى ريلكه التنصيص على أن السلوان ليس ، بعامة ، هاجس الشاعر أو من شغله لأنه ليس أكثر من وهم بإزاء حقيقة العالم ، بل العكس هو الصحيح لأن ما من شاعر شاعر إلاّ وهو يجهد من أجل الانفكاك من أيّما سلوان كان كيما تتاح له مواجهة الألم أعزل بهدف استئصال جذوره مستجلبا في ثنايا هذه المواجهة ، ضمنيا ، سلوانا لا يبتغيه ، عمقيا ، لنفسه . فرغما من الألم والحداد لابد من إجادة ، على نمط ما يراه كلود إستيبان في "أحد ما بدأ يتكلم في الغرفة" (دار فلاماريون ، 1995) ، تلقي "أقساط من الصباح سعيا وراء إنهاك الكلمة واستنزافها" (ص 13).

(43) ت . س . إليوت : " نورتن المحترقة " ، 5 ، ترجمة مذكورة ، ص 167 .

(44) نفسه ، ص 169 .

(45) لا يعني هذا ، بطبيعة الحال ، لجوء الشاعر إلى بعث الحياة في وجوه مندثرة أو وضع علم جديد ، غير ذي معنى ، لنشوء الكون ، بل العكس ، أي إعادة منح الكلمة لكل من أضاعها : الآخر المتباعد ، الأرض ، مكان إقامتنا . . وبهذا التحديد يغدو الشاعر حقا صانع أساطير ، نقصد محكيات ومرويات خرافية تصطبغ بمعنى ما ، إذ هو من يستطيع تقويل الصمت وإلباسه هالة سردية .

(46) جاك دوبّان : " . . أو اغتيالات " ، ضمن "خارجا" (1975) ، المستعاد ضمن "البدن البصير" 1963 – 1982 ، سلسلة "شعر" ، دار غاليمار ، 1999 ، ص 331 .

(47) جاك دوبّان : "تجلّي النافذة" ، 1982 ، المرجع السابق ، ص 387 . والعنوان مستمد من "طفولة" 5 ، ضمن "إشراقات" رامبو ، طبعة مذكورة ، ص 460 .

(48) عمر أبو ريشة : "ذكرى شاعر كبير" ، ضمن "الشعر العربي" أنطولوجيا ترجمها وقدّم لها روني . ر . قوام ، فيبوس ليبريتو ، 1995 ، طبعة تالية ، 2000 ، ص 406 – 407 .

[عنوان القصيدة الأصلي هو "شاعر وشاعر" وكانت قد ألقيت في جامعة دمشق بمناسبة

المهرجان الألفي لأبي الطيب المتنبي (المترجم)].

(49) جان تورتيل : "حدود الجسد"، قصائد مختارة، قدّم لها هنري دوليي، دار غاليمار، 1965، طبعة تالية، 1993، ص 124. والشاعر (1904 – 1993) يعد بمثابة الروح المدبرة ل "دفاتر الجنوب"، بحيث سينقطع، بمعية بّونج، إلى عمل فريد في مجال التفكير في الشعر، أما مجموعاته الشعرية الأساسية فهي : "كلمات القصيدة"، دار روبير لافون، 1946، "ميلاد الموضوع"، منشورات "دفاتر الجنوب"، 1955.

(50) خذ راحتك من الصوت داخل الصمت، تنازل عن الصمت، عد إلى الصوت وحيدا إن استطعت، إن كنت تدري كيف تكون وحيدا، تشتت أحيانا ولتسح في كثافة حشد عرمرم. (فيكتور سيغالين : "عظات إلى المسافر الجيد"، المقطع 3، ضمن "مسلاّت"، سلسلة "شعر"، دار غاليمار، ص 103).

(51) نفسه، المقطع 4، نفس الصفحة.

(52) نفسه، المقطعان 5– 6، نفس الصفحة.

(53) آرثور رامبو : "فصل في الجحيم"، ضمن "الأعمال الكاملة"، مكتبة الجيب، 1999، ص 131.

(54) صلاح ستيتيه : "على هذا السفح في رفقة حريق المظاهر"، ضمن "مقاطع : قصيدة"، دار غاليمار، 1947، ص 49.

(55) ديلان توماس : "حفل بعد غارة جوية حارقة"، ضمن "رؤيا وصلاة"، سلسلة "شعر"، دار غاليمار، 1991، ص 51. ومعلوم أن الشاعر يوظف هذا التعبير على سبيل استحضار الغارات الجوية التي كانت قد تعرضت لها لندن، فكلّ هدم إلاّ وهو بدء، والقصيدة ذاتها تنقل هذه الحركة المفجعة من خلال انفتاحها على صورة "طفل لبضع ساعات. احترق في الشارع"، وانتهائها بهذه الأبيات الطافحة بالأمل، بالنداء : "نصر، نصر، نصر /في أرجاء مملكة لا حدود لها والأول مع بدء الخليقة" (نفسه، ص 52).

(56) ستنشر هذه السونيتة لبول فرلين، أول مرة، ضمن "ريشة" بتاريخ 15 فبراير 1893 حاملة عنوان "إلى آرثور رامبو، انطلاقا من رسم أولّي سوّدته أخته يظهره مرتديا بدلة مشرقية" (مستعادة في "إلى آرثور رامبو" ل 13، ضمن "إهداءات" المستعاد في "الأعمال الشعرية الكاملة، دار غاليمار، سلسلة "لابّلياد"، 1938، طبعة تالية 1999، ص 601).

(57) لم يكن هنري ميلر الوحيد الذي غشيته حساسية إزاء صيحة "هذا زمن القتلة" التي أطلقها رامبو في "صباح الثمالة"، طبعة مذكورة، ص 46.

(58) محمود درويش : "تلك صورتها، وهذا انتحار العاشق"، ضمن "تضيق بنا الأرض"، ترجمها عن اللغة العربية إلياس صنبر، سلسلة "شعر"، دار غاليمار، 2000، ص 115. ونشير إلى أن درويش غالبا ما يلجأ إلى صورة الرصاصة هاته من أجل استنهاض كلام شعري

مباغت يتكدس في لسانه لكنه يوجد، مقدما، في ثنايا ما هو برّاني، قريبا ممّا ليس هو. إن الرصاصة تؤشر على ذلك العنف الملتمع الذي يذيب الفضاء في الضوضاء، بحيث تنطلق، لامرئية، لتسدّد ضربتها ملغية عنصر المسافة، لكن بمجرد ما تستعاض بكلام الشاعر يأخذ العنف صفة أثر للتفاهم بين البشر :

أشهد أنه وجد الرصاصة
أنه أخفى الرصاصة
أنه قطع المسافة بين مدخل جرحه والانفجار، نفسه، ص 19.

محكيات عن الحنين إلى المكان
قراءة في "قصة حب دكالية"

محمود عبد الغني

يقدم سعيد عاهد كتابه **"قصة حب دكالية"**[1] باعتباره **"محكيات"**. عندما يضع الكاتب تجنيسا لكتابه هل يعتقد أنه أنهى أمر تلقي هذا الكتاب ووجه القارئ توجيها صارما إلى الطريقة التي ينبغي بها تلقيه؟ هذا سؤال ضروري لأن الكتاب الذي بين أيدينا، شانه شان جميع الكتب، يصدر ليقف إلى جانب كتب أخرى، تشبهه وتختلف عنه. ومن ثم تتشابه طريقة تلقيه أو تختلف. فنحن نتلقى كتابا مجنسا في خانة ال" محكيات" بطريقة معينة، ونتلقاه هو نفسه عندما يجنس باعباره" محكيات ذاتية". في هذه الحالة يكون سعيد قد أرشدنا إلى سبيل المحكيات التي هي سليلة التخييل، لا إلى سبيل " المحكيات الذاتية" التي هي لون آخر من النصوص التي ترتبط بالحياة عموما، وبحياة الكاتب على الخصوص. وتبعا لكل تجنيس نتلقى الكتاب. اذن لماذا تنازل سعيد عن مفردة " ذاتية" واكتفى ب " محكيات"؟

لقد فعل ذلك في تقديري خوفا من التقليل من "نصية" كتابه. فهو يريده "قصة" لا "واقعة". تخييلا لا كتابة وقائعية. وهنا مثلا لابد من الوقوف عند نص "أوريانا فالاتشي" (ص. 69) الذي هو ليس "محكية" أو حكيا ولكنه بورتريه للكاتبة الإيطالية الشهيرة، وبذلك فوتيرة هذا النص تختلف كليا عن نصوص الكتاب. وحتى إذا أردنا إثبات

قرابة ما مع النصوص الأخرى فإننا ننعته بسيرة فكرية مختصرة مادام الكاتب يعتبرها منارة فكرية وإيديولوجية أثناء الحياة الطلابية.

إذن، فمحكيات "**قصة حب دكالية**" تبني تجنسا وانتماءها إلى المحكي الذاتي تدريجيا. إلى أن يتأسس الميثاق مع القارئ.

يقدم سعيد نفسه في كتابه باعتباره مواطنا وليس شخصية فذة. فهو لم يتحدث الا عن المجالات والامكنة التي وجد فيها، او ولد فيها، مازاغان، الجديدة اليوم. فكلما كانت "مواطنية" صاحب السيرة "بسيطة"، قياسا على مفهوم "مواطن بسيط"، ضاقت المجالات التي عرفها أو دخَل إليها؛ وكلما كانت مواطنيته "متميزة"، ذات فعل خاص أو قول خاص أو موقع خاص، اتّسعت مجالاته.

فنحن نذكر مثلا مجلات وأمكنة "**طه حسين**" في "**الأيام**" والمكنة التي تتسع في الكتب الذاتية في ثراتنا إلى درجة أن المؤلف ينافس المؤرخين والانتروبولوجيين في النبش في الأماكن والناس والطبقات والفئات والأسر. وطبعا مهما اتسعت تلك المعرفة المبسوطة بزهو في النص فإنها لا تضاهي اتساع معرفة المؤرخين والانتروبولوجيين الذين يقضون حياتهم في دراستها وتصنيفها والنبش في ذاكرتها.

إذن يقدم سعيد عاهد نفسه مواطنا بسيطا في محكياته، لا يتحدث إلا عن مجال واحد هو مسقط رأسه "الجديدة" التي تربطه بها علاقة رومانسية قل نظيرها. رغم انه كان بإمكانه أن يوسع من مجالاته ويتحدث عن فرنسا التي درس فيها وخبر حياتها، وعن باقي الدول والمدن التي زارها أو سمع عنها أو تخيلها. باستثناء النص الاخير في الكتاب الموسوم ب" لقاء باريس" والذي لا يتجاوز صفحتين ونصف الصفحة (ص. 73) حتى يستحق الكتاب فعلا "تصنيفه ضمن جنس ال"**المحكيات**".

ويمكن أن نقول نفس الشيء عن فعل صاحب ال"**المحكيات**". ففعله هو فعل مواطن "**بسيط**" وليس فعل مواطن "**متميّز**"، الذي يطال فعله دائرة أوسع؛ من المناصرين أو المتعاطفين أو المؤيدين أو حتى المعجبين... فسعيد يقدم أفعاله البسيطة الراضخة أمام فعل أكبر وأهم هو فعل التاريخ الذي يتحكم فينا ويوجه مصائرنا.

يمكن لنا أن نعتبر محكيات "قصية حب دكالية" نصوصا غنية رغم أنها تمر أمامنا كالشهاب المستعجل، وعميقة في إطار تطور العلاقة بين الدب والحياة، السرد والحياة (بول ريكور).

سعيد عاهد كاتب بالغة الفرنسية أيضا . أصدر فيها مجموعتية شعريتين وترجكم منهـا العديد من الكتب . لكنه عاد بنصه إلى أصله ، إلى لغته التي تمر اليوم بمحنة خطيرة وغير مسبوقة . محنة يزيد من حدتها الملهجون والفرانكوفونيون والامازيغ . وقد انضاف إلى هذا الفيلق كاتب بالاسبانية نظنه مناصرا لقضايانا هو " خوان غويتوسولو " ، مثلما خاب ظن سعيد في "أوريانا فالاتشي" عندما أصدرت كتابها "السعار والكبرياء" مشبهة العرب والمسلمين بالجرذان التي تتوالد بسرعة لتخريب الغرب . خرج "خوان" هذه المرة خرجة لغوية ليعتبر وظائف الدارجة المغربية أهم من وظائف العربية الفصحى ، علما أنه لا لساني ولا دارس لغات ، بل معرفته اللغوية هي مجرد كلمات متلعثمة من اللهجة المراكشية .

هاهو واحد من أبناء العربية يعود ليكتب بها وهي عودة شبيهة بالمناصرة في أصعب الأوقات .

هامش:

(1) " قصة حب دكالية " ، سعيد عاهد ، منشورات اتحاد كتاب المغرب ، 2007 .

حين يصبح الأنترنت بطلا للنص

عبد الرحيم الخصار

كان إميل سيوران متطرفا في رأيه إلى حد بعيد، إذ يعتبر الأدب هو النثر فقط، ونحن إذ نقرأ عددا من الروائع النثرية التي أبدعها القصاصون والروائيون نفهم، بشكل أو بآخر، تحامل سيوران على الشعر.

الكاتبة المغربية فاطمة بوزيان بدأت مشوارها الإبداعي -قبل عشر سنوات- بكتابة الشعر، لكنها أدركت أن هاته النصوص قد لا تصنع أدبا حقيقيا، لعلها أيضا فهمت، وبعمق، قولة أندريه جيد: "لا يمكن أن نخلق أدبا جيدا بعواطف طيبة"، لذلك لجأت إلى النثر مسلحة بترسانة من تقنيات الكتابة السردية الحديثة، سيتضح ذلك في مجموعتها الأولى "همس النوايا" ليتجسد بشكل أوضح في مجموعتها الجديدة "هذه ليلتي" (*).

يتجانس عنوان المجموعة جناسا تاما مع عنوان واحدة من روائع الطرب العربي، ربما كانت الكاتبة تريد أن تكون لها ليلتها الخاصة، ليلة واحدة من ليالي شهرزاد، ليلة للحكي.

في نصها الأول "أسرار" - وهو أحد أهم وأقوى نصوص المجموعة- تلعب الكاتبة بعامل الزمن بحرفية واضحة مستفيدة من تقنيات الرواية الحديثة.

(*) "هذه ليلتي"، منشورات مجموعة البحث في القصة القصيرة بالمغرب، الطبعة الأولى 2006 .

يطرح النص أزمة الصراع بين ثقافتين مختلفتين، ثقافة أب الساردة المنحدر من جبال الريف المغربي المحافظ، وثقافة خوليو الفتى الإسباني المتحرر الذي سيسلم محبوبته الريفية الصغيرة رسالة حب أمام والدها، وحين كان الأب يقيم الدنيا ويقعدها احتجاجا على هذه "الجريمة" كان خوليو هو الآخر يحتج على "الجريمة المضادة" التي ارتكبها الأب: "هذا الرجل مزق قلبي، انتهك أسراري وألقى بها في القمامة" هذا ما قاله خوليو لمديرة الكوليخيو بينما كان الأب يصرخ في وجه ابنته ويذكرها بما فعله فرانكو بالمغاربة وبما سببه الإسبان للزعيم الخطابي من متاعب، وسيكون صعبا عليها أن تقنعه بأن خوليو -كرمز للجيل الجديد- كان يحب الخطابي ويعشق لوركا الذي قتل بسبب موقفه من الاستعمار، لوركا الذي ستستدعي الكاتبة في نصها واحدا من أجمل وأشهر مقاطعه الشعرية:

بسبب هواك
تعذبني الأنسام و قلبي
تؤلمني قبعتي.

يقف النص أيضا عند إشكال نفسي آخر: الرجل الذي في البيت والرجل الذي في القلب: "أحب الرجل الحزين الصامت.. . لتكن صامتا يا خوليو كي أحبك أكثر، أنا لا أحب هذا الرجل الذي يزعمون أنه رجلي، أنا لا أعرفه... لا أعرف أعماقه لأنه يتكلم قبل الأكل وبعد الأكل، قبل النوم وبعد النوم، قبل أن أتكلم وبعد ألا أتكلم جالسا أو مستلقيا كان... وأنا أصمت...".

في نص "عادي" يحضر نموذج الرجل العربي الذي يتباهى بتعدد عشيقاته والذي يتفنن في سرد مغامراته والذي يرى الجنس ضرورة بيولوجية بينما يريد بالمقابل أن يتزوج امرأة "صالحة" لم يقربها أحد من قبل، يحضر هذا النموذج أيضا - لكن بجلباب آخر - في نص "هذه ليلتي" حيث الأب يمجد المغنية فريدة الحسيمية في الحفلات بينما يستعيذ منها أمام الفقيه.

يبدو أن فاطمة بوزيان تجهد نفسها كثيرا في البحث عن صيغ سردية جديدة لذلك ستتولد في نصها "الازدحامولوجي" شخصية قصصية لم نألفها من قبل، شخصية تعاني من تسرب شخصيات أخرى إليها ومن تسربها هي أيضا إلى تلك الشخصيات.

تراهن الكاتبة في مجموعتها الجديدة على رهان التحديث، لكن وفق معايير واقعية

وموضوعية تفرضها طبيعة تفكيرها وطريقة حياتها ، فمعظم كتاب الجيل الجديد يستفيدون من التقنيات الحديثة في التواصل وفي قراءة المتون الأدبية ومتابعة الحركة الثقافية في مختلف بقاع العالم ، لذلك سنجد المجموعة القصصية "هذه ليلتي" حافلة بعدد من التيمات الجديدة ، إذ تحاول مختلف النصوص أن ترصد بأشكال متنوعة المفارقات الاجتماعية والتحولات العاطفية في عصر المحمولات والفضائيات والأنترنت .

الحقل الدلالي للأنترنت يغطي مساحة هائلة من معجم المجموعة : "بريد إلكتروني - لوجيسييل - إيميل صادر - إيميل وارد - غوغل - ويب - ماكروسوفت - تسجيل الدخول - تسجيل الخروج - impossible d'afficher la page - الكونيكسيون - إعادة البحث - تحميل - أونتي فيروس . . . "

بل إن بعض النصوص تماهت في بنائها وتركيبها مع خصائص أنترنيتية محضة ، لذلك سيحس القارئ أن الأنترنت هو أحد أهم شخصيات المجموعة ، إن لم يكن بالفعل يحتل مكانة البطل .

على مستوى البناء كانت بوزيان موفقة إلى حد كبير في تشكيل النصوص بطريقة غير نمطية وتقليدية متوخية بذلك ممارسة تجريب متوازن - على حد تعبير الباحث محمد المعادي - إذ في كل نص أكثر من حكاية وأكثر من عنوان و جنوح واضح إلى الخلط بين البدايات والنهايات ، نلمس أيضا ذلك التوظيف المحكم لتقنيات أخرى كالتشذر والتمفصل والإستدعاء والتناص والتبئير واللقطة والبناء الحلزوني والشجري، إضافة إلى توزيع النص عبر فقرات غير منسجمة زمنيا ومكانيا .

ثمة أيضا نحت لكلمات وتراكيب جديدة : "يستولجني الى قلبه كأنه رابط الكتروني - الازدحامولوجي - شعرت وأنا أرفعني من الأريكة أن ليس في سواي خفيفة جدا . . . "

أريد أن أشير في النهاية إلى أن الحركة القصصية النسائية في المغرب تعرف حركة أقوى بكثير من مثيلتها الشعرية ، فإذا كنا نجد الجواب صعبا حين نطرح سؤالا عن مدى حضور الشاعرات المغربيات نجد بالمقابل أجوبة كثيرة حين نطرح نفس السؤال بخصوص القاصات . ويكفي هنا أن نستحضر أسماء من عيار زهرة زيراوي، لطيفة باقا، ربيعة ريحان، عائشة موقيظ ، مليكة مستظرف ، رجاء الطالبي ، مليكة نجيب، لطيفة لبصير - ليلى الشافعي . . . وأسماء أخرى ستنضم لعالم القصة مع مطلع الألفية الجديدة .

حوار الحضارات في ضوء كتاب «تلك الأحداث...»

إبراهيم القادري بوتشيش

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

يجمع الباحثون على أن الحوار الحضاري هو الفكر الذي يقوم على الإيمان بوحدة الأصل البشري، والسعي إلى تأسيس شراكة إنسانية صحيحة وعادلة، تتغيا تأثيث وحدة كونية تتأسس على قيم مشتركة، مع احترام خصوصية الأمم والحضارات.

وإذا كانت أطروحة الحوار الحضاري مقولة تبنتها الأديان، فإن نهاية الحرب الباردة، وبروز النظام العالم الجديد القائم على الاتجاه القطبي الأحادي، وما حمله من تباشير عولمة بدأت رياحها تكتسح كافة المجالات والحقول، جعل فكرة الحوار الحضاري تتسنم سلم الأولويات عند المفكرين والسياسيين، إذ نجد على سبيل المثال المفكر "روجي غارودي" يطرح عنوان حوار الحضارات منذ الربع الأخير من القرن الماضي، مؤكدا على الوحدة الحضارية للبشرية، وداعيا إلى تأسيس أرضية للتفاهم بين الشعوب. كما برزت في هذا الصدد كتابات ثلة من الكتاب العرب من أمثال المهدي المنجرة، ومحمد عابد الجابري، ومحمود أمين العالم، وغيرهم ممن تنبو عن ذكرهم هذه الورقة.

وبعد اندلاع أحداث 11 سبتمبر، أصبح القلق يعتور العالم، فارتفع إيقاع الدعوة لحوار الحضارات، لا على مستوى النخبة العالمة فحسب، بل حتى على مستوى الطبقة السياسية، فبرزت على السطح دعوة الرئيس خاتمي لحوار الحضارات، ثم تبعتها دعوة zapatero رئيس الحكومة الإسبانية لأجرأة فكرة الحوار بين الحضارات، وهي الدعوة التي

تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة، فضلا عن بيان مكة الصادر عن مؤتمر مكة سنة 2005. وفي نفس المنحى، بدأت المؤتمرات والملتقيات الأكاديمية حول هذا الموضوع تعقد في الجهات الأربع من المعمور، حتى أصبح بكل المقاييس موضوع الساعة، ونجح في خلق جاذبيته كبيرة لكوكبة من المفكرين وأهل الرأي والاجتهاد.

في هذا السياق، تأتي كتابات المفكر المغربي الأستاذ حسن أوريد الذي أدلى بدلوه في هذا الموضوع، وذلك ضمن مقالات متنوعة حواها كتابه القيم الموسوم ب " تلك الأحداث . . . "(*)، وهو اجتهاد محمود ينضاف إلى سلسلة حلقاته الفكرية التي بصم بها الفكر العربي عامة، والمغربي بصفة خاصة.

إن قراءة فاحصة لكتابات الأستاذ أوريد حول تيمة الحوار الحضاري، تجعل القارئ يسجل بعد تفكيكها وتشريح مكوناتها الواضحة منها والمرموزة، مجموعة من المؤشرات التي تؤسس خطابا متميزا يقوم على المعطيات التالية:

1- تصحيح وتدقيق مفهوم حوار الحضارات.

2- تأسيس منهج للحوار الحضاري.

3- طرح البدائل المستقبلية للحوار الحضاري من خلال تجاوز شبكة من المعادلات الصعبة.

قبل تحليل هذا الثالوث الذي يشكل حجر الزاوية في خطاب الأستاذ حسن أوريد، ثمة ملاحظة أولية عنّت لي و أنا أقرأ هذا العمل الهام، وتتمثل في الأثر العميق الذي خلفته أحداث 16 ماي في المسار الفكري للمؤلف؛ ولاغرو فإن القارئ يلمس في كل واحدة من المقالات التي تناول فيها تيمة الحوار الحضاري، نبرة التأمل والتدبر، والنبش والحفر العميق في قعر تلك الأحداث، ومحاولة الانطلاق منها لبناء رؤية مؤسسة تتغيا إعادة صياغة جديدة للحوار الحضاري، رؤية تتميز عن الرؤى السابقة بكونها لا تعمم ولا تنظر بعين واحدة، مما جعلها رؤية جديدة فيما أتصور، لأنها تتأسس على قراءة الذات قبل الآخر، وتدعو إلى حوار داخلي قبل الحوار مع الحضارات الأخرى، وهو ما سأفصله لاحقا.

ومما ينهض دليلا على وقع أحداث 16 ماي في تأثيث فكرة الحوار الحضاري لدى المؤلف، أن جل المقالات التي كتبها بصدد الموضوع، جاءت مباشرة بعد تلك الأحداث، بل لا نجازف - إذا صحّ التأويل وصدق افتراض قراءة المضمر والمرموز- أن العنوان الذي

يحمله الكتاب موضوع هذا اللقاء وهو " تلك الأحداث . . . " ، إنما شكل فيما أتصور تمثلا وانعكاسا أمينا لما أذهب إليه . أو لا تحيل النقط الثلاث التي جعلها الكاتب رديفة لعنوان الكتاب إلى خانة التأمل والتدبر والتفكر ، واستقاء الدرس والعبرة والمراجعة ، وإعادة النظر واستبطان الثاوي واستقراء المستقبل؟؟ مع رغبة محمومة في سبر غور الحاضر وتقويم اعوجاجه ، هذا الاعوجاج الذي تعكسه المصطلحات التي استخدمها المؤلف لنعت تلك الأحداث من قبيل «الجرثومة الدنيئة» و«الاعتداء الغاشم» (ص38) ، و«ومهاوي الفتنة» و«مغبات الزيغ» و«التنطع في الدين» و«المزايدة في الوطنية» (ص49) ، إلى غير ذلك من المصطلحات التي تنم عن أن شيئا ما يحرك مخيال المؤلف ، ويشحذ قناعته في الحاجة إلى الحوار الداخلي أولا . هذا النزوع إلى الحوار الداخلي ، لا يعني أن المؤلف ينقص من قيمة الحوار مع الآخر ، ولكنه يحرص على جعله ممرا أساسيا لإنجاح الحوار معه . لكن ما هو منظور الأستاذ حسن أوريد إلى الحوار الداخلي؟

1- الحوار الداخلي جسر أساسي نحو الحوار مع الآخر :

تمثل الدعوة للحوار الداخلي الذي اقترحه المفكر حسن أوريد ، تجاوزا لنظريات الحوار الحضاري التي سبقتها . فمثل تلك النظريات ركزت على بعدين أساسيين في عملية الحوار ، هما : "الأنا" و"الآخر" ، وأدارت ظهرها لكل حوار أو نقد ذاتي ، في حين أن الأستاذ أوريد يرى أن نجاح الحوار مع الآخر يبدأ أولا بالحوار مع الذات . ولا مشاحة أن أحداث 16 ماي زادت من ترسيخ عود قناعته بهذه الفكرة ، فبعد أن كان موضوع الحوار الحضاري يجري في المنتديات والمؤتمرات حول شروط الحوار وإمكانياته ، فإن أحداث الدار البيضاء يقول المؤلف «تفرض إضافة شرط آخر هو الحوار بيننا ، لأن ما حدث يتميز بكون أيادي مغاربة امتدت إلى مغاربة عن قصد وبكل برودة ، انطلاقا من تأويل للدين ، وقراءة مبتسرة للواقع . . ومن إيديولوجية تحلّل وتحرّم وتكفر» (ص37) .

وفي دعوته للحوار الداخلي ، يناشد المؤلف مكونات المجتمع المغربي ، والمجتمع الإسلامي برمته إعادة النظر في الجانب المعاملاتي بين الأفراد والجماعات ، وينبّه إلى أن تجاهل الحوار الداخلي سيجعل الآخر يفرض علينا الحوار الذي يختاره ، وبالطريقة التي يختارها بنفسه (ص61) ، وسينتقل الصراع الحضاري آنذاك إلى داخل المجتمعات الإسلامية نفسها بين المستبعين للغرب ، والمنافرين له ، وهو ما سيحقق طموح الغرب كما

يتجلى ذلك في الرسالة التي بعثها توماس فريدمان إلى وزير التربة الوطنية السعودي يقول فيها: «إننا لا نريد حربا مع الإسلام، إننا نريد حربا داخل الإسلام» (ص62).

وإذ يحرص الأستاذ حسن أوريد على الحوار الداخلي كمدخل أساسي لإنجاح الحوار مع الآخر، فإنه يضع شروطا لهذا الحوار أهمها عدم إقصاء أي طرف، وعدم الانطلاق من الفكر المعلّب الجاهز الذي يرى في نفسه المالك للحقيقة المطلقة، وعدم التنكر للانتماء الحضاري ثم نبذ العنف، والتحلي بالأخلاقية الإسلامية. كما يركز على ضرورة التحاور بين مختلف المذاهب الإسلامية لتوحيد الرؤية عند الحوار مع الآخر.

2- تصحيح وتدقيق مفهوم الحوار الحضاري:

عبر قراءات متعددة المساحات لمجموعة من المقولات والأطروحات التي تضمنتها كتب ومقالات لكتاب عرب وغربيين، وفي مقدمتهم "صموئيل هنتنغتون" و"برنارد لويس" وغيرهما ممن اهتموا بشأن حوار الحضارات أو صدامها، ينتقد المؤلف المقولات السابقة التي رفعت شعار الحوار الحضاري، لكونها لم تحدد الأهداف والغايات التي تصبو إليها. يقول في ص 39: «حوار الحضارات إذن فضفاض لا تتحدد غاياته إلا أن تكون أكاديمية صرفة». ولم يكن حوار الحضارات من وجهة نظره سوى ردّ فعل تلطيفي للهزة التي أحدثها مفهوم صدام الحضارات (ص39). كما أن مفهوم حوار الحضارات لا يعبّر عن البعد الشمولي للحوار، بل يضمر خلفه المعنى المبتسر الذي يريد سدنة الفكر الغربي تكريسه بقوة الواقع، وهو قصر الحوار بين الإسلام والغرب، وليس كل الحضارات الإنسانية كما يحمل المدلول الصريح لعنوان المقولة، ينهض قرينة على هذه الرؤية المختزلة ما كان قد عبّر عنه المفكر الأمريكي "صموئيل هنتغتون" نفسه في المحاضرة التي كان قد ألقاها في أكتوبر 1992 قبل أن ينقحها في صيف السنة الموالية، وينشرها بمجلة Foreing affairs لتصبح دالة على كل الحضارات، فيسميها بصدام الغرب والآخرين: The West and the Rest.

الباحث يدعو إذن إلى تدقيق مفهوم حوار الحضارات، وفحص ما إذا كانت آليته تشمل حوارا بين الحضارات الإنسانية برمتها، أم أنه يبطن الخلفية التي تبتسر ذلك الحوار في الإسلام والغرب، مما ينفي عنها صفة الشمولية والغايات المحددة.

وكما انتقد الأستاذ أوريد مفهوم الحوار الحضاري المتواتر عند "هنتغتون" وما تخفيه أطروحته من تضليل واستعداء للعالم الإسلامي، فإنه انتقد أيضا "برنارد لويس" في كتابه " Islam and the West" والذي يزعم فيه أن الإسلام مجرد دين، بينما الغرب فضاء جغرافي ومنظومة حضارية، وكان من الأولى به - يقول المؤلف - بأن يقابل بين الطرفين كمنظومتين حضاريتين ولا ينظر للإسلام كعقيدة فحسب.

وفي تصحيحه لمفهومي الغرب والإسلام، يركز المؤلف على معيار جوهري، وهو الانتماء الحضاري وليس الانتماء العقدي أو الجغرافي أو الثقافي. فرغم أن الغرب مرتبط بمرجعية ثقافية قائمة على الانتماء للميراث الإغريقي الروماني واليهودي والمسيحي، إلا أن مجموعة من التمايزات والاختلافات تخترقه، خاصة بين أمريكا والقارة العجوز أوروبا التي تتضارب مواقفها أحيانا. كما أن العالم الإسلامي تعتوره تمايزات مذهبية وأخرى سياسية ذات مرجعية دينية أو وضعية تختلف أيضا مواقفها، لذلك يدعو الباحث إلى مراجعة مصطلحي الغرب والإسلام، ويقترح تعويضهما بمصطلحي العالم الإسلامي والعالم الغربي، عند ذلك لا تغدو الإشكالية متمحورة بين كتلتين متناقضتين، بل أمام عالمين فيهما قوى متنوعة الرؤى، قد تكون أجزاء منها متناقضة، بينما تكون أخرى متقاربة، لا بل ربما حتى منسجمة، مما يعطي فرصة أفضل لأي حوار حضاري.

ARCHIVE

وأتصور أن هذا التصحيح لمفهومي الغرب والإسلام والذي نجده للأسف في مقرراتنا بالجامعات والمعاهد، قد يفتح بابا جديدا لفرص الحوار بين عناصر من هاتين الكتلتين اللتين يتم تقديمهما خطئا كنقيضين، فالرؤية الميكروسكوبية التي تبناها المؤلف تسمح بإعادة النظر في إمكانية الحوار بين عناصر هاتين الكتلتين لا الكتلتين نفسيهما، ومن هنا سيأتي سؤالي في نهاية هذه القراءة عن إمكانية قيام حوار بين مكونات المجتمع المدني في العالمين العربي والإسلامي، وليس بين الغرب والإسلام كما هو شائع ومتواترا.

3- رؤية المؤلف لإمكانية قيام حوار حضاري مع الآخر:

حين يتصدى المؤلف لإشكالية الحوار الحضاري ومدى إمكانية تحقيقه مع الآخر، فإنه يركز على ثلاثة أسئلة من الأهمية بمكان:

أ- هل هناك إمكانية للحوار مع الآخر؟

ب- من هم أطراف الحوار؟

ج - ما هي شروط الحوار الناجح ؟

عندما يسعى لتقديم إجابات، فإنه يستشعر بثقل المسؤولية وصعوبة الموقف، فهو يميز بين زمنين في الحوار الحضاري، زمن أثبت إخفاقاته، وهو الذي كان ينتصب موضوعه الرئيسي في المؤتمرات والملتقيات ووسائل الإعلام، وهو زمن انتهى في نظره لأنه لم يغير من الواقع شيئا، وزمن مرتقب، وهو الذي يأمل أن يعمل على تذويب الاحتقان السياسي بين أطراف الحوار، ولكنه يتحفظ بشأن نجاح هذه المرحلة المرتقبة لكون الطرف القوي في الحوار لا ينصاع لدعوة الحوار (ص45).

ومع الإقرار بهذه الصعوبة التي تلف إمكانية الحوار الحضاري، يؤكد الباحث استنادا على مرجعية تاريخية أن القوة لا تحسم النزاعات، وأن الحوار يبقى صمّام الأمن الوحيد، مبررا صحة مقولته بمجموعة من الحجج والقرائن.

أما إجابته عن السؤال الثاني المتعلق بأطراف الحوار، فإنه يستبعد أن تقوم الأديان بذلك، مبررا وجهة نظره من أن الزمنية التاريخية لحوار الأديان لم تعد قائمة بعد انحسار المد الشيوعي الرافض لفكرة الدين من جهة، ولأن حوار الأديان هو في مجمله حوار أكاديمي يدور بشكل حلزوني حيث يراوح مكانه ويرجع إلى نقطة البداية (ص64).

فإذا لم تكن الأديان تمثل أطراف الحوار، فمن الذي يجري الحوار؟

ينطلق المؤلف في تحديد أطراف الحوار من معادلة صعبة، ولكنها ليست مستحيلة، فالأطراف التي ينبغي أن تجري الحوار هم «أناس لهم مسافة معينة مع ثقافتهم انطلاقا من قراءة نقدية لها، دون تنكر لها»، أي دون تنكر للمرجعية الحضارية التي تؤطر الأطراف المتحاورة. بكلمات أخرى، إنه الطرف الذي يكون وسطيا معتدلا غير متعصب، ومطلعا اطلاعا دقيقا على إيجابيات وسلبيات موقعه وموقع الآخر أيضا. وأفهم من ذلك - إن صحّ التأويل - أن المؤلف يقصد بهذا الطرف من يسميهم في موضع آخر من كتابه بأهل الرأي والفكر والعمل (ص51-52)، أي النخبة العالمة المستنيرة التي تعتز بانتمائها الحضاري، دون أن تتنكر لرؤية الذات في المرآة لتقوم بقراءة نقدية لثقافتها، كما فعل - بامتياز - المفكر العربي اللامع إدوارد سعيد.

بيد أن النقد الذاتي لثقافة الطرف المتحاور لا يكفي في نظر الأستاذ أوريد، بل يجب على الطرف الذي يجري معه الحوار أن تكون لديه معرفة دقيقة بالطرف الآخر المحاور، لأن

الحوار لا يتم أصلا مع جهل بالآخر أو تجاهله (ص47)، ولذلك يدعو المفكرين الغربيين إلى تجاوز المعرفة السطحية للعالم الإسلامي، أو الانطلاق من نظرة تجزيئية أو إيديولوجية، وهو نفس الشرط الذي ينطبق بحرفيته على مفكري العالم الإسلامي أيضا.

لذلك فإن تصور "هنتغتون" للصراع بين مسلمي البوسنة والصرب، بأنه صراع حضاري بين الصرب الذين يمثلون القوام الحضاري للبلقان، وبين الدخلاء من مسلمي البوسنة الذين حوّلهم إلى غزاة معتدين، يعتبره الباحث مغالطة كبيرة ومعرفة سطحية، وهو نفس ما انتقده أيضا على الكاتبة " أوريانا فلاشي " في كتابها L'orgueil et la rage الذي ينم مضمونه عن جهل فادح بواقع العالم الإسلامي.

صحيح أن الغرب أنتج معارضته لهذه المعرفة السطحية بنشوء ما يعرف بحركة الاستغراب التي رامت التصحيح والتعمق في القضايا المعرفية للعالم الإسلامي، لكن المفكر حسب أوريد يطرح أكثر من ذلك: ضرورة إعادة الاعتبار للجامعات ومراكز البحث، إذ لا يمكن لحوار أن يقوم بدون معرفة موضوعية بالآخر (ص60)، وهو أيضا ما نطالب به ذواتنا إذ لا يكفي أن تكون لدينا صورة نمطية نسبغها على الغرب، تأسيسا على قصور معرفي، ثم يتحول بعضنا نتيجة هذه القراءات السطحية إلى مفتين يقررون ويهدرون الدم ويقتلون النفس التي حرّم الله قتلها (ص61).

إلى جانب المعرفة الدقيقة بالآخر، يطرح الأستاذ حسن أوريد شرطا آخر لإنجاح الحوار الحضاري، وهو الاحترام المتبادل بين أطراف الحوار، وتصفيات مخلفات الماضي، وكافة أشكال سوء التفاهم. ويذكر بمحطة كانت فرصة حقيقية لانطلاق الحوار، وهي انتهاء الحرب الباردة، بيد أن القوى المحافظة في الغرب حالت دون استغلالها. وبالمثل فإن الخطيئة الكبرى التي لا تزال في نظره تعترض سبيل هذا الحوار، تكمن في الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

في سياق مواز ومندمج، يقدم المؤلف في مقال آخر مبدأ التسامح كأساس وجوهر لإحداث نقلة إيجابية للحوار الداخلي والحوار مع الآخر. ويستدل على صحة رؤيته بفكر " فولتير " الذي يمثل أنموذجا في التسامح، والدعوة لكسر طوق الفكر الخرافي الذي يعد دون منازع وقودا للتعصب. ويبين الباحث في براعة كيف كان " فولتير " نفسه معجبا بالحضارة العثمانية التي كانت تقر باختلاف الملل والنحل، دون أن يتنكر قيد أنملة لحضارته الأوروبية المستمدة من التراث الإغريقي والروماني، حيث وجدها تزخر بنماذج من

التسامح، لذلك يشكل التسامح في نظره قطب الرحى في أي حوار حضاري.

وفي المنحى ذاته، أي الدعوة للتعايش في مناخ من التسامح، يرى المؤلف أن ثمة جوانب مشرقة في التراث الإسلامي قد أنصفها مفكرو الغرب، ومن ضمنها ظاهرة التصوف التي رأى فيها Stephan Shewertz في كتابه The two faces of Islam اتجاها ذو نزعة إنسية. ولكنه ينتقد مقابل ذلك الفكر الغربي الذي يقف عند سياج إيجابيات التصوف دون النفاذ إلى عمقه الفلسفي. لذلك يدعو المثقفين إلى استجلاء الإنسية التي يتميز بها التصوف، تلك الإنسية التي تقرب الأقصى، وتتجاوز الانتماءات العرقية والعقدية، معطيا نماذج من أعلام التصوف الذين صاغوا نظريات تستوعب تراثا عالميا وتجربة إنسانية تمور بالتسامح والدعوة للتعايش. إن إعادة الاعتبار للتراث الصوفي، قمين حسب المؤلف بأن يوظف لخدمة حوار الحضارات.

قصارى القول أن المبحر في ثنايا كتابات المفكر حسن أوريد حول موضوع الحوار الحضاري يمكن أن يستشف بعض الخطوط العريضة التي ميزت خطابه، والتي يمكن حصرها في ما يلي:

1- إن الحوار الذي ترومه كتابات الأستاذ أوريد حوار هادئ ورصين، بعيد عن ضجيج الإعلام، وصخب توصيات المؤتمرات والملتقيات التي قالت في الحوار الحضاري أكثر مما قاله الإمام مالك في الخمر، دون أن تكون قادرة على تغيير الواقع.

2- إن قناعته بفكرة الحوار الحضاري لم تأت على حين غرة، بل جاءت متدرجة عبر دورات شكلت محكّا لقناعاته الفكرية، ولا غرو فقد أوضح بما لا يدع مجالا لأي ذرة من الشك أنه كان مقتنعا بفكرة حوار الأديان، لكن تبين له بعد رصد ومتابعة أن الحوار بين الأديان مجرد عمل أكاديمي ظل يراوح نفسه دون نتيجة، وهو ما جعله ينتقل للدعوة لحوار الحضارات.

3- يحرص الباحث على إبراز موقع الحضارة الإسلامية ضمن خريطة الحضارات العالمية التي ينبغي أن تتحاور، ومن ثم يرى أن على الغرب أن يعترف بها، وهو مع ذلك ينطلق من فكرة أن التفاعل الحضاري لا يأتي من دون صراع حضاري.

4- يشدد الأستاذ حسن أوريد في مجمل كتاباته على الانتماء الحضاري للأطراف المتحاورة ويطعن في شرعية المتحاور الذي يتنكر لانتمائه الحضاري مهما علا كعبه.

5- يركز الأستاذ الباحث كذلك على الحوار الداخلي للمجتمعات الإسلامية، هذا الحوار الذي من شأنه أن يوحد المواقف تجاه الآخر، ويدعو في نفس الوقت إلى نبذ العنف والاعتقاد بالفكر الأحادي المطلق.

6- ينطلق أيضا من قاعدة معانقة العصر دون التفريط بالذات، مع تخليق السلوك لإنجاح الحوار.

7- أما منهجية معالجة موضوع الحوار الحضاري، فيقوم في ظنه على نقد الرؤى الغربية، وتصحيح المفاهيم وتدقيق المصطلحات، والقراءة الواعية للواقع الإسلامي، والتحليل الهادئ، والاستناد على المرجعية التاريخية والدينية، وتأمل التجارب الإنسانية، والدفاع عن روح المواطنة. كما أن تحليلاته تتميز بالبساطة والوضوح، مع إعطاء نماذج تطبيقية لتبسيط رؤاه العميقة وتفكيك مكونات أطروحاته الثرية.

والجدير بالملاحظة أن الأستاذ أوريد صاغ أفكاره ورؤاه وفق تأملات نضجت على نار هادئة، وأسسها على عمق ودقة وضبط، ودراية معرفية نهلت من آخر الصيحات المرجعية والكتابات العربية والأجنبية المتخصصة في الموضوع، وكتبها بأسلوب عربي راق يجعل القارئ يطمئن إلى أن لغة الضاد لا يزال لديها من الأوتاد ما يجعل خيمتها قادرة على الانتصاب والشموخ.

ومع ما تتميز به منظورات المفكر المنوه به من عمق وشمولية، ونحوتات جديدة في معمار مقولة حوار الحضارات، فإن المتفحص الدقيق قد لا يسايره في سائر طروحاته، ومنها تلك التي سأحاول أن أضع الأصبع على بعضها، دون أن أزعم أنني على صواب:

1- إن مقولة حوار الحضارات كما وردت عند الباحث مقولة تحتاج إلى مراجعة، فالأمر في تصوري لا يتعلق بحوار أو صدام الحضارات ذاتها، لأن الحضارات لا تتصارع أصلا، وإنما الناس هم الذين يتصارعون خروجا على المألوف والمسطر في حضارتهم؛ ومواقف الصراع لا تنبع من الحضارات نفسها، بل تنبع بين البشر بسبب تناقض المصالح، مما يحيل إلى إمكانية الحديث عن صراع المصالح وليس صراع الحضارات. ففي كل حضارة يوجد التنوع والتناقض بين عناصر هذه الحضارة أو تلك، مما يسمح بالحديث عن رؤى متعددة للعلاقة بين الحضارات، والحوار أو الصدام إنما ينشأ من مكونات هذه الرؤى بحسب ما تمليه مصلحة كل فئة من الفئات المنتسبة لها في سياقها التاريخي، وموقعها في البناء

الاجتماعي . وعليه فإن العلاقة بين الحضارات - حوارا كانت أم صداما - ليست قرارا جاهزا ، وإنما هي بتعبير محمد عابد الجابري عملية تاريخية تستند على ظرفية زمنية معينة ، ومن هنا أرى أن القول بصراع الحضارات مقولة مغلوطة من الأساس ؛ ولا نعلم في تاريخ الحضارات صراعا بالمعنى المفترض للصراع ، بل العكس هو الصحيح ، إذ ثبت تاريخيا أنها تتكامل وتغذي بعضها البعض ، بينما مصالح الإنسان وإيديولوجياته هي التي ظلت تتصارع طيلة الحقب التاريخية . وتأسيسا على هذا المحك التاريخي ، فإن مقولة الحوار الحضاري تبدو مقولة مهزوزة تقفز على ألياف الواقع ، وتدعو المتبنين لها إلى مراجعة موقفهم مثنى وثلاث ورباع . . .

2- رغم الانتقادات البارعة التي قدمها الباحث في رؤيته للحوار الحضاري ، خاصة ما يتعلق بمغالطة حصر الحوار في ثنائية الإسلام والغرب ، إلا أن القارئ لا يتخطى في ثنايا تحليلاته سياج هذه المساحة المبتسرة التي تراوح الطرفين ذهابا وإيابا ، دون امتداد واضح إلى الفضاء الأرحب الذي يشمل كل الحضارات الآسيوية والأمريكية اللاتينية وكل حضارات الجهات الأربع . فالحوار الحضاري لا يكتمل إلا باستحضار هذا المشهد الكوني الشمولي للحضارات ، وتلك مطبة لم تسلم منها دراسات وأبحاث المهتمين بشأن الحوار الحضاري ، وإن كان من الإنصاف القول أن الباحث أشار إليها كإشكالية ، ولكنه اكتفى بمعالجة الحوار مع الآخر (الغرب) دون الآخرين ، أي دون بقية الحضارات الأخرى التي تشكل السواد الأعظم من هذا الكوكب ، ومن ثمة كان من الأجدى في تصوري التجاوز العملي لسقف المعالجة الذي يقتضي الارتحال من خانة " طرفي " الحوار في صيغتها الثنائية - كما دأبت على ذلك الدراسات السابقة - إلى خانة " الأطراف " المتحاورة في صيغتها المتعددة كما دعا إلى ذلك المؤلف ذاته دون أن يدخلها إلى حيز التطبيق .

ARCHIVE

3- إذا كان جموح الغرب ونظرته الاستعلائية قد أضعفت من قدرة المتحاورين ، وأصبح الصوت المنادي بحوار الحضارات خافتا أمام ضجيج الإرادات المتعنتة والسلوك الإمبراطوري المتوحش للقوى الغربية المحافظة ، فكيف يمكن أن نساير الأستاذ حسن أوريد في استراتيجيته القائمة على ضرورة وضع شروط للحوار مع الآخر ، هذا "الآخر" الذي أقر الباحث نفسه - وبصيغة التأكيد الذي لا تشوبه ذرة من التحفظ - أنه الطرف الأقوى المتعنت (ص45) ، فكيف يمكن للطرف الأضعف في الموازنة الدولية أن يفرض شروطا على الطرف الأقوى؟

4- إذا كانت آلية الحوار مع القوى السياسية الغربية الآخذة بناصية الحكم تعتورها صعوبات ومثبطات مختلفة المشارب، بسبب تعنت تلك القوى المهيمنة، حتى أن الحوار بين الطرفين تحول إلى اللاحوار، أو أصبح في أقصى الحالات مجرد "حوار بين الطرشان" كما تدل على ذلك الوقائع، أفلا يمكن تأسيس تجربة أخرى من الحوار يكون أطرافها هذه المرة ليس القوى السياسية الحاكمة التي لا تصغي لصوت الحكمة، وإنما قوى المجتمع المدني في العالمين الإسلامي والغربي من أحزاب ونقابات وجمعيات مدنية ومنظمات إنسانية وحقوقية، هذه القوى التي أثبتت غير ما مرّة أنها الطرف المهيأ لإنجاح الحوار. ولعل مثال معارضة تلك القوى في الشرق والغرب وفي كل أرجاء المعمور للحرب على العراق وأفغانستان، بل وحتى فلسطين السليبة، يقوم دليلا على إمكانية التقاء أهداف أطراف الحوار من المجتمع المدني في كافة الحضارات العالمية.

5- إن نقد الباحث لنظرية "صموئيل هنتيغتون" يختزل المسألة في إلغائه البعد الشمولي للحوار وحصره في الإسلام والغرب، والحال أن المسألة أبعد من ذلك، فنظرية "هنتتغتون" لا تركز على التناقض الثقافي والحضاري بين الإسلام و الغرب فحسب، بل تخفي الأسباب الحقيقية للصراع، ومن أهم هذه الأسباب، التفاوت الهائل بين غنى الغرب وثرواته وبحبوحة عيش شعوبه، وبين فقر المجتمعات الإسلامية، والبؤس الذي تتخبط فيه شرائح واسعة من الشعوب العربية، مما يجعل نظرية "هنتغتون" تصبو في نهاية المطاف إلى جعل الغرب يتملص من مسؤولياته عن طريق الزعم بأن انتماء المسلمين لحضارة "بربرية" تجعلهم معادين لقيم الحداثة والحضارة، وبالتالي يصبح الصراع معهم إجباريا، ومن ثم الترويج لمقولة صدام الحضارات لتضليل العالم المعاصر، وإبعاده عن همومه ومشاكله الحقيقية المتمثلة في ضرورة إيجاد قاعدة تنموية، وحكامة دولية تقرب بين الدول الفقيرة والمصنعة، وتسعى لتحقيق صيغة من الشراكة الإنسانية، و تروم إقامة نوع من التوازن أو تضمن على الأقل الحق في الحياة للبشرية جمعاء.

6- إن دعوة الأستاذ أوريد لتبني الأخلاقية الإسلامية في الحوار الحضاري (ص63) - وهو أمر يحيلنا أيضا إلى أطروحة الأستاذ طه عبد الرحمن في سؤال الأخلاق - أقول إن دعوة الأستاذ حسن أوريد إلى تخليق السلوك الحواري، يشكل أرضية خصبة للحوار، ما في ذلك شك. لكن ما مصير تطبيق هذه المقولة على عالمين متعارضين، عالم إسلامي يركز على المقولة الأخلاقية، وعالم فقد الأخلاق بالمرة - إلا من رحم ربك- واستعاض عنها

بالبرغماتية الضيقة المستندة على مركزيته وتفوق شبكته الاقتصادية وترسانته العسكرية وتفوقه التقاني، ولا يزال سياسيوه يستخدمون الاستطردات الفلسفية لمفكريهم بغية ترويج تصورات تؤكد حق الغرب بفرض قيمه على بقية الشعوب، ومن هذا القبيل أطروحة " فوكاياما " حول نهاية التاريخ وانتصار الليبيرالية الديموقراطية؟

هل يمكن مقابل ذلك، ومن أجل إنجاح التحالف الحضاري أن تتبنى أطروحة " فرانسوا فوركي " أستاذ الاقتصاد في جامعة السربون، التي يدعو فيها إلى بلورة قيم كونية مقبولة من قبل جميع شعوب الأرض، تكون غير منحصرة في فلسفة الغرب المتمثلة في الديموقراطية وحقوق الإنسان وقوانين السوق، قيم تستمد جذورها من تراث الإنسانية جمعاء، خاصة أن الأبحاث والدراسات المعاصرة ما فتئت تؤكد على عالمية القيم، ومن هذا القبيل ما أكدته الباحثة " ميشيل غيوم " أستاذة القانون في جامعة السربون على الطابع الكوني لمبدأ حقوق الإنسان، وسبق الأديان الكبرى كالإسلام والمسيحية إلى التنصيص على كرامة الإنسان، ألم يحن الوقت إذن لصياغة هذه القيم الكونية لإقامة علاقات متوازنة بين الحضارات ونهجها كاستراتيجية منفتحة وقابلة للتعديل لتفادي الفخ الخطير الذي وقع في شراكه العالم المعاصر؟؟.

7- والملاحظة الأخيرة تكمن في أن المفكر حسن أوريد رغم استناده في كثير من الاستشهادات على المرجعية التاريخية (ص53)، فإننا نرى أنه لم يحفر بما فيه الكفاية في قعر العلاقات التاريخية بين الحضارتين الإسلامية والغربية في العصر الوسيط. فمثل هذه الالتفاتة التاريخية المعمقة تثبت أنه رغم الصراعات، ورغم اشتعال أوار الحروب الصليبية في العصر الوسيط وما تلاها من حركات استعمارية في التاريخ الحديث، فإن حبل التواصل بين الحضارتين وسائر الحضارات العالمية الأخرى لم ينقطع البتة، وكانت ترجمة الإنتاجات الفكرية للحضارات المختلفة على أشدها، مما زاد من انتعاش الحضارات وتلاقحها واستمراريتها، وهو معطى يمكن على كل حال أن نبدد به غيوم الحاضر، ونساهم به في الدفاع عن أطروحة تكامل الحضارات، بل تحالفها وتلاقحها، مقابل صراع المصالح المتناقضة، خاصة في هذه الزمن الذي أصبح التواصل فيه مفتاح الشراكة الإنسانية وأس القيم المتصالحة.

هامش :

(*) صدر هذا الكتاب عن منشورات طارق بن زياد، مطبعة النجاح الجديدة، نوفمبر 2006.

تحرير السؤال الثقافي

زهور كَرام

تتحقق مصداقية اللقاءات الثقافية من قدرتها على تحرير السؤال الثقافي والقضايا المعرفية من استهلاك نفس الطروحات، وتجديد صيغ التناول حولها، وتجاوز المألوف بتبني مقاربات جديدة تطور التفكير.

عندما نتصفح كتاب "الكتابة النسائية محكي الأنا محكي الحياة". وهو عبارة عن أعمال الدورة السادسة لملتقى أسفي للمرأة والكتابة، سنلاحظ أن الكتاب يعبر بتقديمه ودراساته النقدية وشهادات الكاتبات أنه يعبر عن حالة جديدة في التعاطي مع مسألة كتابة المرأة، وهي حالة تعزز مشهد الوعي الذي بات يتشكل في المشهد المغربي والعربي حول الكتابة النسائية، باعتبارها كتابة إنتاج المعنى من قبل المرأة، وليس عبارة عن مكان رمزي تفجر فيه الكاتبة- المرأة رد فعلها تجاه الرجل والمجتمع والقوانين.

يشمل كتاب "الكتابة النسائية محكي الأنا محكي الحياة" الصادر عن منشورات اتحاد كتاب المغرب، والذي يعد الثاني الذي يضم كل أعمال ملتقى أسفي في دورته السادسة

---

* قراءة في: "الكتابة النسائية: محكي الأنا، محكي الحياة"، أعمال ندوة، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، 2007، ص. 143.

التي انعقدت بتاريخ 20-21-22 يوليوز 2006 تقديما لرئيس الإتحاد الأستاذ عبد الحميد عقار، ومقاربات في الموضوع، ثم شهادات الكاتبات المغربيات والعربيات، فتكريم واحتفاء بالمبدعة والشاعرة المغربية مليكة العاصمي.

تحت عنوان "صوت الفردانية" يقدم الأستاذ عبد الحميد عقار الكتاب من خلال مجموعة من الأفكار، التي تحدد طبيعة مسار الكتابة النسائية عبر تجليها النصي. هكذا، يعتبر أن الكتابة النسائية قد حررت الإبداع من غربته، وهيمنة الصوت الواحد فيه. لكونها كتابة تنتج البحث عن المعنى في تناولها لمجموعة من المواضيع، مثل الجسد الذي لا يأتي تحت رغبة رد الفعل على العقلية الذكورية، والأنا التي يتم استرجاعها بشكل مغاير. إنها كتابة المغايرة والاختلاف من خلال استثمار مؤهلات محكي الأنا في علاقته بمحكي الحياة. ولهذا، يرى الأستاذ عقار أن الكتابة النسائية "ليست ضيفا عابرا، إنها هنا لتبقى، وعلينا أن نجعلها وطنا دائما". (ص4).

في فقرة مقاربات، تعرض النقاد والناقدات إلى مجموعة من العناصر التي تحكم الكتابة النسائية في المشهد العربي. فالناقدة التونسية "جليلة الطريطر" ناقشت الموضوع من خلال عنوان "الهوية الأنثوية من الحكي الشفوي إلى الحكي الذاتي" معتبرة أن الكتابة النسائية كانت في الطور الشفوي إستراتيجية دفاعية، لحفظ الكينونة النوعية، لتنتقل في المرحلة الحديثة مع التخييل والذاتي بالأساس، إلى مجال لبروز الذات الثقافية المنتجة. لهذا، تعتبر أن المحكي الذاتي النسائي العربي هو محكي نضال يندرج ضمن حركات التحرر الوطني، وهذا مظهر من مظاهر خصوصية المحكي الذاتي الأنثوي العربي الذي يلعب أدوارا تواصلية بارزة خلافية بالقياس إلى المدونة الأجنبية كما ترى الناقدة.

أما الناقد المغربي رشيد بنحدو الذي يتميز باجتهاداته النقدية في تحديد المفاهيم التي يشتغل عليها الخطاب النقدي مثل مفهوم المحكي، فإنه يقف وقفة نقدية حول معنى المحكي الذاتي، معتبرا إياه حقلا ملغوما، لكونه ينتمي إلى الأدب من حيث تشغيله لوسائط الحكي الخاصة بالأدب الروائي، من وصف وشخصية وسرد وحوار، لكنه ليس أدبا لافتقاره للمتعة الجمالية. و خلافا لهذا النموذج الذي بدأ يتراكم لأسباب متعددة، يقدم الناقد قراءة في "أحلام نساء" لفاطمة المرنسي تحت عنوان لافت "واقع على أجنحة الخيال" معتبرا هذا المحكي نصا أدبيا يوفق بحذق بين بلاغة لاستيقاع (التماس الواقع) وجمالية الاستخيال (التماس الخيال) خلافا لذلك الطوفان من الكتب التي لا أثر فيها للأدبي.

تعاملت بقية المقاربات مع محكي الأنا محكي الحياة، من خلال قراءات نصية لكاتبات مغربيات وعربيات. يقدم الناقد لحسن حمامة قراءة في المجموعة القصصية "أجنحة الحكي" للكاتبة ربيعة ريحان التي تحتفي بالحكي كشرط إنساني.

ولهذا انساب الحكي في قصصها من الذات كوعاء للتجربة في علاقتها بذاتها وبالآخرين.

ويرى الناقد الحبيب الدايم ربي في مقالته" عقدة ستوكهولم في المتخيل السردي النسائي العربي من خلال أربعة نماذج قصصية" أن الخلط بين البطلة والساردة في كتابة المرأة، يعد نوعا من التجني على الكاتبة وكتابتها، دون أن ينفي صلة التماهي بينهما أحيانا. ويقدم الناقد "محمد أيت لعميم" نموذجا من القصة النسائية المغربية التي انخرطت في وسائل تعبير جديدة. مثل القاصة فاطمة بوزيان التي يقرأ لها الناقد مجموعتها "هذه ليلتي" ويقترح"الكاتب إبراهيم بولحيان مقاربة في المجموعة القصصية للكاتبة "لطيفة باقا" "منذ تلك الحياة" حيث انتصار الكاتبة للمرأة باعتبارها موضوعا قصصيا من خلال لغة نقدية ساخرة.

أما في شهادات، فقد عبرت الكاتبات عن مفهوم الكتابة التي تصبح حاجة حيوية للمرأة من أجل قلب المفاهيم (لطيفة باقا)، وقارب النجاة الذي تتطلع إليه الكاتبة لكي يوصلها إلى شاطئ الأمان (زينب أحمد حفني)، وتعبير عن فلسفة حياة (فاطمة يوسف العلي)، وجرأة امتلاك البوح، المرتبط بدوره بالحرية وبإمكانية امتلاكها، ولهذا فهي بالنسبة للكاتبة شأنا عاطفيا بدونه تفقد توازنها (جميلة عمايرة)، محكي الأنا الذي يعني محكي الحياة.. حياة البشر جميعا (مي خالد)، إنها فتح لشرفات الروح، والإطلالة على العالم من منظور آخر (سحر ملص).

أخيرا في فقرة تكريم واحتفاء والذي خصَّصته الدورة السادسة لملتقى المرأة والكتابة للشاعرة المغربية مليكة العاصمي، فإن الأوراق التي قدمها كل من النقاد الأساتذة نجيب العوفي "قصيدة.. عقيدة" وبنعيسى بوحمالة" متخيل.. أم متخيلات شعرية نسائية؟" وأحمد بلحاج آية وارهام" جماليات الكتابة بالنسق الثلاثي" ويحيى بن الوليد" منبر الشعر وقبة البرلمان" ثم كلمة الشاعرة إكرام عبدي" زلزلة على قرن الواقع والقصيدة"، أجمعت على أن بلاغة الحضور المضيء للشاعرة مليكة العاصمي في المشهد المغربي والعربي أيضا، يعود إلى كونها شخصية التقى فيها التعدد المنتج للإبداعي في الشعر والفكر والسياسة.

فهي تعد أول شاعرة مغربية التحقت بالشعراء الذكور في منتصف الستينيات، فغيرت بذلك المشهد الشعري بالنبرة الأنثوية، ونصوصها التي جمعتها وأصدرتها في ديوانها الأول لتكون أول شاعرة مغربية تنشر ديوانها. مليكة العاصمي شاعرة وأكاديمية وسياسية وكاتبة تفكر وتكتب في القضايا الشائكة ذات علاقة بالوضع العربي (القضية الفلسطينية)، وفي أسئلة سياسية.

هذا التواجد المتعدد والمتفتح على مجالات ميدانية (الممارسة السياسة) وإبداعية (الشعر) وفكرية (الكتابة عن الديمقراطية والذات وأسئلة العصر والمستقبل) جعل من مليكة العاصمة صوتا استثنائيا في المشهد المغربي ولذلك وجب الاحتفاء به.

ندوات وملتقيات

*** تنظيم لقـاء نقـدي حـول رواية "تل الورق" للكاتب والصـحـفي المترجم علي تيزلكاد**، بتنسيق مع فرع اتحاد كتاب المغرب بوجدة .

بمشاركة الباحثين والنقاد : عبد الحميد عقار، عبد الرحمن بوعلي، سامح درويش، يحي عمارة، عبد الله حموتي، بحضور المؤلف ومساهمته .

وذلك بمدينة جرادة يوم الجمعة 15 يونيو 2007 بالمركب الثقافي .

*** تنظيم أربعينية الشاعر محمد بنعمارة في موضوع : "تجربة في الكتابة والحياة"** ، بتنسيق مع فرع اتحاد كتاب المغرب بوجدة

وبمشاركة الأساتذة : نجيب العوفي - حسن الأمراني - محمد بنطلحة - عبد الله شريق - عبد الرحمن بوعلي - مصطفى رمضاني - محمد السرغيني - عبد السلام المساوي - محمد لقاح - جمال بوطيب - صلاح بوسريف - عبد القادر الغزالي - هشام العلوي - عبد الكريم الطبال - الحسين القمري - أحمد شراك - محمد علي الرباوي - إدريس كثير - محمد بودويك - يحيى عمارة - عبد الحميد عقار .

واشتملت الأربعينية كذلك على :

- لقطات بصرية تشكيلية حول بعض إبداعات الشاعر الراحل من إنجاز الفنان نور الدين ماضران .

- مشاهد من شريط فيديو عن الراحل الشاعر محمد بنعمارة.

- اختتام الأربعينية بكلمة لابن الشاعر لطفي بنعمارة، وذلك بوجدة يوم السبت 16 يونيو 2007.

* **ملتقى المرأة والكتابة، الدورة السابعة** بأسفي خلال يومي الجمعة والسبت 27 و 28 يوليوز 2007.

تنظيم المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب، بتنسيق مع فرع الاتحاد بآسفي، وبدعم وشراكة مع ولاية جهة دكالة- عبدة، ومجلس جهة دكالة- عبدة، والمجلس البلدي لآسفي.

بمشاركة:

في ندوة الملتقى في موضوع **"الكتابة النسائية : الاختلاف وسؤال المعنى"** :

سعيد يقطين- غادة نبيل (مصر)- مصطفى النحال - حفيظة قارة بيبان (تونس)- حليمة حمدان- فاطمة بنشعلال (الجزائر)- امباركة منت البراء (موريتانيا)- الزوهرة المنصوري- نوال مصطفى (مصر)- وفاء مليح - حسن اليملاحي- سعاد مسكين- وجدان الصايغ (العراق)- نادية كوكباني (اليمن).

نسق الجلسات: عبد الفتاح الحجمري -رشيدة بنمسعود - حسن رياض.

فيما ألقى رئيس الاتحاد كلمتي الافتتاح والاختتام.

وفي **الأمسية الشعرية** الشاعرات والشعراء:

فوزية العلوي (تونس)- محمد حجي محمد - فتحية سعودي (فلسطين)- إكرام عبدي - إدريس علوش - نهاد بنعكيدة - فاطمة الزهراء بنيس- نبيلة زباري (البحرين)- فاطمة بنشعلال - صباح الدبي - أحمد لمسيح.

نسق الأمسية الشاعر عبد الحق ميفراني.

وشارك في **أمسية الاحتفاء بالمخرجة السينمائية فريدة بورقية**، الأساتذة:

حسن بحراوي -أنور المرتجي- محمد أعرايب - خالد الخضري - حسن النفالي - محمد مجد -عائشة مهماه - شفيق بورقية.

نسق الجلستين عبد الرحيم العلام وأحمد لمسيح .

واختتم القاء بكلمة الفنانة المخرجة السينمائية والتلفزيونية فريدة بورقية ، وبعرض شريط تلفزيوني بعنوان" الحي الخلفي " للمخرجة فريدة بورقية .

* **افتتاح الموسم الثقافي لاتحاد كتاب المغرب 2007-2008** وفق البرنامج التالي :

– ***حلقة نقاش: مغرب ما بعد انتخابات 2007 ، أية آفاق*** (للنشر بمجلة آفاق) .

السبت 9 رمضان 1428 موافق 22 شتنبر 2007 ، الساعة الثامنة والنصف ليلا بمشاركة :

عبد الحي مودن ، كمال عبد اللطيف ، إدريس بنسعيد ، عبد الرحمان العمراني ، رشيدة بنمسعود ؛ وتعقيب : محمد مصطفى القباج ، أنور المرتجي ، محمد بوخزار ، عبد الصمد الديالمي ، سليم رضوان ، محمد زرنين ؛ تقديم وتنسيق : عبد الحميد عقار ، وذلك بمقر اتحاد كتاب المغرب .

– ***ليلة الشعر***

الجمعة 15 رمضان 1428 موافق 28 شتنبر 2007 الساعة الثامنة والنصف (20 و30) ليلا بمقر اتحاد كتاب المغرب .

بمشاركة : وفاء العمراني ، عزيز أزغاي ، محمد عزيز الحصيني ، عائشة البصري ، جمال الموساوي ، أحمد لمسيح .

تنسيق : أحمد محمد حافظ .

– ***ليلة الحكاية***

السبت 16 رمضان 1428 موافق 29 شتنبر 2007 الثامنة والنصف (20 و30) ليلا بمقر اتحاد كتاب المغرب .

بمشاركة : مبارك ربيع ، رجاء الطالبي ، محمد غرناط ، مليكة نجيب ، هشام حراك .

تنسيق : أحمد زنيبر .

– تقديم الإصدارات الجديدة ومجلة " آفاق "

الجمعة 22 رمضان 1428 الموافق 5 أكتوبر 2007 الثامنة والنصف (20 و30) ليلا بمقر اتحاد كتاب المغرب .

بمشاركة :

- " آفاق " عدد 73 و 74؛ تقديم : بشير القمري

- " فراشات هاربة " ، سيرة ذاتية، عبد الكريم الطبال ؛ تقديم : هشام العلوي

- " قرابين، شعر " ، محمد بودويك /أعمال المجهول، شعر، نبيل منصر؛ تقديم : خالد بلقاسم .

- " بعيدا عن بوقانا " ، رواية، عبد الحكيم امعيوة؛ تقديم : نجيب العوفي .

- " قصة حب دكالية " ، محكيات، سعيد عاهد؛ تقديم : محمود عبد الغني .

- الكتابة النسائية : " محكي الأنا، محكي الحياة " ، أعمال ندوة؛ تقديم : زهور كرام .

تنسيق : عبد الإله التهاني .

*** الإعلان عن الفائزين بجائزة اتحاد كتاب المغرب للأدباء الشباب :**

عقدت لجنة القراءة والتحكيم والبت لجائزة اتحاد كتاب المغرب للأدباء الشباب دورة 2006 – 2007 اجتماعها يوم الجمعة 20 يوليوز 2007، وأقرت بعد المداولة ما يلي :

1 . تمنح جائزة الشعر للشاعر منير الإدريسي عن مجموعته " مرايا الريش الخفيف " .

وتنوّه بالمجموعتين التاليتين :

- " أخرج من الشمس " للشاعر هشام الدللوري .

- " ظل المحارب " للشاعر سامي الدقاقي .

2 . تمنح جائزة القصة للقاص نبيل دريوش عن مجموعته " ملاحم صغيرة " .

3 . تحجب جائزتا الرواية والمسرح .

وتألفت اللجنة من الأساتذة : عبد السلام المساوي ، محمد عزيز الحصيني ، محمد بوجبيري، سعيد يقطين ، ربيعة ريحان ، محمد معتصم .

* أعضاء جدد في اتحاد كتاب المغرب :

بحضور أعضاء لجنة التحكيم، الأساتذة : محمد مصطفى القباج، حسن بحراوي، محمد بوخزار، وأعضاء المكتب المركزي، وبرئاسة رئيس اتحاد كتاب المغرب، انعقد اجتماع بمقر الاتحاد خلال يوم الأربعاء 18 يوليوز 2007، للنظر والبت في طلبات العضوية للمترشحات والمترشحين الجدد. وقبل الشروع في البت، وتطبيقا للفصول 3، 9، 15، من القانون الأساسي لاتحاد كتاب المغرب، تم التذكير بالمعايير المحددة التي تأخذ بعين الاعتبار القيمة الفنية والفكرية للمنشورات، ووتيرة النشر وانتظامه، وما للمترشح من حضور وإشعاع في المشهد الأدبي والثقافي- وبعد النظر في طلبات الترشيح تقرر منح العضوية في اتحاد كتاب المغرب للكاتبات والكتاب الآتية أسماؤهم: لطيفة لبصير، سهام بنقشرون، ادريس الكراوي، عبد المجيد الانتصار، عز الدين العلام، سعيد ياسف، عبد الرحيم الخصار، حسن أوزال، مصطفى ملح، عبد الرحيم العطري، عبد الجواد الخنيفي.

مواقف الاتحاد :

- المكتب المركزي ينعى الباحث الأستاذ العربي الذهبي :

بلاغ

تلقى اتحاد كتاب المغرب ببالغ الأسى والحزن، خبر وفاة الباحث الجامعي، **العربي الذهبي**، العضو المنتخب بالمجلس الإداري لاتحاد كتاب المغرب، بسبب حادثة سير مفجعة أودت بحياته وهو بعد في عز شبابه يوم الأحد 24 يونيو 2007 .

فالراحل من مواليد سطات عام 1963، وعمل أستاذا باحثا بشعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال بجامعة القاضي عياض بمراكش. لقد تميز الفقيد بحضوره اللافت في أنشطة الاتحاد، وفي أشغال مجلسه الإداري، وفي السجال النقدي، حيث كان يواصل النشر بعدة ملاحق ثقافية، منها العلم، والاتحاد الاشتراكي، وبيان اليوم.

لقد كان الراحل عضوا فاعلا في العديد من الجمعيات الثقافية ومجموعات البحث، منها: النادي السينمائي للفن السابع بسطات، وجمعية عكاظ للشفاهة والحكي ببني ملال، وكان منسقا لمركز الأبحاث حول المتخيل والإبداع الثقافي بكلية الآداب ببني ملال.

صدر للراحل سنة 2000 كتاب أكاديمي بعنوان "شعريات المتخيل: اقتراب ظاهراتي". وبهذه المناسبة المفجعة يعبر اتحاد كتاب المغرب عن أحر التعازي وأصدق المواساة لأسرة الفقيد ولأصدقائه، ولعموم الكتاب بالمغرب، آملين للجميع جميل الصبر وحسن الاحتمال.

الرباط في: 26 يونيو 2007

ويتضامن مع أسبوعية الوطن :

بلاغ

يتابع المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب بانشغال وقلق اعتقال مدير أسبوعية "الوطن الآن" الصحفي عبد الرحيم أريري و الصحفي مصطفى حرمة الله والتضييق على حريتهما، وتفتيش مقرّ الجريدة ومنزل مديرها.

إن المكتب المركزي يؤكد تضامنه مع أسبوعية "الوطن الآن" ويطالب بإطلاق سراح مديرها والصحفي العامل بها، احتراما للحق في نشر الخبر الصحيح وفي الاستناد إلى مصادره المشروعة. إن قانونية فتح تحقيق بصدد أخبار أو معلومات نشرتها الصحف لا تبرره أشكال التضييق والاعتقال في حقّ الصحفيين؛ ولا ينبغي أن تحدّ من حرية الصحفي ولا أن تحول دون احترام حرية الرأي والتعبير.

الرباط في 20 يوليوز 2007

ومع نيشان وتيل كيل ولوجورنال

بلاغ

يتابع المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب بقلق بالغ، ما تتعرض له حرية التعبير والنشر بالصحافة من تضييق ومحاكمة واعتقال. وأمام هذا التضييق يجدد اتحاد كتاب المغرب تضامنه التامّ مع الصحافيين والصحف التي طالها الحجز أو التوقيف أو المتابعة القضائية. ويستنكر ما تعرّضت له "نيشان" و"تيل كيل" من حجز وإتلاف، والرقابة المسبقة على العدد الأخير من "لوجورنال"، والاستنطاق المطوّل لمدير مجلتي "نيشان" و"تيل كيل"، واستمرار مقاضاة الصحفي مصطفى حرمة الله من جريدة "الوطن الآن" في حالة اعتقال رغم الضمانات المتوفرة.

إن اتحاد كتاب المغرب ليؤكد من جديد، إدانته لما يتعرض له الحق في المعلومة وفي الخبر وفي النقد عبر الصحافة من تضييق ومصادرة، وما يطال قانون الصحافة الساري المفعول من خرق وتجاوز. ويعبر عن مخاوفه من أن تكون هذه الإجراءات مدخلا للعودة إلى أساليب الماضي، وتنكرا لما انتهى إليه تقرير الخمسينية وهيئة الإنصاف والمصالحة من اقتراحات وتوصيات بهذا الخصوص.

إن اتحاد كتاب المغرب، يؤكد تشبثه التامّ بضرورة احترام السلطات لحرية الرأي والتعبير والنشر، بعيدا عن التضييق والحجز والمصادرة، وعن إشهار المقدس من جديد في وجه الصحافة والصحفيين.

إن المغرب المتضامن ضدّ الإرهاب، وفي سبيل إضفاء الشرعية الدولية على مغربية الصحراء، وضدّ الفقر ومختلف التحديات الاجتماعية والسياسية، هذا المغرب يستحق توسيعا لمجال الحريات، وتقديرا مستحقا لحرية الفكر والتعبير والنقد.

الرباط في 8 غشت 2007

اتحاد كتاب المغرب يهنئ الأستاذ عباس الفاسي بتعيينه وزيرا أول :

الرباط في 2007/09/20

المحترم الأستاذ عباس الفاسي
الأمين العام لحزب الاستقلال
الوزير الأول المعين

تحية تقدير خالصة . وبعد ،

يشرفني أن أعبر لكم ، باسم اتحاد كتاب المغرب ، عن اصدق التهاني بمناسبة تعيينكم وزيرا أول ، تعزيزا للمنهجية الديموقراطية ، وانسجاما مع نتائج الاستحقاق الانتخابي للسابع من سبتمبر 2007 التي بوأت حزب الاستقلال المرتبة الأولى بين الأحزاب المتنافسة ، والكتلة الديموقراطية القوة السياسية الأولى بالمغرب ، فيما أكدت التصويت الإيجابي على الأغلبية المنتهية ولايتها .

نتمنى لكم التوفيق في المشاورات السياسية بقصد تشكيل حكومة سياسية قوية متجانسة .

مع فائق التقدير .

عبد الحميد عقار
رئيس اتحاد كتاب المغرب

* الحياة التنظيمية للاتحاد :

- طبقا للفصل التاسع من القانون الأساسي لاتحاد كتاب المغرب أشرف المكتب المركزي على اجتماع لكتاب فروع الاتحاد بقصد مناقشة القانون الداخلي للاتحاد والمصادقة عليه، علما أن كتاب الفروع سبق أن توصلوا بنسخة مشروع القانون الداخلي .

وبعد نقاش مستفيض وإقرار التعديلات الوجيهة المقترحة تمت المصادقة على القانون الداخلي بإجماع الحاضرين وذلك بقر اتحاد كتاب المغرب بتاريخ 14 يوليوز 2007 .

- **المشاركة في اجتماع المكتب الدائم والمهرجان الشعري المواكب له :**

شارك المكتب المركزي لاتحاد كتاب المغرب ممثلا بالأستاذ عبد الحميد عقار رئيس الاتحاد في اجتماع المكتب الدائم للاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب وبالشاعر والصحفي جمال الموساوي في المهرجان الشعري المواكب، وذلك بالمنامة بمملكة البحرين خلال الأيام من 2 إلى 5 دجنبر 2007 .

كما شاركت الباحثة زهور كرام بدعوة خاصة من أسرة الأدباء والكتاب في البحرين في ندوة "الأدب البحريني" .

ومن أبرز قرارات اجتماع المكتب الدائم قبول جمعية الكتاب بعُمَان عضوا جديدا في الاتحاد العام، وإصدار بيان حول أبرز القضايا والتحديات في العالم العربي اليوم، وإصدار التقرير الأول عن حال حرية الرأي والتعبير والفكر والنشر بالعالم العربي راهنا .

ويتوجه المكتب المركزي بالشكر والامتنان للأستاذ عباس الفاسي الوزير الأول على تفضله بتأمين تذكرتي السفر إلى البحرين لوفد اتحاد كتاب المغرب .

ARCHIVE

إصدارات الاتحاد

- مجلة **"آفاق"** عدد 74، يونيو 2007 .
- **فراشات هاربة**، سيرة ذاتية، عبد الكريم الطبال، يونيو 2007 .
- **قرابين**، شعر، محمد بودويك، يونيو 2007 .
- **أعمال المجهول**، شعر، نبيل منصر، يونيو2007 .
- **بعيدا عن بوقانا**، رواية، عبد الحكيم امعيوة، شتنبر 2007 .
- **قصة حب دكالية**، محكيات، سعيد عاهد، شتنبر 2007 .
- الكتابة النسائية : **محكي الأنا، محكي الحياة**، أعمال ندوة، يوليوز 2007 .

التقرير المالي للاتحاد إلى غاية 2007/09/30

الحساب البنكي إلى غاية
30 شتنبر 2007

المداخيل		المصاريف	
– الرصيد إلى غاية 2005/02/22	454.552,83	– مصاريف تنظيم المؤتمر 16	34.279,00
– الدعم والمنح	641.000,00	– التحويل للصندوق	194.877,21
– التحويل من الحساب البريدي	180.000,00		
– مبيعات المنشورات	86.284,40	– المصاريف العامة	1.058.336,47
– الاشتراكات	11.100,00	– مصاريف مختلفة	3.000,00
		– الرصيد إلى غاية 30 شتنبر 2007	82.444,55
المجموع	**1.372.937,00**	**المجموع**	**1.372.937,23**

الحساب البريدي إلى غاية
30 شتنبر 2007

المداخيل		المصاريف	
- الرصيد إلى غاية 2005/02/22	189.226,83	- مصاريف تنظيم المؤتمر 16	11.145,00
- الاشتراكات	5637,00	- التحويل إلى التجاري وفا بنك	180.000,00
- الدعم والمنح	10.000,00	- المصاريف	11.463,87
		- الرصيد إلى غاية 30 شتنبر 2007	2.254,96
المجموع	204.863,83	المجموع	**204.863,83**

رصيد الصندوق إلى غاية
30 شتنبر 2007

		- مصاريف تنظيم المؤتمر 16	25.499,70
- الاشتراكات	25.500,00	- مصاريف مختلفة	194.838,81
- التحويل من التجاري وفا بنك	194.877,21	**الفائض في الصندوق إلى غاية 30 شتنبر 2007**	38,70
	220.377,21		220.377,21

بيان حسابي للفترة الممتدة
من 22 فبراير 2005
إلى 30 شتنبر 2007

المداخيل		المصاريف	
– كراء المقر	40.595,00	– الاشتراكات	42.237,00
– التنقل	259.996,88	– الدعم والمنح	641.000,00
– التعويضات والمكافآت	215.252,00	– مبيعات المنشورات	86.284,40
– الإقامة	77.669,50		
– التغذية	63.900,00		
– الهاتف	130.249,30		
– مصاريف الطباعة	318.991,00		
– مصاريف التسيير	107.465,47		
– الدعم	50.520,00		
		– العجز إلى غاية 30 شتنبر 2007	495.117,75
المجموع	**1.264.639,15**	**المجموع**	**1.264.639,15**